نديم غورسيل

محمد الفاتح



رواية

منشورات الجمل

محمد الفاتح



نديم غورسيل

محمد الفاتح

ترجمها عن التركية: نصرت مردان

رواية

منشورات الجمل

نديم غورسيل (انظر المقدمة ص ٥).

ولد **نصرت مردان** في ١٩٤٨ بمدينة كركوك. تلقى دراسته العليا بتركية. قاص وشاعر وكاتب مسرحي عمل أستاذا لمادة (العلوم الإدارية) لسنوات طويلة بجامعة صلاح الدين بمدينة أربيل في العراق. ساهم بتعريف عدد كبير من الشعراء والكتاب الأتراك للمثقفين العرب وبالعكس. ترجم إلى العربية مسرحية **مطعم القردة الحية** للتركي غونكور ديلمن (ضمن سلسلة المسرح العالمي - الكويت ١٩٨٩)، روايتي **الصفيحة** و**لو يقتلون الثعبان** (بغداد ١٩٩٠) للروائي التركي يشار كمال. أصدر ملفاً عن البياتي في مجلة (كتابات تركية) بأنقرة، إضافة إلى قصائد للسياب ومحمد الماغوط وترجم مسرحية (النار والزيتون) لألفريد فرج إلى التركية. أصدر باللغة التركمانية: (عمت صباحاً أيها المساء) مجموعة قصص (الصداقة مع الطيور) شعر (جنوح السمكة في الماء) مقالات أدبية، اصدر مع الشاعرين محمد عمر قازانجي وعصمت اوزجان بياناً شعريا، وأسس معهم (جماعة الشفق) الشعرية، التي أصدرت ديواناً شعرياً مشتركاً بنفس الاسم. يقيم حالياً في جنيف.

نديم غورسيل: **قاطع البسفور**، رواية محمد الفاتح، ترجمة: نصرت مردان

الطبعة الأولى - كولونيا - ألمانيا

Nedim Gürsel: Boğazkesen, Fatih'in Romani

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

رسمة محمد الفاتح في هذه الرواية

بين أول رواية تركية، وهي رواية (غرام العربة) لرجائي زادة محمود أكرم التي نشرت عام ١٨٩٦ ورواية (محمد الفاتح) التي تعتبر الرواية الأولى لنديم غورسيل والتي صدرت طبعتها الأولى بتركية في ١٩٩٥ مسافة زمنية عمرها مائة عام تقريباً، هي عمر الرواية التركية. ورغم فترة القرن هذه إلا أن معرفة القارئ العربي للمسافة الطيبة التي بلغتها القصة والرواية التركية تعتبر متواضعة قياساً بالقارئ الأوروبي فهو بعد أن تعرف قبل سنوات طويلة على أعمال يشار كمال، واورخان كمال، وسعيد فائق، وصباح الدين علي، وجتين التان تعرف في السنوات الأخيرة على أعمال أورخان باموق، أحمد آلتان، فريدة جيجك اوغلو، فروزان، نازلي أراي، لطيفة تكين، مراد مونغان، ونديم غورسيل.

ولد نديم غورسيل عام ١٩٥١، انهى دراسته بجامعة السوربون. أهتم في مجاميعه القصصية: صيف استمر طويلاً (١٩٧٥)، كتاب النساء (١٩٨٣) في التحقيق (١٩٨٨) الترام الأخير (١٩٩١) استانبول حبيبتي (١٩٨٦) بالتعبير عن المشاعر الفردية، والبحث عن الذات، والاغتراب، وما يتعرض له المثقفون من ضغوط ومعاناة. منع لفترة كتابه (المرأة الأولى) بتهمة الإباحية وتجاوزه على القيم الأخلاقية.

الرواية التي بين يديك عزيزي القارئ هي التجربة الروائية الأولى للمؤلف كما أسلفنا، وقد طبعت ست طبعات في تركية خلال ثلاث سنوات. كما طبعت أربع طبعات في فرنسا، وترجمت إلى الإيطالية والألمانية وهي ليست رواية تاريخية، وإن كانت تتحدث عن محمد الفاتح، وفتح استانبول. بل هي بمثابة رواية باروكية لكونها تتميز بالحركية والانتقالات والأسلوب المتميز بحرية الحركة والاهتمام بالزخارف اللفظية.

استقبلت الأوساط الإسلامية في تركية الرواية بردود فعل واسعة من



الاستنكار، لكونها تقلل من شأن السلطان محمد الفاتح، وتتهمه بالدموية والشذوذ. وهو ما يرفضه الكاتب الذي أعلن أنه أعتمد في كتابة روايته على الوثائق. ويعترف بأنه يعتبر محمد الفاتح بطل روايته مقاتلاً وفناناً ومثقفاً في آن واحد. فهو قبل كل شيء قائد عسكري واستراتيجي مهم. وأنه هو الذي بدأ عصر النهضة في العهد العثماني. إذ أنشأ ورشات للرسم داخل قصره، ودعا خيرة الرسامين في ذلك العصر لزيارته. كما أرسى أسس الكثير من المؤسسات التي لا تزال قائمة. وكان يجيد العديد من اللغات منها اليونانية والفارسية والعربية. ويفسر بعض اليونانيين معرفة السلطان محمد الفاتح باليونانية، بأن أمه قد تكون يونانية الأصل. وهو ما يرفضه غورسيل في إحدى مقابلاته بقوله: ليس ثمة وثيقة تؤيد هذا الأمر، لكن أمّه اسمها إسلامي وقد تكون منحدره من عائلة إسلامية. خاصة انه كان لوالده السلطان مراد زوجات كثيرات وأغلبهن مسيحيات.

بالنسبة لعنوان الرواية (بوغاز كسه ن) فهو الاسم الذي أطلقه أولاً السلطان محمد الفاتح على الجانب الأوروبي من تركية (روملي) لكنه لغوياً يعني أيضاً (قاطع البسفور) ولفظة (بوغاز) وحدها تعني: البسفور، المضيق، البلعوم، القصبة.. الرواية من جانب أخر تتحدث إلى جانب محمد الفاتح عن قصة الكاتب فاتح خزندار الذي يكتب هذه الرواية... حيث تعكس الرواية في جزئها الأخير تهويمات هذا الروائي القائمة على الخوض في عالم الكلمات والرؤى وحبه الشهواني الجارف لدنيز الذي يضعه في نهاية المطاف بين الاستجابة لهذا الهوى الجارف وبين إكماله للرواية. الرواية التي بين أيديكم ليست رواية تاريخية، وإن حملت اسم (رواية محمد الفاتح) بل هي سرد باروكي معاصر لشخصية تاريخية، وحدث تاريخي.

نصرت مردان / جنيف

«وكان سوان، يحس من خلال لوحة بلليني بود جامح تجاه محمد الثاني فاتح مدينة استانبول. وحسب ما يذكره مؤرخ من البندقية فانه قام بطعن جارية هام بها بالخنجر في سبيل أن يتحرر من حبها الآسر، بعد أن ملكت عليه عقله، وبذلك عادت السكينة إلى نفسه».

مارسيل بروست، البحث عن الزمن الضائع

-١-

في النهارات التي استمرت طويلاً نهضت مبكراً من أجل الكتابة. كنت سأتخلى عن كتابة هذه الرواية، لو علمت أنني سوف أقضي أغلب أوقاتي كل صباح من أيام الخريف المضببة في الخارج، وأن فقاعات مياه البسفور المتدفقة كالمرآة من شناشيل القصر البحري، ستقودني نحو أعماق الدوامة. ولكنت سأترك القصر البحري الذي استأجرته في العطلة مع أصدقائي في الأسبوع الأول من أيلول وأذهب مثلهم إلى باريس حيث عملي.. ولأننا أمضينا صيفاً جميلاً، بعيداً عن البنايات التي تحجب الغرف الخلفية، بعيدين عن قيظ آب الذي يحاصر المقاهي الظليلة على شاطئ البحر. كنا زوجين متفاهمين، نسبح في مياه البسفور الباردة، نجلس على صخور الغرانيت المغطاة بالطحالب، وفي المساء نكون في مطعم السمك الذي يفوح برائحة الزيت المقلي في جو من التفاهم والود. كنا ندخل البحر بعد تناول الفطور في الحديقة الخلفية، فنستأجر قاربا ونتنزه معاً.

ظهراً كنا نتلهف لساعة الشاي بغية استمرار حديثنا. أنهينا العطلة وقيظ شهر آب بأيامه الطويلة بمثل هذا الجو من الحيوية. في آخر يوم ونحن نعد العدة للعودة، قلت لزوجتي بأنني أريد تمضية وقت آخر باستانبول لغرض الإطلاع على أرشيف متحف طوب قابي ولا بأس من تأخري أسبوعاً عن دروسي في الجامعة. قابلت زوجتي عرضي بالقبول، وعلى أمل اللقاء بعد عشرة أيام انطلقت إلى باريس.

بعد أن أصبحت وحيداً في القصر، قلت لصاحب القصر بأنني سوف أتناول طعامي في المطبخ بدلاً من الصالة. ولإبقاء الأثاث نظيفاً طلبت منه أن يغطيه بالشراشف، وأن يضع وسائد الأريكة في الخزانة، وأن يغلق جميع الغرف ماعدا الغرفة ذات الشناشيل المطلة على البحر. وهكذا أصبحت وحيداً في القصر الكبير. فأصبح بوسعي أن أبدأ بكتابة الرواية التي خططت لها طوال الصيف، ورغم أنه كان متكاملاً في مخيلتي إلا إنني سرعان ما كنت أتخلى عن التنفيذ حينما لم يكن يبقى أمامي إلا البدء بالكتابة.

رغم قيامي بجمع المصادر والوثائق الخاصة بالموضوع، كان لابد أن أبدأ بكلمة، رغم إحساسي بأنها قريبة مني كل صباح كالضباب الذي ينتقل نحو الضفة الأخرى، ومثل كل شيء أستطيع لمسه والإحساس به. كنت أتأمل بإعجاب أبراجه البراقة تحت ضوء النهار، وقلاعه الدائرية، ومياهه البيضاء الممتدة على مد البصر. البيوت المتناثرة المختلفة في السعة والصغر والبنايات المرتفعة نحو التلال في أضيق نقطة من البسفور قرب هذه القلعة الجميلة هي أشبه بالإمبراطورية أيام عزها. كانت أمامي مديرة ظهرها نحو السهل. كانت تبدو قريبة كالماء، واقعاً كالنهار.

رغم ذلك وبسبب عادتي السيئة كان لابد لي أن أبدا بكلمة. كان السلطان محمد - لم يكن فاتحاً في ذلك الوقت - حينما أطلق عليه اسم (قاطع البسفور) لم يكن يدري قطعاً بأنه بعد سنوات وقرون سيظهر من يكتب رواية عنه بوحي من هذا الاسم. وأن المؤرخين سيتناولون بالدراسة رقاب ضحاياه التي قطعت والأجساد التي فصلت إلى قسمين بالمنشار وأجلس أصحابها على الخوازيق. كما لم يدرك أنهم سيسألونه الحساب. وكان محمد الفاتح - أصبح فاتحاً في هذا الوقت - حينما كان يعبر بالقارب السلطاني صوب اوسكودار، لم يكن يعلم أن فمه الشهواني الجميل الذي نعرفه من خلال لوحة بليني ولحيته السوداء ستغرقان بالفقاعات، وأن أصابعه الشهوانية التي تمسك بالوردة في المنمنمة ستنتفخ من المرض، والوردة - ذات الأوراق الثلاث - المقتطفة من حديقة الإمبراطورية ستذبل. قطعاً لم يكن يدرك ذلك. ألم يكن ابن السلطان مراد خان محمد سلطان خان البالغ التاسعة والأربعين يشعر بالنشوة حقاً، وهو يتأمل القلعة التي أنشأها في العشرين عندما كان جنوده يتوجهون من روملي إلى الأناضول متذكراً أيام الشباب وليالي الأرق؟ لنفرض أنه تذكر. الفرض لا يكفي أن نفرض بل لنعد إلى تلك الأيام ونضع الصخرة الأولى للقلعة.

هذا الجزء يبحث عن كيفية بناء السلطان محمد خان قلعة قاطع البسفور

قيل من سيزحف على بلاد الروم. قالوا «صاحب العزة! فسفن الكفار حاصرت غاليبولي».

حضروا مع السلطان إلى قوجالي، ومن أعالي البسفور رابط أمام آق حصار. ومن الأرض التي مر منها جده عبر إلى بلاد الروم. وأصدر أمره إلى خليل باشا قائلاً «أقم قلعة هنا». وهكذا أقيمت القلعة في الموقع الذي أمر به السلطان.

(تواريخ آل عثمان، عاشق باشا)

نصبت خيمة السلطان في باحة دير متهدم. كان الحراس بشواربهم الكثة ودروعهم اللامعة ونظراتهم التي تركزت على نقطة ثابتة لا تحيد عنها، يبدون جزءاً لا يمكن فصله عن تلك الخيمة. أيديهم على سيوفهم وآدانهم صاغية للانقضاض على الجهة التي تصدر عنها أقل همسة أو على ظلّ خيال قد يظهر خلف الجدار. لم يكن حتى بمقدور الطيور أن تتقرب من الخيمة المنصوبة الآن في باحة الدير أو أثناء إقامتها على مرتفع أو تل أو وسط غابة كثيفة أثناء فترة الصيد والقنص. كانت الخيمة بألويتها البيضاء الخفاقة تبدو على الأرض التي نصبت عليها بالأوتاد الحديدية وكأنها جزء لا يتجزأ من أرض الإمبراطورية. فإنها وبحماية الإنكشارية تبدو، كأنها مصانة بحكم ذاتي وتحمي نفسها بنفسها. في ضوء الشفق المنبلج كانت خيمة السلطان محمد تبدو في فناء الدير وكأنها مقبلة من عالم أخر.

مع آذان الفجر أستيقظ السلطان من نومه ولبس على الفور ملابسه ثم أمر بأعداد حصانه. انتظر هنيهة ثم رفع عينيه إلى السماء. كانت النجوم على وشك الاختفاء. على ضوء النهار الذي بدأ بالشروق شاهد سقوط نجمة. ربما كان ذلك نذيراً بسقوط بيزنطة، وربما كان ذلك بشيراً ببداية النهاية. التمعت عيناه حينما تذكر جديث الرسول عن الذي سيفتح القسطنطينية. في هذا الصباح شعر بأنه سيكون قائد أولئك الجند. أحس بهياج البحر في أعماقه. قبل أن يعتلي حصانه عرف ميكائيل من جناحه المتكسر ومن نظراته. قال في نفسه «سنلتقي قريباً في الربيع القادم.. سنلتقي في أيا صوفيا» ثم وجه حصانه صوب البحر.

اطلع عن كثب على طبيعة الأرض المحيطة بأطراف البسفور صعوداً ونزولاً، وتابع بدقة حركة التيار ثم حدد بدقة الموقع المناسب لإنشاء القلعة مقابل قلعة آق حصار التي أنشأها جده بايزيد والمطلة على السهل الذي يفضي إلى دير ميكائيل أركي.

كانت الأرض تنخفض بالتدريج نحو مستوى البحر إلا أنها سرعان ما تبدأ بالارتفاع قرب الأراضي الممتدة نحو الأناضول. كانت المياه تندفع بقوة ثم تعود

تتراجع خلال ممر ضيق سعته ستمائة متر. لم يكن يعلم أن داريوس انطلق بجيوشه من نفس المكان قبل قرون عدة لإشعال الحرائق في اليونان، لكنه يعلم حينما كان بأدرنة أن والده السلطان مراد خان قد استعان بسفن من جنوه لرفع الحصار الذي فرضه عليه ملك المجر لاويسلاوس بإغلاقه مضيق غاليبولي، بعد أن تمكن بالعناية الإلهية من الوصول إلى أعالي المضيق. في ليلة حلم بالرسول الذي كان متوشحاً بشال أحمر. كان في يمينه الإمام الحسن متقلداً سيفه، وعلى يساره الإمام الحسين.. وكانت الدموع تنهمر من عيونهما. كانت عمامة الرسول مطوية اثنتي عشرة طوية، ويرتدي ثوباً من الوبر الأصفر، وبالقرب منه سجادة من حرير. اقترب في منامه من الرسول مردداً الأدعية والصلوات ثم قبّل بخشوع يده المباركة الناعمة. رفع الرسول الوشاح من وجهه وقدمه له «إليك لواء أيوب الأنصاري» تقشعت عيناه من النور الذي كان ساطعاً من محياه وتحول الوشاح في يده إلى راية.

حينما استيقظ من نومه قرر أن لا يروي حلمه للمنجمين في القصر. بل فضل أن يرويه لذلك الشيخ الحروفي* الغريب الذي يثير بخطبه النارية ليس جمهور المسلمين وحسب بل المسيحيين واليهود على حد سواء. أمر بإحضار ذلك الشيخ الغريب ليفسر حلمه الذي يقض مضجعه. حضر الشيخ وبعد أن استمع إليه حدق فيه وقال له مبتسماً بخبث «مولاي.. المنام ليس بحاجة إلى تفسير. رسولنا صلى الله عليه وسلم حدثك بلغة الضاد ووعدك الوعد الجميل. بشرك أجمل بشرى ومنحك أعظم هبة ألا وهي راية الإسلام لتجعلها خفاقة في أعلى قلعة من قلاع الكفار بمدينة القسطنطينية». قال ذلك ثم غادر الشيخ الغريب القصر بعد أن كافأه السلطان بكيس من الذهب.

إنه الآن يفكر على شاطئ البسفور بالوسيلة التي ينفذ بها أمر الرسول، راسماً في ذهنه صورة القلعة والأبراج التي يريد أنشأها،مفكراً بأدق تفاصيلها، الأبواب وصخور الأبراج وغيرها.وفجأة أحس برائحة لحم محترق. داهمه شعور طاغ بالندم لعدم إنقاذه الشيخ الحروفي من الموت الذي لم يكن له من ذنب سوى إعلانه عن تأييده للأفكار التي نادى بها الشيخ بدر الدين** في خطبه بسرز. لكنه آنذاك لم

يكن إلا أميراً لاحول له ولا قوة. لو أن كل ماجرى الآن قد بلغ أوج قوته لما سلّم ذلك الشيخ إلى الملا فخرالدين وإلى رجاله لخشيته منهم، بعد أن عجز عن مواجهة إصرار خليل باشا بتسليمه لهم، رغم لجوء الشيخ لقصره طلباً للأمان في تلك الليلة. وبناءً على الحكم الصادر من المفتي تم الحكم عليه بالموت حرقاً داخل السوق. أثناء التنفيذ شبت النار في لحية الملا فخرالدين. وظل الجمع المحتشد في حول الشيخ المحترق يكبّر ويسبّح حتى الصباح. بدا وكأنه رأى وجه الشيخ وسط كتلة النار المحرقة يصرخ به مستنجداً «مولاي، أنقذني من جور الظالمين.» وحينما أوشك على أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، أنشد بيتاً ليونس***: «ما جسد المحترقين بنار العشق إلا هالة من نور»

مع ضوء النهار غمر الضياء التلال المحيطة بمضيق البسفور، وكأن هالات من النور انثالت من السماء. كان كل شيء في الكون يبدو شفيفاً وصامتاً. وكمن يريد تبرير خطأه وإثمه، هدر صوت السلطان بقصر أدرنة:

«هنا يوضع أول صخرة لقلعة قاطع البسفور»

* * *

بدأ العمال والبناؤن الذين أقبلوا من كل حدب وصوب بتشييد القلعة بالبسملة والتكبير والصلوات في ٢٦ آذار من عام ١٤٥٢. قاموا بنقل الصخور التي أقتلعت من مناجم الأناضول، والأخشاب التي قطعت من غابات بونتوس والتي أفرغتها السفن على المرفأ ثم انتقلت من يد إلى يد عبر التلال والسفوح، وقامت الأيدي نفسها بإعداد الآجر الآتي من خراسان ونحت الصخور، وكان الكل يبدي المهارة المنتظرة في العمل رغم أيديهم التي كانت تدمي وأرجلهم الحافية ورؤوسهم الحاسرة تحت الشمس المحرقة، لكن النسائم الهابة من البحر الأسود كانت تخفف قليلاً من معاناتهم. كانت رائحة العرق والرمال والصخور المتفتتة تختلط بصياح النوارس. كان البناء يكتمل شيئاً فشيئاً بالجهد الجماعي. وساهم خليل باشا ببناء برج على الشاطئ وزاغوس وساروجا باشا ببناء الأبراج في الشمال والجنوب. الكل كان يعمل في جو محموم من المنافسة لإنهاء الأبراج قبل الآخر. ثمة سفن امتلأت أشرعتها برياح الربيع كانت تنقل الصخور والأخشاب من البحر الأسود. وكانت السفن الحربية تتناوب على السير في مضيق البسفور جيئة

وذهاباً راصدة تحركات العدو. كان السلطان يشرف بنفسه على ورشات العمل، يرسل أوامره للجميع ويطلب التنسيق فيما بينهم، معاقباً المتقاعسين بالإعدام والماهرين بأجزل العطايا والمنح. كان هناك عاملان على يمين ويسار كل بناء وكأنهما ملائكة الخطيئة بالنسبة للبنائين الذين يضعون الصخور الثقيلة كالرصاص بالترتيب فوق طبقة الآجر بصفوف متراصة. وهكذا ارتفع الجدار رويدا رويدا بالصخور والآجر والجص والرمل. وتم تغليف خشب الأبراج بأغلفة من الرصاص.

وقد كافأ الجند المشاركين في تلك السفن التي هبت لنجدته في القتال بقطعة دوكا ذهبية. كيف له أن ينسى تلك الأيام التي كان لا يزال فيها صبياً يافعاً يشرف على رعايته بقصر أدرنه الوزير خليل باشا. كان يفكر بالأيام الخوالي وهو ينتقل من مكان إلى أخر على ظهر حصانه الأبلق. للحظات وجد نفسه يفكر بذلك الدرويش الحروفي العجوز الذي أقبل من بلاد العجم؛ والذي بشره أن فتح القسطنطينية سيتم على يديه. فكر وكأن كل ذلك قد حدث بالأمس القريب.

انتصبت القلعة بأبراجها بعد أربعة أشهر من العرق والأدعية والصلوات والأغاني. اكتمل البناء سنة ٨٥٦ من شهر رجب في عهد السلطان الأعظم والخاقان المعظم محمد بن مراد. سجل الإنجاز كما يلي:

سميت هذه القلعة بقاطع البسفور

وأدرجت الواقعة التاريخية على استانبول.

---

* الحروفية: مذهب صوفي قائم على تقديس الحروف باعتبارها تجلياً للكون. انتشر على يد فضل الله نعيمي في القرن الرابع عشر.

** الشيخ بدر الدين قاضي سماونة في زمن العثمانيين، نادى بالمشاعية في كل شيء ماعدا خد الحبيب.

*** يونس امرة من أكبر شعراء التصوف في الشعر التركي. «المترجم»

-٢-

أنهيت قصة بناء القلعة حينما كان النهار على وشك أن ينبلج. راقبت فترة حركة الفراشة المتقدمة نحو ضوء المصباح. كانت ترسم أثناء دورانها دوائر يزداد عددها في كل مرة تقترب فيها من المصباح. في كل مرة كانت تبدو على قيد أنملة من الاحتراق. عبثاً انتظرت سقوطها محترقة فوق الورقة المحتفظة ببياضها رغم بقع الحبر المنتشرة هنا وهناك. كانت الورقة تبدو كالكفن. كفن قديم يحتفظ في داخله بأسطر مكتوبة ومشطوبة عدة مرات. لم أكن أدري سبب رغبتي في رؤية فراشات محترقة فوق مسودة أوراقي. لكن أي من الفراشات لم تقترب من الضوء إلى درجة الاحتراق. على اثر ذلك أطفأت النور وأشعلت سيكارة أمام النافذة. لا يزال الظلام يغمر كل مكان حيث لم أتمكن من رؤية الضفة الأخرى. مرت من أمامي باخرة سوفيتية كانت قد أطفأت أضواءها مخلفة وراءها شريطاً من الزبد الأبيض. نظرت طويلاً إلى أثر الرغوة الطافية على البحر. كنت أشعر بحبور داخلي لإنهائي الجزء الأول من الرواية. تمددت على فراشي محدقاً في السقف. لم أكن أشعر بالنعاس. القلعة والأبراج لم تعد تنفع بشيء، فحركة السير المستمرة منذ مئات السنين من مضيق البسفور مستمرة حتى اليوم. من يدري كم من سفينة ومسافر وبحّار مرّ من هذه المياه؟ كم سفينة بلغت المرفأ وكم منها استطاعت العودة أدراجها؟

انعكس على السقف ضوء مجهول سرعان ما أضاء الغرفة وغطى مساحة السقف. انعكست زرقة صافية على كل مكان، وانعكست حزمة من الألوان على الجدار. ارتخى عمق البسفور وتموجات مياهه ومحاراته المضاءة فوق عيني الناعستين. مرّ من السقف سرب من الأسماك الفضية والملونة وغلبني النعاس على وقع صوت الأمواج.

استيقظت على صوت ضجة. كان السرير يهتز وكأن ثمة زلزال يحدث. الفراش والباب وزجاج النوافذ كانت تهتزّ بعنف. توقعت أن تكون سفينة ما قد اصطدمت

بالقصر البحري. لكنني حينما نهضت أحسست أن الضجة أتت من الأسفل. نهضت وهرعت إلى الطابق السفلي. كلما نزلت كان الصخب يزداد. رأيت الثريا تهتز كالبندول، والمرآة بدت، وكأنها تتمرجح شمالاً ويميناً. لم أفهم سبب كل هذا الصخب. كانت جدران القصر تبدو وكأنها على وشك أن تتهدم تحت ضربات مطارق حديدية بيد مجنون. كان مصدر الضجة هناك، فالصوت قادم منه. نزلت إلى الشاطئ وتوجهت بقارب صوب مرآب القوارب.

ثمة حوت دخل مياه هذه المنطقة الضحلة فكان يضرب باستمرار بذيله يميناً ويساراً بحثاً عن منفذ. ومع كل ضربة كانت المياه ترتفع حتى بلغت مستوى السقف. هدأ للحظة حينما اقترب برأسه من نقطة الخروج ثم ما لبث أن انطلق مسرعاً بعد أن بلغ العمق المطلوب. لربما يكون سوء حظه قد قاده إليّ حينما كان يطارد سرباً من اسماك البلاموط. لربما يكون قد ألقى نظرة على جدران مكمن القوارب المغطاة بالطحلب وعلى أعمدته الخشبية المتهرئة والمهملة منذ سنوات. وقد يكون قد بحث أثناء ذلك عن وجه أليف، وكأنه يبحث عن الأيام السالفة للقصر البحري والقوارب المصبوغة بالألون الزرقاء والخضراء وعن الصخور التي تبدو وكأنها منحوتة ومنقوشة منذ الأزل هناك. نظر إلى كل ذلك ثم اختفى في الأعماق. فكرت بالحوت وهو ينطلق مداعباً زبد البحر على ضوء الشمس في بحر مرمرة. أودعت نفسي الى المياه التي التمعت أضواؤها على السقف وقبل أن يلفني النوم قررت أن أبدأ الجزء الثاني من الرواية بمقتل اسبر حرب بصورة مؤلمة.

هذا الجزء عن القبطان انطونيوريزو وأسره، ونهايته المؤسفة

«أغرقت أول قذيفة اطلقت من هذه القلعة سفينة القبطان انطونيو ريزو حينما كان في البحر الأسود قبض عليه في أدرنة، وأرسل إلى السلطان التركي حيث سجن هناك. بعد أربعة عشر يوماً قتله السلطان بعد أن أجلسه على خازوق حديدي».

(رزنامة حصار القسطنطينية، نيقولوبربارو)

كان القبطان انطونيو جالساً في السفينة يتأمل الشاطئ الممتد من جانبيه. بسبب إفراطه في شرب النبيذ ليلة أمس، كان يحس بتثاقل في رأسه. في شبابه كان النسيم العليل كفيلاً بإزالة آثار الشراب. بينما الآن وبعد تجاوزه منتصف العمر، فإنه لازال وبروح من التفاؤل يشعر أن الإرهاق الجسدي الذي يشعر به هو بسبب النبيذ وليس بسبب العمر. فهو لا يزال يرى نفسه شاباً في العشرين، ذا لحية مقصوصة بعناية، على رأسه قبعة سوداء، ويرتدي قميصاً حريرياً ممتلئاً بالهواء كالشراع، وانه لا يزال يمتلك جاذبية كافية ليصرع بنظرة أشهر عاهرات غلاطة وابنة اكبر صيارفة سان غيامكو المدللة. وهو بسرواله المخطط القصير وحذائه الطويل الذي يصل ركبتيه وخنجره المرصع بالفضة يذكر الناظر إليه بأنه إزاء موظف في تشريفات قصر دوكلر وليس قبطاناً خبيراً بخفايا البحر. كان فعلاً رجلاً جميلاً، طويل القامة، ذا وجه طويل ورفيع. كانت ثمة أضواء زرقاء تشرق في عينيه دائماً. لم يكن يهوى في الحياة إلا النساء والبحر. أو بمعنى أصح البحر والنساء. ربما ستتساءلون وهل ثمة فرق بين العبارتين؟ أجل ثمة فرق كبير بينهما.

أصبح البحر كل شيء بالنسبة لأنطونيو، أمه، زاده وسره. كان قد ولد في البندقية، في كوخ لصياد سمك. توفيت أمه عندما بلغ الثالثة من عمره، وفي الخامسة عشرة فقد أباه. بفضل البحر وحده حقق كل شيء في الحياة. قوة الخيال، الذكاء والميل إلى الطعام. بفضل البحر وجد عملاً. وبفضله أيضاً تخلص من مواصلة حياته كصياد سمك معدم. حينما بدأ في محفل دوكلر، كان يفكر بالانطلاق صوب البحر. وقاده البحر إلى النساء. نساء الإسكندرية وغلاطة وطرابزون ذوات الأرداف العريضة. لم يكن في ذهنه حينما أصبح قبطاناً، وأثناء سكره في الحانات، وغنائه في غرف الخان إلا خيال واحد لا يتغير: البحر. لم يكن ذلك مرضاً يعاني منه بل حالة طبيعية، وشعوراً يبعث السكينة في نفسه. حتى قمصانه الحريرية التي يطويها بعناية، ويضعها في الخزانة، وأحذيته بل وحتى

نظراته كانت في زرقة البحر. حتى في هذه اللحظة التي يتأمل فيها شواطئ البسفور يفكر بالبحر. وبدلاً من أن يجهد نفسه ليبحث في البندقية عن مهنة أخرى لنفسه بعد أن تجاوز منتصف العمر، ويفكر ملياً بمستقبله ويمنح لحياته منحىً جديداً، كان يفكر مبتسماً بفم نفلي الشهواني الأحمر، وأسنانها النضيدة، وصدرها النافر. كان البحر هو الذي قاده إلى هذه المرأة. امرأة من أكثر النساء إثارة، وأكثرهن سخاءً في العطاء.

على طريق طرابزون في قبو للنبيذ بغلاطة تعرف على نفلي. اتفق معها على دوك واحد. مارس معها الحب في نهاية الممر الذي تحيط به الأشجار والمؤدي إلى أزقة الميناء الضيقة في غرفة مطلة على ساحة كبيرة في مواجهة الجدار الصخري لبرج المسيح. كان واضحاً أن نفلي استمتعت بذلك اللقاء وإلا هل يعقل أن تبقى مع أي زبون حتى الصباح مقابل دوك واحد. عكس ذلك ألم تكن ستلقي به إلى قارعة الطريق بعد فترة من المضاجعة الرتيبة حيث الكلاب السائبة الملطخة بالوحل. ابتسم انطونيو بكبرياء لنجاحه في الفوز حتى بإعجاب امرأة عاهرة اعتادت ممارسة الحب مع عدة رجال في يوم واحد. في هذا المساء سيرى نفلي قبل إقلاعه من طرابزون. في هذه المرة سيضاجعها دون مقابل، سيلتقيان كعاشقين أضنى بهما الشوق واللهفة. كان يعلم أنه سيهيم بها حباً وسيقع في هوى نفلي. هذه المرأة التي لم تبع كالكثير من النساء اللائي يتظاهرن بالشرف والعفة روحها في سوق النخاسة. فهي لم تسلم قلبها إلى الرجال الذين تسلم لهم جسدها. لا يزال يتذكر أنينها وتأوهاتها تحته، وكيف كانت تنشب أظافرها في لحمه مرددة بنشوة «حبيبي، حبيبي.. أوه يا ثوري الهائج.. يا ثور البندقية الهائج»! لن ينسى أناتها المنتشية مدى الحياة. لم يحب انطونيو اليونانية من طوافه المستمر في موانئ البحر الأبيض المتوسط كما أحبها من خلال الأنات التي كانت تنطلق من عمق فمها الوردي الجميل وفراغه. رغم ممارسته الحب لليلة أو خلال الغروب أو للفترة التي يستغرقها تناول كأس من النبيذ مع الكثير من النساء إلا أنه لم يرتبط بواحدة منهن. كان يتركهن في اليوم الثاني ويواصل رحيله. وفي الموانئ التي يلقي فيها

مرساته ويقضي وقتاً مبهجاً مع النساء يشعر باللذة ويمنحها. كان قد ترك نفسه للتيار مثل سفينة مشردة. يرحل من مدينة إلى أخرى، ومن امرأة إلى أخرى. كان دائما في إبحار متواصل خلف أجمل الأقمشة وأغلى المجوهرات، وأخطر المغامرات، متناولاً زجاجات النبيذ الأكثر مرارة والبهارات الأكثر حرقة. لكنه كان يتحرر كل صباح من أدران الليلة السابقة وإرهاقها ليعيش رغبات أعمق وأكثر دفئاً مع النساء. في كلّ مرّة يكرع فيها كأس النبيذ كان يحس بظمأ جديد كالظمأ الذي يحس به إلى أعماق نفلي التي كانت تشد جسده إلى جسدها الدافىء، ظمأ يزداد نهمه للشراب، وإلى ممارسة الحب كلما طال لحظاتها. هذه البيزنطية السمراء لا تشبه إطلاقا النساء اللائي عرفهن. كيف كان له أن يعرف أنه سيهيم بها، وسيظل منطبعاً على ذاكرته شعرها المبعثر في الفراش وتوتر ساقيها عند بلوغ نروة النشوة، وبقائها فترة من الوقت تأبى الاستسلام مثل نهر متمرد، وجسدها العاري - أجل جسدها على وجه الخصوص - محال أن ينسى كل ذلك. في هذه اللحظة التي يجلس فيها متأملاً البسفور مفكرا بنفلي، لم يكن يشك أنه سيعانقها كما تعانق الأبراج الشاطئ الذي يحيط بالقسطنطينية. بعد أشهر من الفراق سيلتقي بها هذا المساء، وسوف لن يفارقها أبداً.

حينما كانت سفينة البندقية تسابق الريح والتيار، وتتجه صوب بحر مرمرة، كانت ألوية سان ماركو تخفق في الريح، تأمل القبطان بدهشة الأبراج المنتصبة أمامه. أصابه الهلع وكأنه يهب من حلم طويل. لم يصدق ما تراه عيناه. لم يكن قد مرّ وقت طويل على انطلاقه للبحر الأسود. آنذاك لم يكن هناك غير دير متهدم في السفح. كانت الأشجار قد أزهرت مبشرة بقدوم الربيع. كانت النوارس تحلق بأجنحتها البيضاء كعادتها حول الأشرعة البيضاء. كل شيء كان يبدو في تلاؤم وانتظام. كل شيء كان يوحي بقدوم الربيع وجمال البحر والنوارس وحتى الحراس. كان انطونيو يشعر الارتياح وهو يتأمل سفوح الضفة اليسرى التي تبدو وكأنها مرشوشة بالزهور. لوحصل في يوم ما ووقعت الحرب فمن المحال إغلاق مضيق البسفور بل أن حركة السفن ستستمر فيه، وحتى لو أُغلق المضيق

جدلاً فسفن البندقية التجارية ستستمر في طريقها. السلام رائع وجميل حقاً. لم يكن القبطان البندقي يشعر بأدنى خوف من القراصنة ولا من العواصف. لكن الحرب شيء أخر. ففي الحرب يموت البشر، وتغرق السفن، وتتهدم المدن والقلاع، وتُسبى النساء، ويقتل الأطفال في المهود، وتنهمر سيول الدماء عند نهب البيوت. لربما يكون هناك من يتلذذ بهذه المآسي، ويعتبر قتل البشر فضيلة. ربما تكون الحرب مسألة طبيعية بالنسبة لهؤلاء. لكن الطبيعي عند أنطونيو هو زبد البحر وطعم النبيذ والنساء، والصداقة مع البشر. المرأة والرجل والطفل والشيخ والبشر عامة أتوا الى الحياة للاستمتاع بها، وليس لكي ينزل بعضهم بالبعض ذبحاً وتقتيلاً. رغم ذلك لم يعتبر ظهور قلعة قاطع البسفور أمامه فجأة مثل وحش مدعاة للتفاؤل بأي حال من الأحوال.

هرع من مكانه منبهاً البحار الذي يمسك بالدفة. وحدث ارتباك ملحوظ على ظهر السفينة. وفجأة غطى انفجار مريع يشبه الرعد على صوت أنطونيو وهو يطلب من البحارة فتح الشراع. نظروا جميعاً بدهشة إلى القذيفة التي دارت بالسماء. فهم لم يروا حتى تلك اللحظة قذيفة بمثل ضخامتها. غمرت المياه ملابسهم، بعد أن سقطت القذيفة على ارتفاع شبر من الشراع إلى جانب السفينة. حينذاك فهم أنطونيو خطورة الأمر. وبغية الابتعاد عن مرمى القذيفة توجه بنفسه لإدارة الدفة قبل إطلاق قذيفة جديدة. كان يعلم بأن عليه الابتعاد عن هذه المصيبة، والوصول قبل لحظة إلى غلاطة، لا بسبب حمله المؤن لجيش الإمبراطورية بل لضرورة عدم وقوعه أسيراً بيد الأتراك. كان الرب والريح والتيار إلى جانبهم. الرب ومريم العذراء معهم. أحس فجأة أن الرب الذي لم يلفظ اسمه حتى في اشد الأوقات حرجاً كان قريباً منه هذه المرة، بل أحس به في أعماق قلبه. إذن الرب هو ارتعاشة تحيط بالجسد والقلب، مجرد نظرة عميقة على الموزائيك الذهبي لكنيسة سان ماركو التي تحصره ألان أكثر من السماء التي ترعد، والبحر المنفجر الممزق. تذكر عيني نفلي «أنتم اللاتينيون أكثر سوءاً من الترك. لا معتقداتكم ولا عاداتكم تشبه عاداتنا. فنظرتك للمسيح تبدو غريبة» ذكر لنفلي أنه لا يملك وقتاً كافياً للرب

ثم طلب منها أن تلقي بأيقونة مريم العذراء. أما الآن فهو يحس بندم عميق ممزوج بالاحترام لتلك الأيقونة التي استهان بها. كان يصرخ بأعلى صوته مشجعاً البحارة على التجذيف «هيا أيها الشجعان مزيداً من الجهد. سنقيم حفلاً حالما نبلغ غلاطة» وما أن نطق بعبارة «حفل» حتى سقطت قذيفة ثانية وسط السفينة، انهارت السارية مثل شجرة دلب معمرة محدثة ضجة كبيرة. ألقى القبطان نفسه على أثرها في البحر بصعوبة بالغة. اقتاد الحراس القبطان أنطونيو ريزو وكاتب الرحلات الابن الوحيد لدومينكو مانستري مع خمسة عشرة بحاراً إلى قائد القلعة فيروز باشا الذي أرسلهم بدوره بناءً على أوامر السلطان إلى أدرنة للمثول بين يديه. كانوا جائعين ومنهكين. لكن شعاعا من الأمل كان يغمر قلوبهم المليئة بالقلق والترقب. كانوا يدركون أن حياتهم ليست في خطر مادام الأتراك لن يقتلونهم فوراً. كما وصلهم نبأ إرسال مندوب باسم فابيريزوكورنر من قبل سفارة البندقية في القسطنطينية إلى قصر أدرنة. سكنت نفوسهم حينما تذكروا أنهم مواطنو جمهورية البندقية أقوى دول البحر الأبيض المتوسط. لكن أنطونيو أدرك انتهاء كل شيء حينما أبصر بريق السخط في عيني السلطان محمد. كان قد سمع الكثير عن طموحاته، لكنه لم يكن يتوقع منه الغضب الجامح الذي يراه في عينيه الآن. لم يكن الآن إزاء سلطان العثمانيين، بل بدا له وكأنه ماثل أمام نمر يتهيأ للانقضاض على فريسته، وصقر لا يمكن الخلاص من براثنه.

تأمل السلطان الأسرى المقيدين بالأصفاد طويلاً، وحينما كان وجهه الشاحب يتغير من لون إلى لون، توقفت عيناه عند أنطونيو مشيراً له أن يقترب منه. تردد أنطونيو بعد أن أبصر بهلع وجه السلطان وهو يزداد احمرارا. كانت شفتاه ترتجفان وعيناه تلمعان ببريق غريب تحت عمامته البيضاء. سأله متنفساً من منخاريه «هل كنت تحمل المؤن في سفينتك لجيش قسطنطين؟» نكس رأسه دلالة على الإيجاب، ولم ينظر ثانية إلى وجه السلطان. لو حدث ونظر إليه لكان سيرى ظل ابتسامة على شفتيه تحت أنفه المحدب. حينما اقتيد مع الآخرين التفت إلى الخلف ورأى كاتب الرحلة منبطحاً على بطنه بينما السلطان يداعب رأسه. خرج برفقة

حراسه مرفوع الهامة. وحينما اقتربوا من المدينة علما أن فابريز وقد وصل قبلهم طالباً مقابلة السلطان. ابتسم مرة أخرى لأنه تخلص من يدي عزرائيل مرة أخرى.

في صباح اليوم الثاني أقتاده اثنان من الإنكشارية إلى خيمة السلطان. قام حارس كث الشوارب بتسليمه إلى رئيس الحرس، الذي سلمه بدوره إلى غجري أمر على أثره أتباعه بأن يمددوه إلى الأرض على وجهه، بعد أن ربط بحبل أخرجه من جيبه يدي القبطان. حدث هرج في المعسكر. تعالت ضحكات الجنود، وبدأوا يتحدثون بصوت عال. لم يمر وقت طويل حتى رأى أحد الجنود الإنكشاريين يحمل خازوقاً طويلا يشبه الرمح على رأسه قطعة حديدية حادة كالشفرة مطلية بالزيت، وفي وسطه نتوء خشبي على شكل هلال.

مزق الغجري السروال الذي لم يخلعه أنطونيو منذ أيام بجرة واحدة، وبسرعة خاطفة حل أزرار قميصه الأزرق اللماع ثم لبسه بنفس السرعة. كان القميص واسعاً عليه، إلا أنه طوى أكمامه ووضعه داخل سرواله الطويل، وتثاءب كاشفاً عن فمه الخالي من الأسنان ثم استعد ليبدأ بعمله. كان أنطونيو منبطحاً على وجهه بسرواله القصير، وظهره العاري، متوقعاً حدوث كل ما هو سيء. لم يكن قد فهم مرامهم في كل الأحوال. لم يكن يتوقع الموت. لكنه رغم ذلك أحس فجأة أن الموت بات قريباً منه.

واجه نظرات الرب من جديد. لم يكن الرب هذه المرة في موزائيك كنيسة سان ماركو، بل كان معه منذ خروجه من جزيرة بالهارنا طوال المسافة التي تمتد إليها الأسوار. كان قد بسط له ذراعيه في يمينه العذراء، وفي يساره القديس يوحنا. تحت قدمي الرب كان نهر من النار يجرف أمامه العبيد الخاطئين. لم يكن هناك الملاك الأزرق الذي يطوي السماء مع الشمس والقمر موجوداً في مكانه. كان البشر عراة في من نهر النار. في أعناقهم أغلال غليظة، ولم يكن ثمة مثيل في الدنيا لتلك النار التي كانت تكوي أجسادهم.

رغب في الاعتراف. فكر بيده المغلولتين. وحينما كان على وشك أن يطلب من الغجري طلبه الأخير، وضع الحراس الخازوق في مؤخرته. لم يستوعب ما حدث

له. لكنه من شدة الألم دفن وجهه في التراب. بدأ يتضرع إلى الرب كي يقبض روحه. أحس بألم فظيع عندما ضرب الغجري بالمطرقة الخازوق. بدا وكأنه على وشك الاختناق. فحص الغجري الخازوق الحديدي بدقة ولكي لا تتمزق الأحشاء الداخلية أنزل عليه ضربة أخرى للمرة الثالثة.. غامت عيناه، وتساقطت قطرات العرق من جبينه على التراب المتجمد بفعل الصقيع فبلله. ولم يعد يعي شيئاً.

حينما عاد إلى وعيه، وجد نفسه جالساً على الخازوق الذي مزق جسده من الأسفل إلى الأعلى، وقد خرج رأس الخازوق من كتفه الأيمن. كان على ارتفاع رمح عن الأرض منحنياً إلى الأمام، مسمراً على الخازوق، شبه غائب عن الوعي. أحس بظمأ شديد في البداية، وباختفاء الخيام وكل شيء أمامه. كان وحده على الشاطئ الطريق المؤدي إلى القسطنطينية. لم يكن ثمة آخر ماعداه. كانت الشمس على وشك المغيب. على بعد خطوات تناهى إليه حفيف أشجار الصفصاف في الريح. فكر أنطونيو بأنه لم يعد هناك سلام. وأن الحصاد لن يتم بعد الآن في أراضي تراقيا الممتدة على مد البصر، وأن القذائف التي أغرقت سفينته ستبدأ بضرب أسوار بيزنطة منذ الآن. تخدر جسده، وبدأت البرودة تدب في أطرافه، ولسبب ما لم يكن يشعر بألم كثير. كان الخازوق المغروس في جسده رغم استنكاره له يبدو جزءاً أساسياً من جسده. كانت الحياة على مقربة كبيرة منه بحيث يستطيع لمسها بسهولة. الأرض وأشجار الصفصاف، الريح والشمس كل شيء كان في لونه الحقيقي، وفي ذاته الحقيقية.

فجأة شعر بشوق عارم لا يقاوم للبحر. حلم بنفسه وهو يعبر بسفينته ميناء غلاطة. كان قد أرخى شراعه، كانوا يقتربون من الشاطئ. كانت الطرق والقصور بقبابها اللامعة تحت الشمس تبدو كعروس محلاة باللآلئ. أبصر نفلي تقترب منه بخفر فتاة عذراء، وهي تحمل خاتماً ذهبياً هامسة «أعلم أنك تزوجت البحر. لكنني عثرت على الخاتم الذي ألقيته في البحر ولبسته.»

كان في البندقية. يعبر قناة غيودكا، متقدماً صوب قصر دوكلر.. كان ثمة حشد غبي يملأ الأزقة يلبس ملابس زاهية. كانت قوارب الجندول تتأرجح مثل طيور

الغاق على صفحة الماء. وكانت أصوات النواقيس تختلط بغناء البحارة. وكانت رائحة التوابل تفوح من دوقات لاغال ديلا مرسيلية. كان القبطان يتقدم بمفرده دون أن يبتل بالماء مثل طائر أسطوري. وبدلاً من أن يتعقب النساء كان يسير صوب قلعة سان أندرا بسفينة الجمهورية. انطلقوا بعد قليل إلى البحر بعد مغادرته كوخ صياد السمك الذي ولد فيه. وهناك وضع الخاتم الذي كان يحتفظ به في كفه إلى البحر وهو يصرخ. حملت الرياح صوته إلى ذلك المكان البعيد في الصحاري القاحلة التي تحدث عنها ماركو بولو.

أحس أنطونيو برغبة عارمة لا تقاوم لإرواء ظمأه. ثمة نار حامية كانت تكوي أعماقه. الشمس التي كانت التي هبطت صوب أشجار الصفصاف، تحولت إلى كرة قانية. كان المساء بدأ يهبط على وجه الأرض. شعر بالظلام أمام عينيه، وبالشمس تزداد احمراراً، ثم إذا بها تتحول إلى كتلة نار وتحيط بجسده وما هي إلا هنيهة حتى اختفى كل شيء. ذابت الألوان وانسابت نحو فراغ دامس الظلام. وحينما كان القبطان أنطونيو ريزو يسلم الروح على طرف الخازوق المدهون الذي ثقب جسده لم ير الدهشة التي كانت مرتسمة على وجه فابيريز وكورنر، الكاتب بسفارة البندقية وهو في طريق عودته إلى القسطنطينية بعد لقائه بالسلطان محمد.

-٣-

فكرت بأن عليّ أن أؤلف قصة عن حياة القبطان البندقي الذي رآه المؤرخ البيزنطي دوكاس حينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة. إلا أنها قصة خططت لها البداية والنهاية مسبقاً. ولا أدعي أنني واجهت المصاعب التي يواجهها صانع الأحذية عندما يبدأ عمله دون تهيئة قالب مسبق للحذاء الذي يود صنعه مثلاً. تكونت القصة كلما تعمقت في كتابتها، إلا أنها انتهت دون أن تتفرع وتتطور إلى تفاصيل معينة لأنني لم أجد في كتب التاريخ شيئاً غير حادث إغراق سفينة القبطان ريزو عند مروره من قاطع البسفور بقذائف المدفع وإجلاسه على خازوق حديدي. وقد تحدثت عن قامته المديدة ووسامته، وبحثه الدائم عن اللذة، وموته المفاجيء كأنطباعات شخصية عنه. لكنني أحسست بألم الخازوق الحاد وهو يمزق أحشاءه في جسمي. وحاولت إيجاد التوازن بين نهاية قبطان البندقية وظلم الأقدار له من خلال محاولتي تخليد ذكراه. أصغي الآن إلى حفيف أشجار السرو في الحديقة في الخلفية أثناء كتابة هذه السطور. كانت نسائم أيلول تكاد تحرك بالكاد أغصان تلك الأشجار. كانت جذروها المتوغلة في الأعماق تحمي الأغصان وتعطي للأشجار منظراً يوحي للناظر إليها وكأنها ثابتة. كانت قلعة «قاطع البسفور» أيام عزّ العثمانيين راسخة الأركان مثل أشجار الدلب هذه التي كنت أتمنى الحديث عن جذورها الضاربة أطنابها في الأعماق، وأغصانها المتفرعة كنص. لكنني أحسست بالعجز لعدم استطاعتي مجاراة الطبيعة وإيصال النسغ إلى كل جزء فيها بكميات مماثلة. كما أن مثل هذا السرد محكوم عليه بالزوال مع سقوط كل ورقة من الغصن. على كل حال فنحن في أول أيام الخريف، ولا يزال هناك وقت لسقوط الأوراق، ولا تزال هناك أيام مشمسة وجميلة قادمة، وقصص عديدة تنتظر الكتابة.

يذكر المؤرخون وكاتب سيَر الرحلات أن بقية أفراد طاقم السفينة لم يقتلوا مع أنطونيوبل إنما تم إحضارهم أمام السلطان. فكرت أن نيكولو قد يكون يملك

يوميات سرية سجل فيها انطباعاته عن السلطان محمد، عن سنوات شبابه. كان لابد أن تلتقي أفكار نيكولو معي. لكنني لم أكن أستطيع قطعاً أن أكون في موقع شاب من البندقية لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة في ١٤٥٢. إذن ما العمل؟ كيف لي أن أتجاوز هذه العقبات؟ هذه الأسئلة وغيرها، كانت كافية لإقناعي بأنني لن أنجح في مسعاي، الأمر الذي زاد من أرقي. عندما أبصرت القلعة على ضوء شمس الصباح، أدركت أنني كتبت طوال الليل دون توقف.

تبدد الضباب، وبدت القلاع، والبيوت الخشبية التي تتداخل مع الفيلات الحديثة وكأنها تخرج للشمس. في التلال والمرتفعات تبدو ظلال الأشجار كظلال لأشجار في عرض مسرحي. تبدو قريبة إلى درجة يمكن لمسها. عندما تهبط الشمس صوب الضفة الأخرى، يتغير الضوء، وتبدأ الألوان بالتلاشي، ويرتفع ضباب غريب من البحر إلى درجة يصعب معها تمييز القلعة. لذلك بدأت أنتظر بفارغ الصبر شروق الشمس أمامي كمصباح علاء الدين. دب الخدر إلى أجفاني أثناء الانتظار. بمقدوري الآن أن أترك نفسي لنوم للقيلولة.

عندما غشيني النوم لم أبصر الضوء البرتقالي المنسل من بين ثنايا الستار مثل كل مرّة. كانت الغرفة غارقة في الظلام. تناهى إلى أسماعي صخب السفن المزدحمة في المغيب. كان الظلام قد بلغ إلى حيث الفراش، وبدأ يمتد تدريجياً حتى المنضدة. تأملت الجدار. بدا وكأنه ليس في مكانه المعهود، وكذلك المنضدة، كانا قد انطلقا بصحبة الأوراق. بقيت فترة من الوقت في الفراش قبل أن أستقيم فيه. كان الخارج مضاءً. لكن الضوء المنكعس على الستار لم يكن يسقط على الغرفة. وبدا لي وكأن الأشياء تبتعد عن بعضها البعض في الظلمة. المنضدة، الكراسي والساعة الموضوعة على رف المكتبة. الأشياء تكمل بعضها الآخر كالإبرة والخيط، السلاح والرصاص، المطرقة والمسمار. فكرت بالبشر. العشاق المعروفين، ليلى والمجنون، روميو وجولييت، كرم وأصلي، فرهاد وشيرين، الرجل والمرأة. لكن عزلة عقرب الساعة كان شيئاً آخر، عزلة مرعبة ومخيفة. بغية مغرفة الوقت، أردت رفع الستار، لكنني سرعان ما تقاعست عن ذلك.

حينما استيقظت وجدت الضوء البرتقالي في مكانه المعهود. امتلأت الغرفة عند رفعي للستار بصفارة باخرة الساعة ١٩٢٠ وهي تقترب من المرفأ تحت شعاع الشمس الخابي خلف أبراج القلعة. كنت على وشك أن أبصر صخور الأبراج منعكسة بشفافية على مياه البحر. كانت أعماق البحر بيضاء مثل جسد امرأة. من يدري ماذا تفعل زوجتي في هذه اللحظة؟ أحسست بشيء يتفتت في داخلي. تشاغلت بالعمل حتى لا أزداد شوقاً إلى باريس. لم أرد التفكير بشيء أخر ما خلا قاطع البسفور. في هذه الليلة يجب أن تغرق المدينة التي أعيشها بالأضواء. لربما هي تمشي الآن على ضفاف السين معانقة حبيبها الجديد، بينما أعاني هنا الوحدة. وأصارع الكلمات في أصغر غرفة في هذا القصر القديم. تعمدت عدم إشعال المصباح. لا غصن يهتز في هذا الليل. ليس ثمة سفينة. ولا حشرة يراعة في الحديقة الخلفية. أنا شخص لا ماض له ولا مستقبل. أسير منفي في قصر تعيش فيه أوهامه وخيالاته.

كنت أتمنى أن تعود هي في قارب سلطاني يقوم بتجذيفه العبيد، وأن أرى تفاصيل جسدها على ضوء الشمس من خلال فستانها الشفاف. وأن تنظر إليّ بعينيها السوداوين كالفحم بنظرات شهوانية. تقدمت بخطوات مسرعة عبر الباب الخلفي للحديقة عبرت الديوانية. لم يكن هناك غير هسيس الريح. عندما أردت العودة أدراجي، سمعت طرقاً ملحاً على الباب. لم أرغب بفتحه فوراً خشية أن يكون لصاً. لكنني سرعان ما سخرت من أوهامي. أيعقل أن يطرق اللص باب البيت الذي يريد نهبه؟ انتظرت للحظات ثم قررت بشكل مفاجيء أن أفتح الباب. ولما فعلت، رأيت أمامي امرأة برونزية البشرة، لوحتها الشمس. كانت امرأة ممشوقة القوام ترتدي ملابس بيضاء. لم أتمكن تمييز ملامح وجهها في الظلمة، ولا لون عينيها. قالت بخجل:

- عفوا للإزعاج. هل أستطيع رؤية علي وسومري؟

- لقد عادا إلى باريس.

- إذن عليّ العودة. أرجو إبلاغهما تحياتي رجاءً. سومر صديقتي من أيام الدراسة بالمعهد.

- تفضلي، لنتعشى معاً.

ترددت لحظة، أضاءت مصابيح سيارة وجهها. عينان زرقاوان لمعتا وانطفأتا مثل فنار بحري. فجأة تذكرت أن سومر حدثت زوجتي عن صديقة لها تدعى دنيز قائلة «لها عينان زرقاوان لا يمكن للمرء مقاومة سحرهما. أعرفها من أيام المعهد. إنها قريبة من القلب. قضت فترة في السجن بعد ١٢ مارس.»* قلت:

- إنني وحيد في القصر. كوني ضيفتي لهذا المساء.
- خالتي تسكن في كاانلجا.. وددت رؤية صديقتي قبل العودة.
- تفضلي بالدخول.
- لن أبقى حتى العشاء. سأكتفي بكأس من النبيذ.

لكنها بقيت للعشاء، وباتت تلك الليلة عندي. الآن أحس بالندم لأنني عندما امتلكت جسدها البرونزي الذي لوحته الشمس، واستمعت إلى أناتها بلغتي الأم والتي لم أكن قد سمعتها منذ زمن طويل، لم أقف حائلاً دون عودتها في اليوم الثاني على متن أول باخرة في الصباح. هذا إحساس أعيشه لأول مرة. قبل زيارتها كان (قاطع البسفور) الشيء الوحيد المهم في حياتي. كنت أعتقد إنني سرعان ما سأنسى بشرتها التي لوحتها الشمس، وفمها الندي لكنني سرعان ما أدركت خطأي حينما لم يعد بمقدوري أن أبعد عن مخيلتي أناتها، بل صرخاتها المحمومة وكلماتها الخليعة والفاضحة في أذني حتى الصباح. عقب مغادرتها أخذت أدور في أرجاء الغرفة دون وعي مثل حيوان جريح مسجون في قفص. أخذت أذرع الديوانية والطابق السفلي والشاطئ والحديقة الخلفية. عانقت جذع شجرة الصفصاف المعمرة، وأخذت أردد بالتركية كل الشتائم المقذعة والألفاظ النابية التي تعلمتها في طفولتي. رغم ذلك لم أتمكن من أن أحرر نفسي من قضبان القفص الذي يحد من طيشي. جلست وسط شعور بأنني أقمت لنفسي ولغرفتي الصغيرة ذات الشناشيل في القصر البحري أسوارا عالية. كانت عيناها الزرقاوان تشعان في ظلام غرفتي، وبسبب عدم قدرتي على كتابة كلماتها الخليعة كما هي، فقد قررت أن أكتب قصة خليل باشا الذي أقام جدران سجنه بنفسه.

---

* شهدت تركيا إعلان الأحكام العرفية في ١٢ مارس ١٩٧١. «المترجم»

هذا الجزء خاص بالوزير الأعظم
خليل باشا جاندارلي

«حشوا بطن السمكة بالفلوري، وبعثوه إلى خليل باشا (...) بعدما تناول خليل باشا السمك،أسند بطنه على الصندوق (...). في يوم الأربعاء تم القبض على خليل باشا وأبنائه، وعلي كلّ من كان في معيته، وألقوا بهم جميعاً في السجن. تروى عنهم قصص كثيرة. ما جرى لخليل باشا شائع ومعروف».

(تواريخ آل عثمان، عاشق باشا.)

إنهم في المدينة!

عندما كان الحشد المذعور يفر صوب أيا صوفيا، كان خليل وحيداً في خيمته. بدأ الأمر همساً ثم غمغمة تحولت فيما بعد إلى صراخ، وكأن يوم القيامة قد بدأ من السور. آنذاك أحس أن كل شيء قد انتهى. ليس بالنسبة للمدينة فحسب بل بالنسبة إليه أيضا. رقبته ستطير مع سقوط بيزنطة رغم ذلك فضل أن ينتظر حراسه بهدوء. ارتعش لهب القنديل مع هبوب الريح التي حملت إلى خيمته رائحة الدم والبارود. كانت ظلال الخريطة الموضوعة على المنضدة تتبدل من حال إلى أخرى. فكر لهنيهة بالفرار مع عدد من رجاله الموثوقين. وبالانسلال سراً من المعسكر. لكنه لم يجد في ذلك تصرفاً يليق به. فهو قد قدم للعثمانيين خدمات كبيرة، وسلالته ساهمت فعلياً في تأسيس الدولة. منذ مائة وخمسين عاماً وعائلة جاندرالي هي بمثابة العقل المدبر للعثمانيين. هذا الانتصار الكبير الآن هو بمثابة أسوأ الهزائم بالنسبة له. لكنه رغم ذلك لا يستطيع أن يترك كل شيء، ويفر مثل لص. فهو مرغم على السير حتى النهاية. ذلك ما يليق به كأكبر شخصية في عائلة جاندرالي. فهو أكبر رجال العائلة سناً، وأكثرهم خبرة في عائلة نذرت حياتها لخدمة الدولة. سيقبل لذلك فرمان الموت الذي سيصدر بحقه، ويضعه على صدره كالختم. سيقدم رأسه للجلاد عن طيب خاطر، وكأنه يؤدي مهمة مقدسة للوطن ويقول: عاشت الدولة.

إذن هذه هي قوة التركمان، سيادتهم هي إلى هذا الحد فقط. سيواصل العثمانيون المسير مع أمثال زاغانوس وشهاب الدين بل حتى مع خائن ابن خائن مثل محمود. هم الذين كسبوا الرهان، وخسر هو بعد أن نال منه التعب والشيخوخة. منذ وفاة السلطان مراد وهو يعمل جاهداً أن يقنع القصر بالسلام، ولكن دون جدوى.

عمل كل ما بوسعه وما يعتقد بصحته للحفاظ دائماً على أمن الدولة وسلامتها. فكر دائماً بمصلحة الوطن قبل مصلحته. تعلقت بذهنه العبارة الأخيرة. أفعلا هذا

ما كان يعمله دائماً، ألم يفكر قط بمصلحته؟ هل كان يوظف الأموال عند صيارفة غلاطة، ويجمع المال والعقار، ويقبل الهدايا المرسلة من الإمبراطورية البيزنطية، ويتناول الذهب الموضوع في أحشاء السمك، ويحتفظ به في صندوق خاص من أجل أمن الدولة وسلامتها؟

تهرب خليل من الرد على هذه التساؤلات، ومن الدخول في محاسبة ذاته. أطفأ القنديل، وبقي فترة في الظلام. كان لا يزال يسمع أصوات المعارك المختلطة بالضجيج والصخب الذي يثيره سقوط الأبراج والحصون وقرقعة السيوف. استمر ذلك حتى الصباح. ظل على وضعه منتظراً وصول الحراس دون أن يفكر ولو للحظة بالخطأ والصواب، ولحظات السعادة والألم في حياته.

مع انتشار ضوء النهار، رفع أذان الفجر، وانتشر نبأ سماح السلطان بالنهب والسلب في المدينة لمدة ثلاثة أيام أحس بالمرارة والألم في أعماق ذاته. سقطت بيزنطة، واستسلم صقر روما الشرقية المهيب للعثمانيين. أمر طبيعي في قانون الحرب حصول الإنكشارية على الغنائم، لكن كان على السلطان أن لا يوافق على ذلك.

المدينة ستتحول إلى سوق مزدحم بالصلبان الفضية والموزائيك المغطاة بمساند ذهبية، واللؤلؤ والماس وخواتم من الياقوت. أحس بمودة غريبة مشوبة بالمرارة لم يعرف كنهها تجاه المدينة التي كانت تعيش النهب والسلب.

إنه يشك في قدرة السلطان على إجراء تقييم واقعي لميراث الإمبراطورية الممتد إلى ألف عام. أصبحت القسطنطينية هدفه وهواه الوحيد بعد جلوسه على العرش. ابتسم بمرارة وهو يغمغم في نفسه «منذ جلوسه الثالث على العرش».. أحس بالأسف لأول مرة، لأنه أخفى نبأ وفاة السلطان مراد عن الجنود وتوجه إلى مانيسا. كان ولي العهد الأمير أحمد صبياً صغيراً، وكان هو يستطيع إدارة دفة الدولة من خلاله لو أراد ذلك. وكان الإنكشارية يؤيدون بدورهم تنصيب محمد. لكن نفسه لم تطاوعه على قيادة الأوضاع نحو هاوية الصراع والخلافات للمرة الثانية. كان قد استمع من والده المرحوم إبراهيم باشا قصة الصراع بين أولاد السلطان بايزيد،

سليمان وموسى ومحمد للانفراد بالسلطة. وهو منذ طفولته على علم ودراية بالمخاطر التي من الممكن أن تؤدي إلى انحلال الدولة. وحينما كان والده قاضياً في أدرنة بعثه موسى جلبي إلى بيزنطة لطلب الجزية. لكن والده وبعد رحلة مليئة بالمخاطر توجه إلى بورصة بدلاً من بيزنطة، والتحق بصفوف محمد الذي أعلن نفسه سلطاناً وعينه في البداية كقائد للجند مكافأة له على إخلاصه له. ثم عينه وزيراً له. بعد صراع طويل ضد منافسيه على السلطة، واستطاع تحقيق الوحدة، وواصل فتح روملي. كان قد تم تنصيب الأمير أحمد ابن السلطان مراد على العرش مرتين وتم عزله في كلتيهما. لم تكن هناك ضرورة لخوض الحرب للمرة الثالثة ضد محمد بعد وفاة السلطان. لم يكن ثمة مثيل لطموحه الذي كان يتجاوز عمره.

تغلب إحساسه بضرورة حماية أمن الدولة وسلامتها على خوفه من الموت. كان قد بعث برسول إلى مانيسا رغم علمه أن محمد سينتقم منه. لكن محمدا ما أن وصل إلى أدرنة حتى بادر الى القضاء على أحمد الرضيع خنقاً، وعندما جلس على العرش قبل خمسة أعوام لم يسأله حساب ما جرى. أجل لم يسأله.

يتذكر جيداً أن محمدا بجسده المربوع وقامته القصيرة البدينة وأنفه المعقوف الذي يبدأ مباشرة من جبينه الذي يلفه بعمامة سوداء، أصبح منذ ذلك اليوم ظل الله على الأرض، وخاقان البحر والبر، وأمير المؤمنين بن طغرل بك بن عثمان غازي بن اورهان غازي بن مراد بن بيلدرم بايزيد بن السلطان مراد السلطان محمد خان. خاطب آنذاك كل من حوله، وبلهجة من لا يزال يواصل الحداد على والده قال مخاطباً شهاب الدين باشا «معلمي! لماذا يقف وزرائي بعيدين عني هكذا! قل لهم أن يأخذوا أماكنهم السابقة. كما كانوا في عهد المغفور له والدي. خليل باشا سيبقى على رأس الوزارة كما كان، وإسحاق مسؤولا عن البكوات في الأناضول. ينقل جثمان والدي الطاهر إلى بورصة، ويدفن هناك»! وحسب العرف السائد قبّل يد السلطان الشاب. أحس بالارتياح لاعتقاده بأنه سيستمر في إدارة الدولة كما يحلو له. لكن الأمور لم تسر على هواه. فقد كان انتزاع فكرة فتح القسطنطينية من رأس السلطان أكثر صعوبة من انتزاع شعرة من جلد خنزير.

كان الشيخ شهاب الدين وزاغنوس باشا والبكوات وطائفة الملالي يمارسون الضغط على السلطان لإعلان الحرب ضد بيزنطة غير آبهين لميزان القوى.

كانت بيزنطة تفاحة ناضجة أوشكت على السقوط من غصنها في أية لحظة. كان العطب قد أصابها من الداخل وبدأت تزداد ضعفاً مع الأيام. كانت ستسقط في أيديهم مع أول عاصفة من تلقاء نفسها. حصار القسطنطينية مبكراً سيؤدي إلى خسائر في الأرواح لا مبرر لها، كما حصل في أيام ييلدرم بايزيد وموسى جلبي وحتى مراد الذي لم يشك يوما بمدى حبه للسلام. أن مثل هذا العمل قد يؤدي إلى تحرك الجيش الصليبي الذي تم إيقافه في المرات السابقة بصعوبة بالغة وتضحيات جسام على حدود وارنا. إنه يرى على ضوء خبرته أن ميزان القوى يمكن أن يختل ضد العثمانيين. التحرك لاحتلال بيزنطة يعني تحرك البابا وطاغية الصرب، والأسوأ من ذلك بدء احتمال تحرك ملك المجر المقدام يانوش هو ينادي. حتى وجود العثمانيين في الروملي من الممكن أن يتعرض إلى الخطر لو جمعوا معظم قواتهم لحصار القسطنطينية، وسيكون ذلك فرصة ذهبية للجيوش المسيحية لإبعاد الأتراك إلى داخل الأناضول. لم يسأله محمد حساب ما فعله زمن والده مراد خان. لأنه يعلم منذ جلوسه على العرش بمدى قوته ونفوذه في صفوف الجيش. أما الآن.. فقد أزف يوم الحساب في الليلة التي سقطت فيها المدينة التي حاول بكل جهده رفع الحصار عنها.

يوم الحساب..! لم يكن معتاداً على أن يحاسبه أحد. فهو الذي اعتاد على محاسبة الآخرين. لم يفكر يوما أن المحاسبة هي من قواعد اللعبة السياسية، لم يفكر قبل اليوم أن مصيره يمكن أن يكون معقوداً على كلمة تنطلق من بين شفتي السلطان. نهايته كوزير متمتع بالحصانة تعني نهاية عائلة جاندرالي في إدارة الدولة. كان خليل يشعر بكل ذلك. لم يكن يخاف الموت. بل كان يشك باحتمال إدارة الدولة مع شلة من الانتهازيين. كان ذلك يضاعف من إحساسه بالأسى. كان يريد أن يستمر في الاحتفاظ بإرثه الذي ورثه من أسلافه الذي آمنوا بتحقيق الحلم العثماني الجميل بإرادة الله وبقوة السيف. ربما يكون ذلك إحساسا

غريزياً. ولكن لا صلة له البتة في التشبث بالحياة بأية وسيلة كانت. فجأة أحس بالإرهاق. انتشرت موجة من السأم في أعماقه لا علاقة لها بالمشاورات التي لانهاية لها حول حصار القسطنطينية. سرعان ماسرى هذا الشعور مع نبضات قلبه إلى ذهنه. تمدد على فراشه بعد أن أوصى الخدم بعدم إيقاظه لصلاة الفجر. لم ينم بل غاص في التفكير. تذكر أحداث السنوات الأخيرة، وعمل أن يجد حلاً للتطورات التي أدت إلى حيرته وهزيمته.

لم يرتح لمحمد الذي جلس على العرش مرتين، وكأنه يحق للسلطان الجلوس على العرش كلما طاب له ذلك، وكأن كل شيء يجب أن يخضع لإرادته، وأن السلطنة محتكرة على سلالته. لم يرض بوجود هذا الشاب الطموح المندفع في السلطة بينما والده السلطان مراد لا يزال على قيد الحياة. رغم إبعاده عن العرش في كلتا المرتين، إلا أنه عاد إليه للمرة الثالثة وبشكل نهائي بعد وفاة السلطان مراد. كان الخطأ الذي وقع فيه هو ثقته المفرطة بنفسه.لم يحس بمدى رد الفعل الذي تولد عند هذا الصبي من جراء الاستهانة به من خلال إخفاء الأحداث عنه.

فجأة تذكر مدينة أدرنة وقصره الجديد على شاطئ تونجا وأشجار الدلب التي تسقط أوراقها عند الخريف وخرير النهر المنساب من تحت الجسر. بدا وكأنه يرى من جديد أسواق المدينة المزدحمة والمنارات وجدران الجامع المزدان بخزف أزنيك الأزرق. كان قد زيّن قبره الذي أعده مسبقاً بزهور البنفسج، وورود القرنفل القانية ببراعمها الخضراء. وكان سيطلب في وصيته دفنه إلى جانب قبر والده خيرالدين جاندرالي الذي يرقد في نفس المقبرة. الغريب أنه لم يرد أن يتذكر وجه ابنه الحبيب إبراهيم بل أثارته ذكرى القصر القديم المقام إلى جانب قصره. فهو قد شاهد عن كثب إصلاح هذا القصر في شبابه، وحينما نصبه السلطان مراد رئيساً للوزراء قام ببناء قصره الجديد في الساحة المطلة عليه.

كان للقصر فناء واسع ومطابخ ومخازن كثيرة وعدد لا يحصى من الغرف مؤثثة بأثاث من الرياش الفاخر. وكان يبدو أفخم من قصر السلطان نفسه. في كل مرة كان يُستدعى فيها إلى المثول بين يدي السلطان في القصر، كان يحس بنشوة

السلطة والقوة. وقد استشاره مراد حينما لم يوفق في مرة من المرات بجمع ثلاثة آلاف فلوري اعتاد على إرسالها سنوياً الى الفقراء والمحتاجين في مكّة والمدينة. أحس وقتها بالزهو لأنه أكثر ثراءً من السلطان نفسه، لكن ذلك لم يكفه. القصر هو بمثابة قوة لسلالة جاندرالي في الوقت نفسه. تذكر تواضع مراد الذي كان ينعكس حتى على هندامه، والذي كان يكتفي بارتداء قفطان أخضر فوق ردائه الأحمر، وطاقية حمراء لم يكن يخلعها أبداً. تذكر لحيته المستديرة والنتوء الذي كان في وجنتيه. لم يكن تسكره كؤوس النبيذ النحاسية بل منادمة الدراويش الذين لم يكونوا يفارقونه. كان السيف عماد الدولة بالنسبة له. كان يشعر بمثل هذا الشعور خاصة عندما يرى السلطان على رأس جيشه متقلداً سيفه في أوان الحرب. أما في القصر فقد كان يحس أن سلالة جاندرالي تمسك بيدها الزمام الحقيقي للسلطة بحكم ثقة السلطان الكبيرة بها. أمر محمد بعد وفاة والده، وبمجرد وصوله إلى أدرنة بإكمال القصر الذي كان والده السلطان مراد قد بدأ بإنشائه. وبسبب ذلك أقام ردحاً من الزمن في حديقة السلطان المطلة على ضفاف نهر تونجا، غير مهتم بالإقامة في القصر القديم الذي شاهد مولده وختانه. ومثلما لم يرتح لتولي محمد العرش، فهو لم يرتح لإقامته بين غابة من الأشجار الكثيفة دون أن يحيط بها أي حصن من الحصون.

تذكر خليل كم أنه كان ينظر بإعجاب إلى القصر القديم كلما ولج من بابه للمثول بين يدي السلطان.

الإسطبلات الفاخرة في الفناء الداخلي وشناشيل الحرملك والأيوانات والأحواض المتلألئة بالأضواء. كان يحس بحبور حقيقي في تلك اللحظات، وخاصة في حفلات مراسيم استقبال السفراء الأجانب حيث كان يتخذ القرارات حولهم لوحده في أغلب الأحيان. كان قد عاش في هذا القصر أجمل أيام حياته. وفي يوم رحل السلطان الحبيب مراد، وطوى النسيان أيامه كما طوى قصره المنيف. انتهى كل شيء مع بداية العهد الجديد ومع أنه احتفظ بمنصبه، إلا أنه أخذ يشعر أن دفة الحكم تخرج من يديه يوماً بعد يوم، وأن السلطان لم يعد يستدعيه إلى

القصر بصورة دائمة، مفضلاً استقبال زاغانوس وشهاب الدين. على اثر ذلك مالبث أن أخذ يحس بالفراغ، وباستهانة غريبة لشخصه. استهانة لا يجد التسمية المناسبة لها. كان يسقط في هوة لا قرار لها. وفي اللحظة التي أحس بها أن العاصفة مرت بسلام، انشقت الأرض من تحته، وبدأ بالسقوط. في الليل يحل السلطان مراد ضيفاً على أحلامه. يشربان الشراب، ويسكران معاً، وينطلقان في البرية. كانا مثل وجهين لشخص واحد. كم كان أحدهما يشبه الآخر. نفس الاستدارة في الوجه، ونفس العينين السوداوين، ونفس الاحترام المكنون للتقاليد التركمانية. أجل، كان يسقط منهاراً في سباق الفروسية، ومن سلالم القصر، ومن فوق إيوان بيته. لم يكن يعلم على ماذا يستند في حلمه كي لا ينهار ويسقط. لم يعد يثق بشيء ماعدا الثروة التي جمعها طوال سنوات خدمته. الإحساس الدائم بالانهيار، وعدم الثقة بالنفس دفعاه إلى التفكير الدائم بالمال والمال وحده حتى أصبح عبداً له. كان ثمة شخصان آخران، يشعران بحقيقته، هو شخصياً والسلطان محمد.

كل شيء في الظاهر كان يبدو على مايرام. السلطان عينه وزيراً أعظم كما كان في السابق. تغيرت أوضاع كثيرة، لكنه رغم السنوات احتفظ بموقعه. لكنه قبل فترة من الزمن قلّص صلاحياته، وبدأ يحس أن صوته لم يعد يبلغ القصر كما كان في السابق. كان شخصياً يشعر بذلك، لكنه كان يأمل في وقوع حادث تعود الأوضاع بسببه لصالحه. كان يرى أن رفع الحصار كفيل بإعادة نفوذه إليه، فالدولة على كل حال لا يمكن أن تستهين بخبرته في خدمة الدولة، حيث يمكنه مساعدة السلطان الشاب بإبعاده عن شرور المنافقين وقادة الجيش أحس ببصيص من الأمل في نفسه. مسد لحيته، وابتسم بخبث. أجل لا يمكن للسلطان نبحه دون سؤال وجواب، أو سابق إنذار. لا يمكن للعثماني هدر دم جاندرالي بسهولة. فهو ليس نكرة، ولا لاجئ التجأ إلى القصر لحماية حياته. بل هو حفيد قرة خليل جاندرالي! الدولة التركمانية مستمرة في شخصه، وهو سند العثمانيين في الملمات. لكن بريق الأمل سرعان ما اختفى تحت حاجبيه اللذين غطاهما

الشيب، بعد أن تذكر أن القسطنطينية قد سقطت قبل فترة قصيرة، وأن الزمرة التي تحيط بالسلطان هي التي كسبت الرهان. بعد قليل سيجثمون على صدره مثل صقور مفترسة، مطالبين السلطان برأسه. أجل هذا ما سيفعلونه. سيطالبون برأسه.

حسنا، إذن لماذا ليس هنالك من أحد؟ ما الذي ينتظره السلطان للقبض عليه؟ ارتفعت الشمس بطول رمح، وبدأت أشعتها العمودية تسقط فوق الخيمة. الغريب أن لا يكون أحد هناك. لقد ذهب الجميع حتى الخدم من أجل النهب والحصول على الغنيمة! أحس بالفزع في أن يكون السلطان قد عاد إلى أدرنة مع جيشه، وتركه هنا وحيداً وسط الجثث أمام الأسوار البيزنطية. ما الذي سيفعله في مدينة منهوبة ومحترقة. إلى أين سيذهب، ورئيس وزراء من سيكون؟ سيكون وحيداً، شريداً، والأدهى من ذلك سيكون بلا ختم، أجل وزير أعظم بلا ختم. إنه ليفضل الموت على ذلك. أجل سقطت المدينة وها هو يعيش حالة سقوط حقيقية، وليس في الحلم.

لقد بدأ انهياره الحقيقي بعد وفاة السلطان مراد، وأكتمل سقوطه بعد سقوط القسطنطينية. ما يعيشه اليوم من خوف سبق وأن عاشه في تلك الليلة التي استدعاه فيها السلطان. شعر بخوف حقيقي من الموت. لكنه ضحك فيما بعد من الأعماق على سذاجته. أرعبته قبل كل شيء سحنة رئيس الحرس الذي بعثه السلطان ليستدعيه.

كان وجهه الكريه يلمع على ضوء الشعلة المحترقة، وكان فمه القبيح ذا أسنان متعرجة، وكأنها شواهد مقبرة.

أبلغوه أن السلطان ينتظره على الفور. لم يفهم سبب اقتياده للمثول في حضرة السلطان بمثل هذه العجالة. لكنه حاول الاحتفاظ بهدوئه. عندما ارتدى ملابسه شعر بالخوف مجدداً. خطا عدة خطوات لكنه سرعان ما قفل راجعاً عند الباب الخارجي، وكأنه تذكر فجأة أمراً كان غائباً عنه. دخل غرفته مسرعاً، ووضع علبة من المجوهرات التي كان يخفيها عن أقرب المقربين إليه، تحت إبط قفطانه.

كان خليل مستلقياً على الأريكة في خيمته، ينتظر قدوم الحراس الذين أيقظوه

ليأخذوه للمثول أمام السلطان، لكنهم هذه المرة لن يقتادونه إلى قصر - جهان أمة - بل إلى السجن. في المرة السابقة كان يبدو وكأن حصانه وجل هو الآخر في الاقتراب من القصر، مع كل خطوة من خطوات الحصان نحو القصر، كان يزداد تشبثاً بعلبة المجوهرات تحت إبطه. ازداد وجيب قلبه حينما رأى رئيس الحرس يقتاده إلى القصر عبر غابة طاووق، وليس من الطريق المعتاد. عندما كان يعبر القنطرة تأمل الماء المنساب بهدوء، فكر بالفرار، وبالقفز فيه لكنه سرعان ما تخلى عن هذه الفكرة.

صعد درجات السلم الرخامية. كان الكل مستغرقاً في النوم. لم يكن هناك إلا بصيص من الضوء المنسل من جناح الحرملك، والذي كان منعكساً على المياه المظلمة، وصخور الشاطئ المغطاة بالطحالب، وعلى السلاسل الحديدية المربوطة على القوارب، وعلى أشجار النيلوفر. قفزت ضفدعة من أمامه، واختفت في المياه المظلمة. زاد هدير نهري تونجا ومريج عند نقطة التقائهما من إحساسه بالفزع. إذن الليل ليس هادئاً كما كان يعتقد. تمهل قليلاً متأملاً مياه النهر التي تهاجم فيها الأسماك بعضها البعض. آلاف الحشرات تخوض فيها الآن صراعاً مريراً من أجل البقاء. كان حفيف الأشجار يصل إلى سمعه. في اللحظة نفسها بدأ بوم بالنعيب مرة إثر مرة. تضاعف نعيب البوم آلاف المرات، وكأن ثمة كورس للموت يردده باستمرار، الموت، الموت. الموت هو الذي يذرع كل مكان. هو مع السمكة في الماء ومع البوم على الغصن وهو الذي يصفر فوق قمم الأشجار فور دخوله القصر سينتقم محمد منه دون سؤال، وكأنه لص عادي. سيهرق دمه فوق المرمر، دم عائلة جاندرالي العريقة.

ازداد خفقان قلبه عندما أصبح على مقربة من قصر جهان أمة. إنه على استعداد لدخول قصر قولقلي حتى لا يكون جنباً إلى جنب مع الزمرة العجيبة من الدراويش والبنائين وعمال البناء وتنظيف المستنقعات الذين أقبلوا من بخارى والشام والقاهرة. قصر جهان أمة بات مفتوحاً للدراويش والسفراء على حد سواء ماعداه هو الوزير ابن الوزير، الوزير الأعظم خليل جاندرالي. مكتوب عليه أن

يدخل القصر بعد منتصف الليل حاملاً مصيره بين يديه، متقدماً بوجل برفقة رئيس الحرس حتى غرفة السلطان.

عندما فتح الباب كان السلطان جالساً مبعثر الشعر، متربعاً على فراشه. وما أن رآه حتى خرّ أمامه، وقبّل يديه، واضعاً علبة المجوهرات أمامه.

– مولاي! لم أرد أن آتي إلى حضورك خالي الوفاض، فذلك ليس من تقليد رجالات الدولة.

– ما الذي تقوله يا معلمي. لقد أصابني الأرق، وعجزت عن النوم.

انتزعت كلمة (معلمي) كل آثار الخوف من أعماقه. على أثرها أحس بالسكينة والراحة تعود إلى نفسه.

خاصة بعد أن كررها للمرة الثانية:

– معلمي، لا راحة لي في هذه الدنيا الفانية إن لم أفتح القسطنطينية. هذه أُمنيتي الوحيدة في الحياة.

– إن الخالق عزّ وجل الذي منّ عليك بمعظم أراضي دولة الروم، سيمكنك من القسطنطينية يا مولاي. تطاير الشرر من عيني محمد المحمرتين بسبب طول الأرق. لم يكن ينظر إليه خلال حديثه، كان يبدو وكأنه ينفخ في نار فحم مشتعلة.

– خليل، سأهبك ساعتها ثروة أكبر من الثروة التي أحضرتها في علبتك. يكفي أن تساعدني في احتلال المدينة في أقرب فرصة، كي تخفق راية جدي فوق حصنها.

لا يزال يستغرب من سذاجته في تلك الليلة بقصر جهان أُمة إلى هذه الدرجة! ليلتها كان محمد في حاجة إليه، فبدونه لم يكن بمقدوره السيطرة على الإنكشارية ورجال الدين من العلماء. أما الآن فالوضع قد تغير بعد تمكنه من فتح القسطنطينية، رغماً عنه هو، ووزيره الذي كان يلح عليه دائماً بضرورة رفع الحصار عن المدينة.

لكنه واصل الحصار رغم قسوة الحرب والهزائم ونيران المدافع، وقوته البحرية التي تحطمت، إلا أنه نجح في نقل القوارب إلى البحر عن طريق البر. أجل نجح رغم المقاومة المستميتة في إخضاع جميع من في القسطنطينية لسلطانه، بدءاً بالبابا

وانتهاءا بعاهراتها. وبذلك أخذ خليل يدرك أن نهايته باتت وشيكة. الضجة التي يثيرها الجنود الذين ينهبون المدينة، تختلط بالأصوات التي تحدثها الطيور التي تتصارع على فتات فضلات الطعام الموجودة في القصع العائدة للجنود. إنها طيور الربيع، تبشر بالشمس التي تحمل على أجنحتها بشرى قدوم الأيام الجميلة، وأمسيات الصيف الحارة الطويلة. بدأت جفناه تتثاقلان، ترك نفسه لنوم عميق عقب محاسبة عقيمة مع الماضي. غط في النوم فعلاً، لكنه أخذ يرى انهياره في الحلم من جديد.

استيقظ خليل من نومه. كان وسط ألوان زاهية تحمل رائحة السهول والبراري في نقوش مطرزة على أبسطة تمتد حتى عمود الخيمة المرصع بالأحجار الكريمة التي تبدو في الوهلة الأولى زرقاء ثم صفراء وحمراء وبرتقالية بشكل يضاعف إحساس المرء بجمال الحياة وبهجتها. انتهت الحرب، وبدأ الربيع يغزو أرض بيزنطة المعجونة بالدم والدموع والعرق والألم. تذكر القرى التركمانية التي كانت تبدو في سهول الأناضول بخيامها السود المصنوعة من شعر الماعز مثل صقر ضخم جاثم على الأرض. كم من مدينة وينابيع وشواطئ للأنهار عبروها مع خيولهم الجميلة. كم من حصن فتحوه بسيوفهم المعقوفة! كم قبضوا من أرواح، وكم منحوا لمن يستحق حق الحياة! في النهاية نصبوا خيامهم قرب شجرة سرو. ودون أن يكون لهم وجهة معينة، احتلوا بيلجيك وبورصة وروملي، وبنوا قصوراً في أدرنة. العشيرة التي عبرت نهر تونا بأربعمائة خيمة، كانت تضم أسلافه العظام. كان خليل يدرك أن ثمة مرحلة جديدة في التاريخ العثماني ستبدأ بسقوط بيزنطة. الدولة ستتجاوز تقاليد الغز – الأوغوز – وسيكون جيش الإنكشارية الذي أسسه جده قرة خليل وبالاً على البكوات أولاً ثم على السلاطين فيما بعد. ألقى بنظرة من المكان الذي يستلقي فيه على الأبسطة القادمة من خراسان المقدسة. شعر فجأة بالحيوية مثل ما كان يشعر بها أجداده وهم على ظهور الخيل في الأيام العصيبة. كان على وشك أن يأمر الخدم بأعداد جواده لينطلق على ظهره خبباً كالسهم من الخيمة نحو أرض الأناضول عبر القسطنطينية إلى إيزنك. لكن هذا الإحساس

سرعان ما تلاشى حينما رأى الجنود يدخلون خيمته. لم يبد أية مقاومة بل نهض من فراشه وسار نحو الخرائط والفرمانات والرسائل ملقياً نظرة أخيرة على ختمه الذي سلمه إلى رئيس الحرس ثم سار برفقتهم تاركاً الخيمة.

* * *

عندما تجاوز التل منحدراً نحو الشاطئ أبصر البرج، برجه هو. لم يكن قد أرسى أساسه بعد. كان يهدف من وراء بناء الرج إلى تخليد اسمه، إلى جانب النصب الأخرى التي أرادها لتخليد اسم عائلة جاندرالي. كيف لم يعرف حتى ذلك اليوم بأن البرجين المغلفين بالرصاص اللذين يطلان على برجه الذي لم يبلغ بعد مستوى الماء هما لكل من زاغنوس وصارجا، رغم أنه قام منذ ما يناهز العام بمراقبة خطط البناء شخصياً، وأبلغ القائمين بالبناء عن رغبة السلطان في أن تكون الأبراج الثلاثة بنفس السعة والطول. كان مهموماً إلى الدرجة التي لم يفكر فيها أن الاختلاف بين الأبراج يأتي لاختلاف طبيعة الأرض لا غير. في الحصون المزدوجة وعلى بعد مئات الأمتار كانت القذائف الحجرية تستعد للانطلاق. لقد بدأ يحس بالاستهانة به، وبأنه لم يعد يسقط في أحلامه فحسب بل أنه أخذ يتحطم ويتفتت إلى جزيئات في واقعه. تحول ببصره من أبراج القلعة إلى البحر ثم إلى الشاطئ المقابل.

مقابل البسفور الذي يبدو بلون الشمس الأرجوانية، ثمة قارب صغير ألقى مرساته على مدخل نهر كوك صو. كانت القلعة تبدو من خلال شراعها الممزق من منتصفها. كان منظر المسجد والأشجار الممتدة من القلعة رغم لون النهر الكالح السواد يوحي رغم كل شيء بالراحة والسكينة. كانت ثمة غيوم حمراء تبدو وكأنها تحلق فوق النهر، رغم أنه لم يكن بالإمكان معرفة ما إذا كانت طيور الغاق تغطس في مياهه. لكن خليل كان يعلم أن هذه الطيور ستتوجه في المساء نحو النهر واضعة رؤوسها تحت أجنحتها في مواجهة غروب الشمس استعداداً للنوم، وأنها ستقضي على الإرهاق الذي تشعر به من جراء حركتها المستمرة أثناء النهار حينما تنحدر بهدوء إلى ضفة النوم والاسترخاء. في غروب كهذا الغروب، كان قد

رأى كوزلجة، لكنه آنذاك كان الوزير الأعظم خليل باشا الذي ينظم صفوف جند السلطان مراد للانتقال من الأناضول إلى روملي، ولم يكن أسيراً يقاد بعربة تجرها الثيران نحو مصيره المجهول. في تلك الأيام كان الجيش الصليبي قد عبر نهر تونا، وعلى أثر ذلك قرر استدعاء السلطان مراد الذي كان معتكفاً بمدينة بورصة. وكان السلطان الصبي محمد يلح عليه آنذاك قائلاً:

«أرجوك أن تستدعي والدي ليعود، ويحمي أدرنة من كفرة استانبول إلى أن يحين أوان غزوي لهؤلاء الكفار.» لكن السلطان لم يصغ لندائهم بل اكتفى بالقول «ليتول البكوات الأمر» لكنه ألح بضرورة حضور السلطان، وأرسل إليه محمود قصاب بك لاستدعائه من بورصة ليكون على رأس جيشه في مثل هذا الوقت الحرج، وأحس أن ثقلاً حقيقياً انزاح عن كاهليه حينما رأى السلطان مراد على رأس جيشه في الضفة الأخرى من الأناضول. لكم اندهش العدو من هذه المفاجأة! لم يكن آنذاك موجوداً كما هو الآن هذه القلعة ذات الأبراج الثلاثة التي تطل بتحد على البسفور. لم يكن هناك غير دير متهدم. كان قد تم نصب المدافع على الشاطئ. وكان جنود الإنكشارية في حالة التأهب لخوض المعركة ضد العدو في روملي وجيبجي. كانت القوات البحرية للجيش الصليبي قد أغلقت مضيق غاليبولي. لم يكن من خيار للسلطان للعبور إلى روملي إلا من هذه النقطة. في مساء كهذا المساء هام بكوزلجة. كانت الغيوم تعود قانية فوق نهر كوك صو.. كان الفرسان يبدون أمام موجة الغبار المتصاعد من حوافر خيولهم مثل كائنات وهمية. لكنهم كانوا الأمل الوحيد لإنقاذ الدولة من نير الغزاة. كانوا يتقدمون من جناحين بسرعة البرق حاملين ألوية حمراء وصفراء، يتبعهم المشاة والعبيد منحدرين صوب كوك صو. كانوا يبدون بدروعهم وسيوفهم وسهامهم، وكأنهم تماثيل من الفولاذ، يتقدمهم السلطان مراد الذي لم ينتظر حلول الصباح بل أصدر من فوق على ظهر حصانه الأبلق أوامره بالعبور على ضوء المشاعل. وكانوا قد بلغوا ساحة الحرب بخيولهم التي لم يجف عرقها على متن سفن جنوة. وتمكنوا بفضل هذه السفن التي لا تشبه سفن نقل الخيول في غاليبولي من العبور إلى روملي.

تذكر خليل كيف أن سفينتين غرقتا في أعماق البسفور، إثر إطلاق قذيفتين عليهما وذلك حينما حاولتا مواجهة الجند في الصباح. أحس بالأسى لأن مراد لم يعد موجوداً. وكان السلطان قد استدعاه قبل أن يروي ظمأه من نشوة النصر مع الشربدار (رئيس السقاة) حمزة بك واسحاق بك بعد أن وصل إليه نبأ عودته إلى مانيسا. ويتذكر الآن حبوره بالنبأ إذ أنه كان يحس بوحدة قاتلة لعدم وجود السلطان معه.

أما الآن فإنه يكاد يموت كمداً ليس بسبب الخوف، وهو برفقة رئيس الحرس بل للاستهانة به، وفقدانه لسطوته وتحوله مابين ليلة وضحاها إلى كائن لا قيمة له حتى بقدر نملة. قبل أن يدلف للإقامة بين أربعة جدران تأمل لآخر مرة الشمس وهي تغيب في البسفور. كانت القلعة غارقة في الظلام، وبقي القارب ذو الشراع الممزق والمحطم في وحدة لا حدود لها. كان ضياء النار التي أشعلها الحراس ينعكس على المياه، حتى طيور الغاق أخلدت إلى النوم. كان لا يزال يصل إلى أسماعه صخب الذين يواصلون نهب المدينة. لكن صمت الليل كان يضاعف من الدفين السري. هل هو ألم سقوط القسطنطينية أم ألم اقتراب الموت من شرايينه؟

* * *

وجد خليل نفسه بغتة في عالم آخر. ثمة يد مجهولة، قوة غامضة بدت وكأنها أسدلت ستاراً سرياً على عينيه.

لم يعد هناك إلا ظلام دامس، قاهر انتصب أمامه بلمح البصر كجدار لا يمكن اختراقه. تحسس بيده الجدران الصخرية الباردة التي لا تزال تفوح برائحة الآجر الرطب، ورائحة بيض النوارس النيئة والعواصف والتراب والريح والدم. لقد امتصت هذه الجدران بنهم الدماء المنهمرة كالسيل. إنن القلعة بحاجة إلى دماء ضحية جديدة. وإلى دم إنساني جديد، أنها ظامئة لدم الوزير الأعظم الذي سيرطب أساس القلعة. هذه الأرض العثمانية النهمة للدماء دوماً، هذه الجدران هي ملكه. كل الأشياء الجميلة التي عاشها لن تعود إلى الأبد.

لم يعد يبالي في هذه اللحظات بالجوع ولا برأسه العاري. لا يريد شيئاً البتة إلا

رؤية الألوان والأشكال ضمن واقعها الدنيوي. بدأت عيناه تتعودان على الظلمة رويدا رويدا. ها هوذا قنديله الزيتي وفراش القش وإناءه وإبريقه. بدأ بمعرفة غرفته. لا بأس بذلك مادام القنديل موجوداً. الغرفة ليست باتساع غرفته في القصر لكنها أكثر اتساعاً من خيمته.. يبتسم بمرارة لهذا الاكتشاف. من يدري كيف يبدو الآن وهو دون عمامته وقفطانه، وفوق كل ذلك فهو جائع ومنهك القوى. أحس أن كونه وزيراً أعظم وصاحب ثروة وجاه ومال بات في الماضي. ليس صعباً أن يتعود على وضعه الجديد رغم أن ذلك يمنحه إحساساً بالعذاب لا يطاق. منذ أمس وفكرة الموت تتعمق وتتجذر في نفسه.

في الحقيقة لم يبد الموت بالنسبة له في أي وقت من الأوقات شيئاً طبيعياً. فقد عاش في ظل الدولة بعيداً عن فكرة الموت، والخوف منه. لم يشعر به إلا حينما استدعاه السلطان إلى قصر جهان أمة. فهو لم يتواجد في ساحات الحرب، ولم ير الرؤوس وهي تنفصل عن أجسادها ولا الدماء المنبثقة من بين الدروع المثقوبة. فهو كرجل دولة لم يكن من الأمراء ولا من الرقيق مثل ساروجا وشهاب الدين. بل هو حفيد قرة خليل جاندرالي أما الآن فهو يعاني العجز أمام احتمال الموت بضربة سيف من الجلاد على رقبته. لكنه يتصور ذلك وكأنه يتصور احتمال وجود شخص آخر هو مثله بمرتبة وزير أعظم. وكأن الرأس الذي سيقطع ليس برأسه. تذكر فجأة النهاية المأساوية لملك المجر لاديسلاس في حرب وارنا. كان رأس الملك المقطوع قد وصل القصر مع بشرى النصر في قصر أدرنة. أخرج الرسول وهو متهلل الأسارير الرأس من إناء مملوء بالعسل ممسكاً بشعره صارخا «ها هو عدوك يامولاي» تأمل خليل، الرأس ذا العينين الكئيبتين والوجنتين الشاحبتين. خليل يحس الآن برحى الموت الذي ظن دائماً أنه لن يخيم عليه. لكنه حينما استمع إلى وصية السلطان مراد، أدرك أن السلاطين يموتون أيضاً. لكنه لم يفكر لحظة رغم ذلك أن الموت ممكن أن يكون قريباً منه في يوم ما. كان الموت آنذاك في بورصة، ولم يكن قريباً منه كالهمسة كما هو الآن. أوصى السلطان مراد الذي توفي في إحدى الليالي بين ذراعي جارية من جواريه بما يلي:

«إذا وافاني الأجل في مدينة أخرى غير بورصة، يتم مراسيم دفني يوم الأربعاء»!

كان صوته يبدووكأنه قادم من فراغ القبة التي كانوا يقفون تحتها. جالت عينا ساروجا للحظات في وجوه الباشوات القلقة. كان الوضع ينعكس على العبارات التي يكتبها الملا خسرو بشكل لم يكن بالإمكان تغيير مجرد حرف منه:

«يتم دفني إلى جانب ضريح نجلي علي بمدينة بورصة» كان يتلوماكتبه بصوت مراد الشجاع الأجش في تلك الفترة التي كان خليل يستمع فيها إلى وصية السلطان الذي كان متردداً في انتزاع السلطة من محمد. كان مراد يكن له المودة، ويعلم أن الإنكشارية يؤيدونه. وقد ذكر له أنه يريد بقاءه. الآن ربما يكون التراب قد غطى القبر الذي أعده لنفسه. وهو منذ اللحظة التي سقطت فيها القسطنطينية اصبح بعيداً عن أبواب الجنة. نسيم الربيع، المطر والشمس باتت في الخارج. حتى ماضيه أصبح هناك، خارج جدران سجنه.

لم يعد هناك إلا إنسان عجوز محكوم عليه بالإعدام، شيخ عجوز نزع ثوب الدنيا والسلطة، وارتدى بدلاً عنه رداء الموت.

ضرب الجلاد بالسيف عنق خليل بعد أربعين يوماً من سجنه في يوم قائظ من أيام تموز. أنهمل دم كالسيل لم يسقط رأسه على الفور. لم يتمكن من أن يقول للجلاد «اضرب مرة أخرى» ربما تمكن أن يقول ذلك لو كان فيه بقايا من رمق. لكن جسد الوزير الأعظم سرعان ما انهار بعد رأسه مثل انهيار قلعة على الأرض.

---

* يطلق الأتراك تسمية (روملي) على الجانب الأوربي في تركية. «المترجم»

-٤-

في هذا النهار كل شيء يبدو وكأنه استيقظ معي من سبات عميق. البحر لا يزال في خدر ضباب ليلة أمس والنوارس تقترب تارة وتحلق أخرى بعيدة عن الشناشيل. لبست ملابسي، ونزلت إلى الشاطيء. البسفور ينساب تحت الشمس التي بدأت بالشروق. لم أكن قد استغرقت من قبل في نوم طويل. لم تكن برودة الرذاذ المتطاير من أمواج البحر كافية لإبعاد خدر النعاس عني. وددت إعداد الشاي، كالشاي التي كنت أتناوله مع زوجتي وأصدقائي أمام حوض الأسماك في الحديقة الخلفية. لكنني سرعان ما تخليت عن الفكرة بعد أن فكرت أنه لم تعد هناك تلك الجانبية السابقة التي كانت عليها في السابق. الأعشاب بدأت بالاصفرار وأوراق الأشجار بالسقوط. فكرت بالوحدة التي يعاني منها المقعد الذي كنا نجلس عليه أنا وزوجتي، وبالحزن المنتشر على الأزهار الشاحبة من الإهمال في طرف الحديقة وعلى النافورة وأحجارها والكرمة.

أجل لا تزال الكرمة التي كنا نتكئ عليها في الصيف قائمة. رغم ذلك فالسأم تمكن مني. لم أرغب بالجلوس تحت كرمة تعاني سكرات الموت أمام حوض شحَت مياهه وأزهار شاحبة. عليّ الاعتراف بأن الحديقة أصبحت في صفحات الماضي المطوية، وأن رونقها بقي في ذكرى أيام لن تعود. هل تجتاحني هذه المشاعر بسبب هذا الصباح الخريفي، أم بسبب حالة الخدر التي لا تزال تسيطر على حواسي؟ أم بسبب تلك الأحلام التي رأيتها ولا أتذكر تفاصيلها؟ على كل حال بغية التغلب على حالة الضيق التي تسيطر علي، قررت زيارة المدينة. هذه هي المرة الأولى منذ قيامي بكتابة (قاطع البسفور) أشعر فيها بالرغبة في الخروج.

مشيت في الممر المؤدي إلى الشاطيء. لم أر البحر فترة طويلة بسبب العمارات القبيحة المطلة من بين القصور البحرية القليلة العدد. ثمة سيارات وحافلات الساعات الأولى تمرّ من الشارع،. فكرت في أن أستقل حافلة وأن أنزل منها في أخر موقف لها. لايهم في أية منطقة من استانبول ستكون. قررت التجول بلا هدف في

الأزقة حتى الصباح. استقليت الباخرة حتى منطقة أمين اونو. أحسست بالإثارة لأنني سأرى البسفور من جديد. مياهه ذات الزرقة القاتمة في الصباح ولونه الأرجواني في ساعات الغروب ومنظر خلجانه في الضفة الأخرى الذي أصبح جزءاً من طقوسي اليومية التي لا أستطيع الفكاك عنها. انطلقت أول باخرة صباحية مخلفة زبداً كثيفاً. لم تلبث الموجات الصغيرة أن انسابت بانتظام الشاطئ محدثة هديراً ناعماً. من فوق ظهر الباخرة استمتعت بصوت الهدير. سابقنا التيار متجهين صوب منطقة قنديلي.

كان الضباب كثيفاً إلى درجة تعذر فيها رؤية الضفتين. ومن خلال ستار قذر البياض، كان قصر كوك صو يبدو كخيال. كان بجدرانه الصخرية وفنائه المظلم يشبه بناية خربة كالتي تظهر في أفلام الجريمة أكثر من كونه يفكر المرء بقصر. أما بالنسبة لمياه كوك صو فإنها اختفت تماماً، كذلك أشجار الدلب والطرق وتل الحبّ حينما تناهى إلى سمعي صوت الآذان، أدركت إنني وصلت إلى مقربة من شاطئ قنديلي. في تلك الأثناء أطلقت البواخر صفارتها في آن واحد والتي اختلطت بصياح النوارس، وصوت الحبال وهي تلقى في المياه، ولم أعد أسمع وسط هذا الصخب صوت الآذان. دخلنا وسط ضباب كثيف. لم نعد نسمع شيئاً من الأصوات. كنا نتقدم على صوت هدير الأمواج، دون أن نرى أو نعلم وجهتنا. كانت باخرتنا أول باخرة تقطع عباب البحر. عدت إلى ما قبل آلاف السنين أي منذ بدء الأزمنة الجيولوجية لتكوين البحر الذي ننطلق فوقه. حينما اتحدت مياه البحر الأبيض المتوسط المالحة مع مياه البسفور الدافئة تعانقت مياههما بشهوة ترى ما الذي جرى للأسماك؟ ساعتها لم يكن الإنسان موجوداً على وجه الأرض بعد. لكن الأسماك ووحوش قاع البحر كانت موجودة عندما غمرت المياه السهول، انخفض مستوى التلال، وظهر تيار يمتد من الشمال إلى الجنوب، ومن الأعلى إلى جهة معاكسة.

منذ ذلك اليوم من يدري كم سرباً من الأسماك، وكم قارباً، وكم من البشر انتحروا ملقين بأنفسهم في أمواج البسفور العميقة حيث جرفه هذا التيار. وهو

الآن يقودونا حتى الضفة الأخرى في قز قوله سي* شعرت بتفاهة تفكيري فيما بعد. فالقبطان يمتلك خبرة سنوات من التعامل مع البحر. خلال كل ذلك، فكرت بأيام استانبول القديمة، عندما فكرت ما حل بها في ما قبل التاريخ بدأ الضباب بالتلاشي. وبدأ ضوء النهار يغمر المياه المتدفقة والبيوت الواقعة على الشاطئ والسفوح القريبة. وكانت القوارب البيضاء التي ألفت مرساتها في خليج ببك تبدو بوضوح.

حينما كانت الباخرة تمخر عباب البحر، أحسست بزوال الثقل المطبق على رأسي. فكرت في (قاطع البسفور) أحسست به وكأنه تحرر من الأفكار المتناقضة، وولد من جديد. كانت هذه أول رحلة لي عبر البسفور. النهار يبدأ من جديد. أعيد اكتشاف كل شيء. خرير الماء، عذوبة النسيم، صباح النوارس، البواخر التي تطلق صفاراتها، دفء شمس أيلول التي تبدد الضباب كلما أسقطت أشعتها على الشاطئ المقابل. مرت باخرة ضخمة بالقرب منا. بللنا رذاذ المياه المتطايرة منها. رغم ذلك لم يتحرك أي من الركاب الذين كانوا يجلسون على ظهر السفينة، بل واصلوا بهدوء ارتشافهم للشاي. اقتربنا بصمت من رصيف الميناء. من هناك بدت قبة الجامع ومنارته مثل لعبة. لم تكن الأشجار قد أسقطت أوراقها بعد. ثمة جذع شجرة دلب معمرة أسند جذعها المنشق إلى نصفين بجدار أسمنتي لمنعه من الانهيار.

توجهنا نحو أرناؤوط كوي وبيشكطاش وأورطة كوي. كل مرفأ بدا وكأنه قصر يضم في حناياه ذكرى أول رحلة لي لها. على امتداد الشاطئ ثمة قصور خشبية بحرية قديمة ومبان أسمنتية على شرفاتها نساء استيقظن لتوهن من النوم، ورجال بمناماتهم يدخنون أول سيجارة لهم هذا الصباح. كانوا يبدون وكأنهم بشر من عالم آخر أكتشفه لأول مرة. بشر من واقع بعيد غير قائم. لكنني كنت أنا غير الواقعي البعيد عن الحياة. لقد نسيت منذ أن أغلقت أبواب القصر البحري، وجود أناس آخرين غيري على وجه الأرض. وهكذا بقيت مع مرور الزمن وحيداً مع أبطال (قاطع البسفور) فوق عالم الأوراق الناصعة البياض، مبتعداً عن الحياة

اليومية وعن الواقع من خلال إحيائهم في ذهني. أقلقني منظر البيوت الذي يمر من أمامي كشريط سينمائي، الناس الذين في داخلها وآثاثهم والشوارع والسيارات التي تمر منها ولون السماء الذي نسيته. ازداد هذا الشعور عندي حينما اختلطت بالزحام الموجود في أمين اونو. لست إنساناً يعيش في هذه المدينة. لم يكن بوسعي أن أنجرف مع تيار استانبول طوال اليوم. كان بإمكاني أن أصطدم بلغم، أو بسفينة أخرى فأغرق. لأنني لم أكن أعرف المدينة. هدفي الوحيد في المدينة هو (قاطع البسفور) لقد جمعت كل الوثائق والمستندات التاريخية اللازمة لكتابة الرواية. في رف الغرفة ذات الشناشيل يقبع المخطط الرئيسي للرواية، والشخصيات التي تعيش وتتنفس في ذلك الزمان، منتظرة العودة إلى ما هو مقدر لها. غمرتني الفرحة عندما تذكرت الكتب التي تكمل الرواية، وخاصة المخطوطات القديمة. فيما مضى كنت أتجول في المدينة كما أشاء، قبل الغروب في المقاهي وفي الظهيرة كنت أجلس تحت ظلال أشجار الدلب، وفي المساء قبل البدء بتناول الكحول كنت أتوجه إلى المقهى لمقابلة أصدقائي الذين أكون على موعد معهم. وكنت أظن أنني أعرف كل زاوية، ودرب في هذه المدينة. أثناء تجوالي دون هدف في استانبول اكتشفت البيوت القديمة. وفي إحدى هذه الجولات نزلت إلى الصهاريج البيزنطية. وجلست في أقبية غلاطة سراي العفنة والرطبة. تحدثت في معظم كتبي عن استانبول التي اشتاق إليها حينما أكون بعيداً عنها. اشتاق إلى تلك المدينة التي في خيالي، مدينة أيام الصبا التي تحدثت وأتحدث عن أزقتها، وعن مبانيها الخشبية وفنادقها، وقصورها، وعن جوامعها وكنائسها وكنيسها. أود القول إنني قد أكون كتبت في كتبي بموضوعية عن تاريخ استانبول وجغرافيتها، كمدينة واقعية وزاهية. فكرت أن في إمكاني تكرار ذلك بأشكال وصور مختلفة في (قاطع البسفور.) كان عليّ العثور على طريقة أستطيع بها تقديم البعد التاريخي للمدينة من جهة، على أن لا يعكس الوقائع التاريخية لها. أوقفت سيارة أجرة، وطلبت من السائق التوجه إلى مكتبة فاتح.

عندما عثرت على مخطوطة تراكم عليها الغبار عن الأساطير الخاصة ببناء

استانبول، أحسست أن صخب سيارات الأجرة والحافلات والبواخر المنطلقة في عباب البسفور وحركة الحمام والنوارس التي لا تهدأ وحياتي في القصر البحري قرب قلعة الأناضول، بل وحتى حركة أطرافي قد بقيت خارج هذا المكان.

* قزقوله سي: برج مقام وسط البسفور. «المترجم»

هذا الجزء خاص بالأساطير الدائرة حول إنشاء مدينة استانبول

«حتى الروم يعتبرون القسطنطينية مدينة مقدسة. لهذا تنتشر فيها مبان عجيبة وطلاسم غريبة (...) لكم من مصيبة انطلقت من ذلك الوادي نحو المدينة، الطاعون تارة والزلازل تارة أخرى. بعد كل حرب عم فيها الخراب كانت الحرب مصيرها وقدرها. أمست سنين طويلة وطناً للكواسر والضواري والوحوش حتى حكمها الملك قسطنطين فنشر فيها العمران. وفي عهود المدينة الأخيرة عاشت حالة مماثلة من العمران».

الدر المكنون، غاليبولي، أحمد بيجان

الحمد والشكر والثناء لله الذي خلق مع الخلق نبيه آدم ورسوله الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال «أسمعتم عن مدينة يحيط البر بجزء منها والبحر بجزئين»! قال الصحابة «بلى يا رسول الله» وأفاضوا في شرح مدينة استانبول التي لا مثيل لها في فرائتها. وقال الله تعالى في الآية الخامسة عشرة من سورة سبأ بكتابه المبين «وكلوا من رزق ربكم واشكروا له. بلدة طيبة ورب غفور.» وقال جلى وعلا عنها في الآية الثامنة من سورة الفجر «لم يخلق مثلها في بلد.» ويتفق آلاف المفسرين على أن المدينة التي في الآية هي مدينة استانبول. أجل هذه المدينة التي قال عنها الشاعر «فداء ملك العجم لحجارة فيها.» وقال عنها آخر «كم من مدينة زاهية في الكون / لكن السحر الآسر مكنون فيك» مادمنا تحدثنا عن شعرائنا فما أحرانا بالحديث عن أساطير بناء استانبول حتى تسكن وتهدأ أرواح أولئك الذين يتلظون بسعير الشوق إلى هذه المدينة الفاتنة. وليعش كل من تغنى بها حياة مديدة.

يحكى أن:

النبي سليمان الذي حكم العالم كله، لم يحكم البشر فحسب بل الطيور والذئاب. السمك في الماء، والنمل في الأرض، والنمور المفترسة، والفيلة. وباختصار حكم الجان والحور، والمردة والأقزام. لم يكن على وجه البسيطة من لا يخضع لسلطانه ماعدا حاكم واحد يحكم جزيرة تقع وسط المحيط يدعى آنكور. وكان هذا الحاكم يمتاز بخصال حميدة في البسالة والإقدام، لهذا لم يخضع لسلطان أحد.

عندما علم سليمان أن هناك ملكاً على وجه الأرض غير خاضع لسلطانه، شد الرحال صوب تلك الجزيرة. كان شراع السفن التي تقل جنده من الأطلس، وحباله من حرير والمجانيف من أغصان السدير. تقدم سليمان يرافقه جيش عرمرم من الجان والحور متجهاً نحو آنكور. هزم أهالي آنكور في تلك الحرب. طلب سليمان من الملك التكبير، والشهادة بوحدانية الله وإلا انه سيطير رقبته. لكن

الحاكم أبى وتمادى في غيه. أطارت رقبته عدة سيوف، انهالت عليه في نفس الوقت رقبته. ثم وضع رأسه قرب خيمة سليمان، وغنمت أمواله.

كان لآنكور ابنة باهرة الجمال، في عمر الزهور تدعى شمسية. تزوجها سليمان، وقفل راجعاً إلى بلده. لكن شمسية لم تنس موطنها، وظلت تنخرط في نوبات بكاء لا تنتهي. لم يطق سليمان صبراً لما آلت إليه حال زوجته. في أحد الأيام طلب منها الكف عن البكاء وقال لها «اطلبي مني مابدا لك» قالت له شمسية إنها تتمنى أن يبني لها قصراً منيفاً لا مثيل له، وأنها ستحس بالسكينة حينما ستسكن في مثل هذا القصر. أمر السلطان الطيور بلغة الطير، والجن بلغة الجان، والحور بلغة الحور، والمردة بلغتهم في أن يبحثوا عن بلد لا مثيل له على وجه الأرض. بحثوا في أنحاء البلاد شرقاً، وغرباً، شمالاً وجنوباً، ومن صحارى عربستان حتى جزر المحيط، وغابات أفريقيا التي لم تطأها قدم بعد، ومن سهول سيبيريا إلى بلاد الصين والماجين وحتى جبال القاف. في النهاية عثروا على المكان المطلوب في منفذ البحر الأبيض المتوسط إلى بحر مرمرة الممتد نحو شاطئ البسفور في منطقة يحيط البر بجهة منها، والبحر من جهاتها الثلاث. حيث الأسماك تتلاعب في مياهها الزرقاء، وتحيط الأعشاب الخضراء بشطآنها. مناخ معتدل وبلد ذو شمس ساطعة. هناك أقام سليمان لزوجته الحبيبة شمسية قصراً منيفاً. ولاتزال آثار القصر الذي أقامه سليمان شاخصة في المنطقة المسماة سراي بورنو. كما يمكن مشاهدة العديد من القصور والأسوار في شبه الجيرة الجميلة هذه. في الحقيقة أود القول بأنني أصدق مثل أسلافي أن سليمان بنى جميع المعابد والمدن الجميلة في العالم. وانه هو الذي أقام استانبول، ولكن قصة تأسيس مدينتنا الجميلة لا تنتهي عند هذا الحد. فمثل جميع المدن التاريخية، والبلدان الجميلة ثمة دم ودموع في أساس مدينة استانبول. وذلك كما يلي: لم تستطع جدران الرخام الفخمة، والنوافذ المصنوعة من الذهب الخالص والسقوف والشرفات الفضية ذات السلالم المصنوعة من أغصان الورد والطيور المغردة في فناء القصر أن تنسي شمسية القصر الذي كانت تعيش فيه مع أبيها آنكور. وبهدف إبقاء ذكراه

حية أمرت النقاشين برسم صورته. كان آنكور يقف فيها بعينيه الزرقاوين، وبشعره الذهبي ولحيته الشقراء التي لم يدب الشيب فيها بعد. كانت إحدى يديه فوق قبضة سيفه، ويده الأخرى تمسك بقلادة مزدانة بلآلئ من المحيط نضدها هو شخصياً. وكان منشغلاً بتقليد القلادة المطلسمة لأحد الأمراء الذين أقبل من بلاد بعيدة للاقتران بكريمته شمسية. وكان قد تجاوز كل الاختبارات التي وضعها آنكور كشرط لموافقته على زواجه من ابنته. كانت شمسية تغرق في التفكير في تلك الأيام الجميلة كلما تأملت الصورة.. وتشعر بفتور في عواطفها تجاه سليمان. كما بدأت تبتعد عن دينه. وعندما وصل ذلك إلى مسامع سليمان أمر بقتلها بحجة عودتها لعبادة الأوثان. في يوم ربيعي مشمس دفنوا جثة الأميرة الجميلة في حديقة القصر. منذ ذلك اليوم أصبحت أشجار السرو في مقابر استانبول محدثة حفيفاً محزناً عند هبوب نسائم الربيع. وبسبب اختلاط جسدها بتراب المدينة فإن مناخها بات يمتاز بالنعومة، وماءها بالنقاء، وشمسها بالسطوع الباهر، وبحرها بالزرقة الصافية، وأهلها بالرقة والعذوبة. الشوق إليها أشد حرقة من النار، ووصالها أعذب من النوم العميق، للفراق عنها ألم في الأعماق كالألم الذي تحدثه ضربة خنجر صدئ.

رغم قيام سليمان بإنشاء أول قصر في الموقع الذي تقع فيه استانبول، فإن ميدان بن يانكو يعتبر المؤسس الحقيقي للمدينة لبنائه أسوارها وبيوتها ومعابدها وأزقتها وشوارعها. وكان يانكو في الوقت ذاته أقوى الحكام وأكثرهم فطنة وعلماً بعد سليمان. حيث امتد سلطانه من المشرق إلى المغرب، ومن بلاد الفرنج والهند إلى بلاد يأجوج ومأجوج التي يسكن أهلها خلف سور الصين.

رأى يانكو في منامه شيخاً أبيض اللحية يوصيه أن يبني مدينة تخلد اسمه على مر العصور والعهود في نقطة تلاقي البحر الأسود بالبحر الأبيض. كما أوصاه أن يضع في أساسها صخوراً من كل الدول التي يبسط عليها سلطانه. استيقظ يانكو من منامه، ووجد نفسه جالساً على العرش في منطقة يحيط البحر بجهاتها الثلاث. ظن في بادئ الأمر أنه لا يزال يحلم. لكنه وجد نفسه وسط جمال طبيعي

خلاب، فظن أن الشيخ الذي رآه في المنام هو الذي أحضره مع عرشه إلى هذا المكان. على الفور بعث برسل إلى جميع أرجاء مملكته الواسعة طالباً إرسال عمال البناء إليه فوراً. امتطى هؤلاء عرباتهم بعد أن حملوها بالصخور، وعواميد من الرخام، وقباب من الرصاص، واتجهوا بها إلى المكان الذي كان فيه يانكو. بعد عمل مضن استمر سبعة أعوام، أخرجوا الآجر من باطن الأرض، ونحتوا الصخور، وصهروا الرصاص. وفي اليوم السابع من الشهر السابع للسنة السابعة استشار يانكو المنجمين قبل البدء بحفر الأساس. طلب رئيس المنجمين تأسيس المدينة في يوم سعيد، وأن يتم نصب العواميد بعد وضع ناقوس في كل عمود منها. وذكر أن النواقيس ستدق من تلقاء نفسها حينما يحل ذلك اليوم فأيّد كل شيء رأي رئيس المنجمين بدءاً بالنجوم وانتهاءً بالإسطرلاب. على أثر ذلك أقام يانكو العواميد، وأوصل كل منها بالآخر بحبل معلق فيه ناقوس، وبدأوا جميعاً بانتظار حلول اليوم الموعود.

لكن الرب لم يرض عن هذا العمل، ولتذكير عبيده بأنه لا يمكن حدوث شيء خارج إرادته، أرسل قبل حلول اليوم المرتقب لقلقاً يحمل ثعباناً بين منقاريه. وعندما وصل اللقلق إلى المنطقة التي تسمى اليوم بسراي بورنو أسقط الثعبان فوق أحد النواقيس. آنذاك بدأ رنين النواقيس. بدا المكان وكأنه غرق في صخب هذا الرنين. ظن العمال أن اليوم السعيد قد أزف لذلك بدأوا بحفر الأساس، غير آبهين بنداء رئيس المنجمين أو بتحذير يانكو. وتحققت بذلك إرادة الرب، حيث بدأوا بحفر الأساس قبل حلول اليوم السعيد، وهكذا خط قدر مدينة استانبول بالموت والآلم والدمار. دمرت سبع مرات، وأقيمت سبعاً. امتلأت الأنقاض بالثعابين والعقارب، وأقامت البوم والغربان أعشاشها فيها، وانتشرت الأوبئة في أزقتها. امتلأت القصور فيها والحمامات والخانات بالبشر، وخلت منهم. حوصرت مرات عديدة من قبل الكثيرين. سبي أهلها وتم أسرهم، وبيعهم في أسواق النخاسة. انتشرت فيها الكنائس والجوامع. سملت أعين الأمراء، وتم شنق الصبية منهم في السجون. واصل العديدون فيها سلطانهم. عاشت أياماً

جميلة. في كل مرة انحدرت نحو البحر. منذ ذلك اليوم باتت تعيش في كل الملاحم والقصائد والذكريات. لكنها تمكنت في الخروج من المحن، والدمار، والحزن، وينابيع الدم والنيران كطائر العنقاء.

ذكرنا أن استانبول دمرت، وتم إعمارها عدة مرات. ومن مؤسسي هذه المدينة الاسكندر ذو القرنين الذي يلقبه الفرنج بالإسكندر الكبير الذي خلقه الرب لإقامة نظام جديد على وجه الأرض. ومعروف أن هذا الإمبراطور بسط سلطانه على العالم، وهدم آلاف المدن، ووسع حدود مقدون المعروفة بأستانبول حتى أواسط آسيا. لكنه من غير المعروف فيما إذا كان أقام هذه المدينة من الماء. لكن المؤرخين لم ينتبهوا إلى ذلك. لنروي ذلك كي نتذكر أسطورة جديدة حول الروايات الدائرة عن بناء مدينتنا. تقول الرواية:

في موقع استانبول الحالي اليوم، كانت هناك ملكة تدعى قايدافا، اشتهرت بظلمها بقدر شهرتها بجمالها الفاتن، أقامت عرشها بين المنطقة التي سمتها مقدون والممتدة من سراي بورنو وحتى اسكودار. لم يكن البسفور آنذاك موجوداً لعدم التقاء البحر الأسود بالبحر الأبيض. بعد أن أحكم الإسكندر سيطرته على العالم، توجه للسيطرة على مملكة قايادافا. لكن الإسكندر الذي خاض الحروب ضد ملوك ودول لا تعد ولا تحصى، لم يرغب في الانتقام من امرأة، بل فضل إرسال رسول إليها طالباً منها الاستسلام بدلاً من الحرب. لكن قايادافا رفضت طلبه فحاصرت جيوشه مقدون. إلا أنه رغم ذلك لم يتمكن من إخضاعها، لأن وحش البحر المرعب ذو الرؤوس السبعة والأجنحة الضخمة الذي كان ينفث النيران من فمه، ويقدح الشرر من عيونه الحمراء كان يحمي المدينة. لم يتمكن الاسكندر مع أشجع رجاله من التغلب على وحش البحر الذي كان يعشق الملكة قايادافا. كان شعب مقدون يقدم فتاة عذراء كل يوم قرباناً للوحش الذي كان يقضي على الجنود بالنيران المحرقة المنبعثة من فمه، وكانت الرماح والسهام التي تنهال عليه كالمطر تبدو أمام جسده الضخم مثل عيدان لتنظيف الأسنان. فكر الإسكندر بعد أن أعياه التفكير في التغلب على الوحش المفتون بالملكة قايادافا في تهريب عذارى

المدينة، وبذلك يبقى الوحش دون قربان يقدم له كل يوم. وقد تمكن بفضل رجاله الموثوقين من التسلل إلى المدينة دون أن يراه الحراس. لكنه فشل في اللحظة الأخيرة عندما كان على وشك أن يقنع عذارى مقدون، بفضل جماله الآسر، وجسده المفتول وشعره الذهبي الأكرت. أُلقي القبض على الاسكندر وأُحضر أمام الملكة التي لم يطاوعها قلبها على قتل فتى بمثل جماله وفتنته. فأمرت بإلقائه في غياهب السجن.

ولكن هل يعقل أن يظل الاسكندر رهين السجن؟ كلا بالطبع. لذلك تمكن من الفرار والعودة إلى بلاده.

ورغم أن قواده طالبوه بالتخلي عن فكرة احتلال مقدون إلا أنه لم يصغ لهم بل استمر يبحث عن سبيل جديد لذلك. جمع الاسكندر جميع المهندسين والمعماريين طالباً منهم قياس مناسيب مياه البحر الأسود بعد انتهاء العلماء من دراستهم التي استغرقت أياماً تم فيها قياس المناسيب. اتفقوا على أن البحر الأسود أكثر ارتفاعاً من البحر الأبيض، وأن مياهه أكثر. نتيجة لذلك تم تكليف مئات الآلاف من العمال لحفر قناة شمال مقدون. انحدرت المياه التي تم فتح طريقها أمامها إلى الجنوب مما أدى إلى فيضان المياه وإبادة شعب مقدون عن بكرة أبيه. ولم ينج من هذه الكارثة إلا الملكة بمساعدة الوحش الذي أخذها إلى كهفه القابع في أعماق البحر، وسجنها هناك.

وهكذا بدأ الإسكندر بإقامة ما يسمى اليوم بمدينة استانبول في ملتقى البحر الأسود بالبحر الأبيض. لكن الوحش ذو الرؤوس السبعة استمر في إثارة الذعر، فكان يهاجم الخنادق التي تحفر في صباحاً، والجدران التي يتم بناؤها، والطرق التي تشيد في الليل. طلب قواده من الاسكندر ثانية التخلي عن فكرته. لكنه استمر في عناده. أمر النجارين بإنشاء صناديق لا تسرب المياه، محاطة بزجاج كثيف من جانبيه. عمل النجارون شهوراً لتنفيذ ما أمر به الإسكندر. بعد انتهاء العمل تم حمل الصناديق إلى القارب، وانطلقوا به في البحر يرافقه رسامون دخلوا مع الاسكندر تلك الصناديق التي أُلقيت في البحر. نفذ البحارة أمر الإمبراطور،

وبدأت الصناديق تهبط مع من فيها إلى قعر ا لبحر. هناك بين الصخور والطحالب مرت من أمامهم أسماك ملونة تهز زعانفها، وأخطبوط وسرطانات بحرية ثم ظهر الوحش وهو يفتح فمه كالسمكة ويهز زعانفه، أثناء ذلك كانت تبدو أسنانه المفترسة. مر من أمام الصندوق دون أن ينتبه للذين كانوا يقبعون في داخله. تمكن الرسامون من رسمه. وعندما عادوا مع الإسكندر من قعر البحر إلى سطحه، طلب منهم أن يصنعوا تمثالاً للوحش. بعد عمل شاق استمر عدة أشهر أنهوا العمل، نصبوا عدة هياكل من الرخام للوحش فوق البحر. عندما خرج الوحش من البحر كعادته في الليل رأى تلك التماثيل، فشعر برعب شديد عاد على أثره أدراجه مختفياً تحت الماء، ولم يعد ثانية إلى هناك. أُقيمت استانبول على شاطئ مقدون المغمور بالمياه في شبه جزيرة سراي بورنو، منذ ذلك اليوم بدأ الوحش يتحيَن الفرص للعودة للانتقام من المدينة وهدمها. ويقال انه سيبتلع المدينة حالما يتم رفع العواميد المنصوبة من هناك. لا أعلم إذا كنتم تصدقون ذلك أم لا. أما أنا شخصياً فأصدق الرواية التي تقول إن الوحش سيعود لإحراق المدينة التي أُقيمت على سبعة تلال. قدر المدينة في التعرض للدمار والهلاك مذكور في أقدم الوثائق، بل وحتى في الكتب الدينية المقدسة التي تتحدث عن القيامة. يقال إن النار ستكون نهاية المدينة التي بدأت بالماء. وثمة واقع معروف هو أن الإنسان يغرق في الماء ويحترق بالنار. وسيحس المرء بأن كل يوم هو مليء بحزن شفيف حينما يعيش في استانبول.

-٥-

استهوتني الكتابة والولوج في عالم الحرف والكلمة بحيث لم انتبه لمرور الزمن. لم أحس إلا بيد توضع على كتفي. كان مسؤول المكتبة الذي قال «آسف. إننا مضطرون لإغلاق المكتبة. سأضع ما تقرأه في زاوية لتبدأ منها غداً.» واجهتني صعوبات جمّة في فك ألغاز الحروف العربية. رغم جهودي لم أستطع إلا أن أنهي قراءة نصف الوثيقة. في الصفحات الأخرى أساطير أخرى عن بناء مدينة استانبول. قلت لأمين المكتبة بأنني أقطن في مكان بعيد، وليس بوسعي العودة ثانية للمكتبة. سألته إذا كان بإمكاني استنساخ الكتاب. رد بالإيجاب ثم أضاف «الوقت متأخر الآن، لكن بإمكاني أن أقوم بذلك، وأبعث النسخ لعنوانكم.» شكرته على هذه الإلتفاتة. دفعت له الثمن، وتركت له عنواني. وعندما كنت على وشك الخروج سمعته يقول «ربما سنلتقي» قلت له «ربما.»

كان ثمة جو دافئ في الخارج. هدوء لا يمكن أن يحل بأستانبول إلا بحلول شهر أيلول. عبرت الشارع ثم صعدت السلالم. هاهي مدرسة محمد الفاتح! مشيت عبر المباني ذات النوافذ الحديدية وقباب الرصاص.

أحسست بلذة غريبة لوجودي في مكان كان في زمن ما محاطاً بعلماء معروفين يقومون بالتدريس لطلاب علم كانوا يتناولون الطعام ويشربون بالمجان. ويقضون أوقاتهم في مكتباتها ودار الشفاء في مكان يختلط فيه العلم بالإيمان. كنت داخل الزمن وخارجه في نفس الوقت. كان الزمن هو سر هذه الجدران القديمة والملالي والشيوخ فيها وعزلة القباب المقامة من الرصاص. كان شيئاً خارج ذاتي وواقعاً بقي في الماضي، يستحيل استرجاعه، وإعادته، بل كان حلماً. لكنني كنت أحمل ذلك الحلم، وأهتم به. كان الزمن جزءاً مني، وعضواً حياً من جسدي. مشيت على امتداد المدرسة التي أنشأها محمد الفاتح. دلفت من الباب الكبير إلى الفناء الداخلي للجامع. لم يكن هناك من أحد. جلست مسنداً ظهري على عمود مزين بالزخارف. عندما كنت أتأمل الماء المنطلق من الحوض عدت بذاكرتي إلى ما قبل

عدة سنوات. حوض المقهى الذي جلست فيه مع أحد أصدقائي والذي لم يكن للمياه المنبثقة منه خرير، كخرير مياه هذا الحوض الذي تركت نفسي لخريره الرتيب.

جلست هناك فترة طويلة، قبل الدخول إلى الجامع الذي قمت بجولة حوله. رأيت قبر محمد الفاتح. كان ضريحه واسعاً جداً، وثمة شمعة ضخمة تضيء شاهدة القبر التي وُضع عليها نصبٌ يمثل عمامة بيضاء. على ضوء الشمعة انسللت إلى الماضي. في زمن ما عاش هذا الذي يرقد الآن داخل ضريحه وحكم قارتين. قبل أن ينحدر إلى أعماق الظلمة إلى الأبد عاش أياماً وليال.. أحسست بالميت قرب رأسي. لم يكن يفوح بالتراب، كلا! كان بلا حركة. ذو لحية كما في الصور. شاحب الوجه. ماذا لو نهض الآن من قبره، وفتح باب ضريحه وأقبل نحوي، واحتضنني.. أو ناداني إلى جانبه وغمغم قائلاً «بفضلك عدت إلى الحياة. أضفت لحياتي حياة جديدة. أعدت النبض لشراييني بقلمك. أنا مدين لك بروح، بل بحياة جديدة» ولكن محال أن يغمغم أو حتى أن يحرك شفتيه. الموتى لا يتحدثون، لا ينطقون، ولا ينبؤننا بشيء.

عندما انطلقت إلى الخارج من أحد الأبواب إلى زقاق فرعي، فهمت سبب دخولي للجامع. فقد كنت أعلم أن المقبرة ذات القبة الفخمة قد تهدمت أثناء حدوث زلزال، وأنه لم يبق من المبنى القديم ليومنا هذا الشيء الكثير. بناء قديم، زمن قديم، وموت قديم. لكن كل ما رأيته كان جديداً. كنت الوحيد الذي أحمل في أعماقي قصة نهاية حب وأنقاض علاقة انتهت. على أثر الزلزال لم يبق حجر على حجر. انفصلت القباب عن العواميد التي تسندها. انشقت الأرض، وانطلقت الجثث من تحتها. كان قبر الفاتح جديداً، وكذلك ضريحه. مشيت على امتداد عدة أزقة ضيقة تقع على طرفيها بيوت خشبية، ومنها ولجت إلى زقاق آخر. عبرت ساحة خالية كان الأطفال يلعبون فيها الغميضة. كانت الساحة مغطاة بالأحراش. في طرف آخر منها ثمة جدران متهدمة فيها حجارة لمرقد قديم لا تزال تحمل آثار شموع متجمدة. لم أمر من هذا الحي منذ فترة طويلة. قررت أن استمر في المشي بين

الأزقة المنحدرة من الخليج نحو الأحياء الفقيرة باستانبول. لم تكن الشمس قد غربت بعد، كانت لا تزال تضيء شناشيل البيوت المتصدعة، وزجاج نوافذها التي شارفت على الانكسار، وعلى أثاث الغرف التي تبدو نوافذها دون ستائر، وسقوف البيوت الخشبية المتآكلة. كنت أبدو وكأنني قادم من عالم آخر. لم يكن ثمة بيت واحد حديث. لم يعد بمقدوري رؤية البحر، ولا مدخل البسفور أو الخليج. أما بالنسبة للمدينة فلم أكن اسمع إلا صخبها. كان علي أن أشرب قدحاً من الشاي لأستعيد نشاطي قبل العودة، ولإبعاد حالة الخدر التي تتلبسني. جلست على مقهى مقام تحت جذع شجرة دلب ضخمة. لم يكن فيه أحد غيري. قبل النادل أقبلت نحوي قطتان نحيفتان من القطط الشريدة. صعدت إحداهما وهي تموء على الكرسي الذي أجلس عليه. أما الأخرى فقد رقدت تحت قدمي. في مساء من أمسيات أيلول كنتُ اجلس في مكان مجهول من أحياء استانبول برفقة قطتين. استانبول منذ بنائها لا تفصح عن نفسها. مدينة أبدية يفوح منها التاريخ، وموت قديم من كل زواياها.

في طفولتي، كانوا يتركون في حديقة بيتنا أحياناً قططاً صغيرة حديثة الولادة. لم تكن أمي تطيق بقاء تلك الحيوانات البائسة التي ترتعش من البرد في الزقاق. كانت تبدي اعتناء فائقاً بها، وحينما كانت تقوى، وتكبر تقوم بتوزيعها على الأقارب والجيران.خلال التوزيع لم يكن يبقى لنا قطط. كانت القطط ترقد صيفاً تحت شجرة التوت، وفي الخريف تتكاثر من جديد، وهي تموء مواءً غريباً. بعد موت أمي انتهى العهد الذهبي للقطط في منزلنا. انتقلنا للسكن في شقة فاخرة بوسط المدينة أنا ووالدي. كان أبي راغباً في نسيان ذلك البيت الذي عاش فيه سعيداً مع أمي. أما أنا فكنت راغباً في نسيان أبي. التحقت بقسم داخلي للطلبة ثم انطلقت إلى باريس. الغريب إنني لم أتذكر طفولتي في البيت الخشبي، لكن القطط ذكرتني بها. في ذلك الوقت كانت البيوت ذات الشناشيل، والأزقة الموحلة في أناضول وحصار وقصر جهان أمة يقع في نفس المكان. أحسست بأنني قد نسيت استانبول التي شهدت أيام طفولتي. كنت أعلم الكثير عن تاريخ وجغرافية وأساطير هذه المدينة،

لكنني لا أعرف الشيء نفسه عن الحياة اليومية فيها، وعن الأناس الذين فيها. كنت أقرأ الكثير في الصحف طوال الصيف عن تطور الصراع بين اليمين واليسار فيها، والصراع الدموي الدائر فيما بينهم، وقتل كل طرف منهم للطرف الآخر دون رحمة، وبلوغ غلاء المعيشة فيها حداً لا يطاق. لكننا في الاصطياف بعيدين عن الخطر والصراع من أجل لقمة العيش. لم يكن يهمنا كثيراً ما يجري في الداخل. لسنا نحن فقط بل كل الذين يعيشون في الخارج يحملون نفس الشعور. فهم لم لا يبدون ردود الفعل إزاء ما يجري في بلادهم. في كل يوم يحصد الإرهاب، وحوادث المرور مئات الأرواح. وفي كل يوم يزداد عدد النساء اللائى يتاجرن بأجسادهن.، ويزداد عدد المنتحرين، وعدد الذين يعرضون أعضاءهم للبيع. ربما كان استغراقي في كتابة (قاطع البسفور) في القصر البحري، هو لرغبتي في استعادة علاقتي التي فقدتها مع الماضي وبالتحديد مع استانبول. لكنني مع تعمقي في الكتابة، ابتعدت عن حاضرها، ودفنت نفسي في القرون السالفة. أخذت أتجول في الدهالين، وأنزل الأقبية، والصهاريج. كنت أرفع الموتى من قبورهم، وعندما كنت أعمل على إعادة الحياة لها كنت أشرف على الموت. كانت الحياة تبدو وكأنها تغادر جسدي، والدم ينسحب من شراييني، وبالماضي يحتل بكل قوته الفراغ الموجود في ذهني وتفكيري. كانت ذاكرتي تعاني الاحتلال. أستيقظ كل يوم في البسفور أمام الروملي، ولكن هذا لم يكن يعني البتة بأنني أعيش استانبول، كنت غير مهتم بالاضطراب السياسي الذي تعيشه البلاد. عندما كنت مستغرقا في أفكاري، جاءني صوت النادل:

- إننا على وشك الإغلاق. لا شاي جاهز لدينا يا سيدي.

نهضت على مضض. داعبت القطة التي فوق المنضدة ثم غادرت المقهى.

ها أنذا في الزقاق من جديد. كنت أحس أثناء سيري بين البيوت القديمة الخشبية ذات النوافذ الحديدية المتراصة على جانبي الطريق وكأنني أعيش في حلم قديم. كنت أبدو وكأنني داخل ديكور مسرحي قديم في مكان خارج المدينة لا يعرفه أحد. بين فينة وأخرى تمر سيارات الأجرة القديمة، وثمة باعة ينادون لشراء

الأثاث القديمة. ثمة من ينادي على البطيخ، وأخر على الطماطم والفلفل والباذنجان والخس. هذه هي أصوات مدينة استانبول القديمة التي نسيتها. كانت تبدو وكأنها آتية من عالم آخر. عالم لا يمكن أن تصله الحياة يبدو مثل خيال الظل.

انحدرت نحو شاطيء الخليج. هناك، وعلى اثر الصخب المرتفع اسيتقظت من حلم الزمن القديم. مررت من بين السيارات المزدحمة، ووصلت إلى الحديقة القائمة على الشاطئ. كان هناك فيما مضى بقايا سور هنا قبل سنوات، كان يعتبر ملجأ للحشاشين والمدمنين. على طرف منه ثمة دكاكين مهملة، وأزقة تفوح برائحة البول. رغم طول البحث لم أعثر على المكان الذي كانت تقوم فيه بقايا السور. لم أرغب في الجلوس في المقهى الذي يسند جذع الشجرة فيه بالجدار الإسمنتي. عدت أدراجي إلى الشارع بعد جولة دون هدف لفترة. أوقفت سيارة أجرة، انطلقت بي إلى غلاطة سراي. ألقيت بنفسي في إحدى الحانات التي حولت براميل النبيذ إلى مقاعد لجلوس الزبائن.

* * *

من غير اليسير الكتابة لعدم قضائي الليلة في القصر البحري. حسن فعلت بنزولي إلى المدينة. فقد تحررت من الهم الذي يتراكم في نفسي كلما توغلت في الكتابة. أما الآن فيبدو من المحال الاستمرار مواصلة كتابة الجزء الذي أنهيته من (قاطع البسفور) بعد اليوم الذي بدأ في تبة باشي. البسفور يبدو أكثر هدوءاً من الأماسي الأخرى، والمياه لا تزال أرجوانية. بينما السحب الحمراء والزرقاء والوردية تتناثر فوق القلعة التي هي حقيقتي الوحيدة، كامنة في أغنية قديمة تنطلق من المذياع «الزمن ينساب كالماء.» صحيح، إن الزمن ينساب كالماء. الكلمات وحدها تتشبث بطرف القلم، وكأنها داخل دوامة غير متوقفة، تظل تدور معها، وهي خلال ذلك تكرر مرادفات متشابهة. أه لو أتمكن من وضعها في تيار الأحداث! إنها بدلاً من التكاثر، تنحدر وتنساب في حركة معينة.

تمكنت حتى اليوم رغم المشاق من الاستمرار في الكتابة. أنهيت أجزاء لا بأس بها. ولم أنس أن أُضيف إليها الأحداث المهمة، وغير المهمة التي صادفتنني في

القصر البحري، وسعيت أن يكون الأسلوب مناسباً لتطور الأحداث. لكنني لن أستمر في الكتابة بنفس الأسلوب. فثمة عوائق لا تزال قائمة تعترض سبيل الكلمات هذا المساء. فهي لا تتكاثر ولا تتلاقح. لا تتكاثر إلى الضعفين أو الى ثلاثة أضعاف أو مئات الأضعاف أو إلى ما لا نهاية مثل كائنات نوات الخلية الواحدة. الكلمات عاقرة هذا المساء. تتحرك دون رغبة في محورها مثل اللازمة الموسيقية أو قافية في قصيدة شعرية، تظل تكرر إلى ما لانهاية نفس الجملة.

كنت سأكتب هذا أيضاً، ولكن عندما يحين أوانه في جملة بأحد الأجزاء النهائية، وليس هنا. ورغم أنني تطرقت إلى قيام الرسام البندقي غانتيل بليني عام ١٤٨٠ برسم لوحة محمد الفاتح في السطور الأولى من (قاطع البسفور) كنت اخطط للكتابة عن مهارة وإبداع الرسام غانتيل بليني بحماس، لكن ذلك لم يحدث. فبعد عودتي من بي اوغلو، وجلوسي على المكتب للكتابة لم أتمكن من تجاوز جملة واحدة ظلت معلقة في ذهني تأبى أن تتجاوزه: طويلاً كان وجهه، تعباً كان وجهه، وجه السلطان. ربما يكون لبقائي ليلة أمس في الفندق وما جرى لي هناك أثر في ذلك. لكنني الآن مصمم على الاستمرار في كتابة (قاطع البسفور) وليس ما حدث في غرفة الفندق.

بعد سكرتي في الحانة فضلت التوجه إلى فندق بمنطقة تارلا باشي بدلاً من العودة. كيف لي أن أعرف أنني سأرى على الجدار حالما أشعل الضوء صورة محمد الفاتح المأخوذة من مجلة (الحياة.) كان الفاتح حقيقة مثل اليوم الذي قضيته في المدينة. حقيقة مثل الضباب المتناثر، والفناء الداخلي لجامع محمد الفاتح، وأزقة استانبول القديمة. انتهت الليلة التي بدأت داخل ديكور مسرحي في غرفة بدأ طلاء جدرانها بالسقوط على ضوء شاحب. كتبت انطباعاتي التي أخذتها من التنفس الهواء الطبيعي للمدينة. أما ما حدث في تلك الليلة فأتركها لوقت آخر.

نهضت من المنضدة وتوجهت نحو المطبخ. كنت أشعر بالجوع، وأرغب بتناول شيء قبل النوم. أخرجت من الثلاجة جبناً وفواكه. وبسكينة لا أعرف قصة وجودها في المطبخ، قطعت الجبن والخبز الذي أخرجته إلى شرائح. بدأت بالتناول

على مهل. شعرت بالأسى لأنني أتناول الخبز والجبن في موسم السمك. فهذا الموسم هو موسم تكاثر الأسماك، وقد بدأ الصيادون بعد رفع الحظر باصطياد البلاموط واللوفر. لكنني رغم ذلك كنت في «أناضولوحصاري» أتناول عشائي بمفردي. يشاركني وحدتي الخبز والجبن. على كل حال مرت ليلة أخرى على هذه الشاكلة. نمت مبكراً محاولاً نسيان الحوادث الغريبة التي تعرضت لها في تبة باشي، لأنني سأكتب جزءاً جديداً صباح الغد. مهما سيحصل ومهما سيجري سأكتب ما جرى، وما حصل في مدرسة السلطان محمد الفاتح..

هذا الجزء يبحث عن وضع مدرسة
السلطان محمد الفاتح التي أنشأها بنفسه

جامع السلطان فردوس للجنان
الأطلس الزاهي قبته، و العرش أركانه
مدرسة الرخام علائمها وطباعها الزهو و الفخار
هي عز الدنيا حتى قيام الساعة

(قصيدة استانبول، لسعدي سيروزلي. شاعر ونديم السلطان جم)

عندما ترجل محمد من حصانه أمر الذين كانوا بمعيته عدم مرافقتهم له. فهو يبحث عن الوحدة والسكينة في كل مرة يقبل فيها إلى هذا المكان مرتقياً درجات السلم. هذه المرة أيضاً صعد الدرجات على مهل. على كل درجة كان يحس بالتحرر من همومه الدنيوية، وأنه يبتعد عنها رويداً رويداً، وان الشعور بالصفاء يخيم على نفسه. لم يكن ثمة أحد في أطراف الحوض. فكر في أن يخلو إلى نفسه. لم يكن هناك أحد قرب الحوض. أسند ظهره للشمس كي يسري الدفء في ظهره قبل أن يأتي الملالي ورجال الدين للوضوء. كان يحس بالإرهاق من ليالي الشتاء الرطبة، ومن الحملات التي لاتنتهي والسهر في القصر حتى الصباح.

جلس على رخام قرب الحوض، مصغياً إلى خرير الماء. كان الضوء المنبعث من الأعلى، يجعل كل شيء جلياً كان يحس بالتحرر من همومه الدنيوية، وأنه يبتعد عنها رويداً رويداً، وان الشعور بالصفاء يخيم على نفسه. لم يكن ثمة أحد في أطراف الحوض. فكر في أن يخلو إلى نفسه. لم يكن هناك أحد قرب الحوض. أحجار الفناء المصفوفة بانتظام، عواميد الرخام، الفسيفساء، والمياه المنبعثة من الأحواض، كل شيء يبعث عل الهدوء والسكينة. رغب في أن يستنشق بعمق الهواء الدافئ والزرقة المنبعثة من بين أغصان الأشجار حتى أعماق رئتيه.

كان كل شيء جميلاً كلمسة ناعمة من يدي صبي يافع. كان العالم قد بقي هناك، خارج جدران هذا الفناء: الحروب، الموت، القوانين، واجتماعات القصر، والمخاطبات التي لانهاية لها، والمؤامرات التي تحاك في القصر، والمطامع ثم الشهوة المقبلة مع الليل، ويده التي يمدها نحو الأجساد الطرية والناعمة طمعاً في الشهوة لإرواء ظمأ جسده هو، وليس ظمأ الأجساد العارية. كل شيء كان هناك، خارج هذه الجدران. أما هنا فالماء والضوء فقط، وبرودة الرخام. كان سعيداً في مدرسته التي انتهى بناؤها قبل فترة قصيرة. كان على وفاق مع نفسه، مثل البناء المعماري الذي حوله، ومثل طيور الحمام التي تشرب الماء من مياه السبيل. كان في الأربعين. فكر في أنه بدأ يشيخ. تأمل للحظات المنائر التي تمتد من جانبي قبة

الجامع. هذا البناء سيخلد اسمه في هذه الدنيا الفانية. كان قد أشرف بنفسه شخصياً على مراحل البناء بكل تفاصيلها حتى انتهى العمل في هذه المدرسة الضخمة. كان على الملالي ورجال الدين أن يكونوا في الدرس. ربما كان الملا سراج الدين يعد في زاوية ما خطبة الجمعة التي سيلقيها بعد قليل. الطعام يعد في المطبخ، وفي الميتم يوزع الطعام على المساكين والأيتام، والحمام يمتلئ بالماء الحار، ويمنح الدواء للمرضى في الطب خانة، ويضمد الجراح في دار الشفاء، ويتم تدريس الدروس في المكتبات، ويعتني بجياد القادمين من الرحلات الطويلة في إسطبلات الأشجار حتى أعماق رئتيه. إضافة إلى إقامة الأمن والنظام في القسطنطينية. بعد الفتح بدأ بأعمار المدينة فتم بناء الجسور والخانات، والحمامات والأسواق وقصر جديد، كما تم فتح قنوات المياه، وتم تأمين الطعام للفقراء. كان أمله إسعاد سكان المدينة، فرفاه الدولة في إسعاد عبيدها في هذه الدنيا قبل العالم الآخر. السلطات منحت له كي يحقق هذه الآمال بشكل جديد. فهو ظل الله على الأرض، ووريث روما الشرقية، والمرشح الوحيد لإمبراطورية العالم. عليه أن يكون كما هو مكتوب في ختمه «محمد ابن مراد خان المظفر دائماً.» شعر بفوران شعوره بالحكم والسيطرة في أعماقه، وطغيان شعوره بالاستمرار في الفتوحات. فهو أنزل الضربة القاصمة بالبيزنطيين، واحتل قلاعاً لا تحصى في البلقان، واسقط تيجان ملوكها، وتمكن مع مورا من احتلال صربستان، وأماصرا مع بونتوس. لكن روما لا تزال واقفة على قدميها. كان يحس بالقلق لعدم تحقيقه النصر في البندقية بسبب مقاومة البابا له. كما كان يخشى من تفاقم القلاقل التي يثيرها حسن الطويل في الشرق. في كل فرصة يضرع إلى الله من أجل يكون عونه في بسط نفوذه على العالم. فكر في أن يقول لله إنه لن يبخل في التضحية بحياته في هذا السبيل، لكنه انتبه إلى عدم جدوى ما يفكر به. ألم يأت إلى المدرسة لنسيان الأمور الدنيوية والاختلاء بنفسه، والركون على أعماقه؟ إذن لماذا كان عقله يتجه صوب روما، وحسن الطويل والبندقية؟ لماذا لا يحاول القبض على خناق أهوائه، فهو لم يتعود بعد التحكم بزمام أحلامه النازعة للسيطرة؟ قال أستاذه آق شمس الدين، إن الحقيقة لا تكمن في

الفتح والعبادة بل في أعماق ذاته، ويجب عليه البحث عنها هناك. كان يشعر بالأسى لأنه لم يستطع يوماً تحقيق تلك الرغبة. شعر بالشوق لرؤية الشيخ الذي رحل عن هذا العالم منذ سنوات، لكن ذكراه لا تزال قريبة منه.

كان محمد جالساً قرب حوض الجامع الذي يحمل اسمه، مفكراً في الأيام الخوالي التي قضاها مع آق شمس الدين، فتذكر أولاً لحية أستاذه الناصعة البياض ووجهه المشرق وعينيه السوداوين البراقتين. وهو يراه الآن في أحد الجوامع الواقعة في الأزقة الخلفية لمدينة أدرنة، يحيط به جمع من الدراويش، يهتز من الوجد كلما ردد اسم الله كأن الحشد في حالة من الوجد. كان الدراويش حفاة عراة الرؤوس، يتأرجحون مكبرين. لم يكونوا يتأرجحون في الأحرى، بل يرفعون رؤوسهم إلى الأعلى مع العبارة الأولى ثم يخفضونها بشدة في العبارة الثانية، وكأن رقابهم على وشك أن تنفصل. يهزونها يساراً ثم فوق صدورهم برفقة الدفوف والصنوج حسب الإيقاع الذي يشتد مع «لا إله» ويرفعونها بسرعة مع تهجدهم «إلا الله»، آق شمس الدين يعتمر عمامته، ويجلس متربعاً وسط مريديه متأملاً نقطة مجهولة، وكأنه ليس في هذا العالم، ترافقه الملائكة في ترحاله. شفتاه تتحركان ببطء. ولم يكن هناك من يشعر بذلك، لأن لحيته كانت تغطي شفتيه تماماً. لكن محمد كان يشعر بذلك التضرع، ولربما لم يكن تضرعاً بالمعنى المفهوم كان يبدو، وكأنه يتقاسم سراً مع الله لا يعرفه أحد سواه. أجل، لو أحتل القسطنطينية فهو يؤمن أن ذلك سيكون بفضل شخصية آق شمس الدين المقدسة. لأن دعاء شخص مثله لطخ يديه بدماء أخيه فور تسنمه العرش، ليس بدعاء مقبول. لذلك اهتم دائماً بالشيخ. ازداد قرع الدفوف، ودخل الدراويش في حالة من الوجد والهلوسة، وبدأوا بتمزيق ما عليهم من لباس، كما غشي على العديدين منهم.

كان شمس الدين جامداً مثل هيكل من عصر قديم، فقط كانت شفتاه تتحركان بالدعاء إلى الله عز وجل من اجل أن يمن عليه بفتح جديد سيغير به وجه العالم. كان الشيخ قد تضرع للخالق أيضا قبل عام أمام أسوار المدينة، دون كلل، لأنه كان على يقين بأن الله لن يبخل على المسلمين بالنصر المبين تحت الراية المحمدية.

ثم يقبل إلى التكية البيرامية* ويتأمل من خلف قفص محمد درويشاً مولوياً* في التكية وهو ينهض ليرقص السماح* الدرويش يبدو أكثر شباباً من الشيخ آق شمس الدين، وأطول قامة منه إلى درجة أن رأسه يكاد يناطح السقف، يبدو وكأنه شجرة سرو. ويبدأ بالدوران، وكلما ازداد دوراناً انفتحت أطراف ثوبه مثل زهرة النيلوفر. لم يستطع أن يبعد محمد نظراته عن الدرويش. للحظات ينسى ذاته ومشاريعه ومسؤولياته الجسام. ويبدأ بدوره الدوران من أعماقه مع الدرويش في السهول الشاسعة التي تراءت أمامه فجأة ومع كل دورة كان يحس بأنه يعبر إلى داخل ضياء جميل في حالة من الوجد على ضوء القنديل. في هذه اللحظة لم يعد السلطان محمد رئيس الدولة، وقائد الجيش. لم يعد إلا مجرد إنسان يذوب كيانه مثل الشمعة في القنديل.

يتحول من العدم إلى ذات حية، ذات حقيقية، ذات في الآن. كلما دار كان يرى وجوهاً هامت من الوجد، وأعين أغمضها نور الحقيقة. ومع صدى صوت الدرويش المولوي الجميل، المنعكس على سقف التكية الواطئ ينهض محمد من حلمه.

«يا روح الروح» يقول المولوي بصوت مولانا جلال الدين الرومي:

«يا روح الروح أهكذا

تتركني وترحل دوني!»

هؤلاء المولويون لا يتحدثون إلا عن الفراق! ولكن فراق ماذا؟ هذا ليس بواضح. فراق الإنسان عن الخالق أم العاشق عن المعشوق، أم هو أنين الناي؟ الناي الذي افترق عن القصب، والإنسان عن أصله. الاثنان يئنان من ألم الفراق.

«أصغ إلى الناي واصمت

ولا تنبئني عن الفراق.»

يئن الدرويش قائلاً «لا أريد أن ترحل هكذا من غيري.» تردد ذؤابة الشمعة، والدفء الذي في الجسد

«لا أريد»

لا أريد دورانك أيتها السماء بدوني

لا أريد شروقك أيها البدر بدوني

لا تقفي أيتها الأرض بدوني

لا تنقض أيها الزمن بدوني*

---

* البيرمية: طريقة صوفية أسسها حاج بيرام ولي. وهي إحدى الطرق الصوفية المتأثرة بالصفوية.

** المولوية: مذهب صوفي لقطب الصوفية مولانا جلال الدين الرومي.

*** السماح: نمط من الرقص التعبيري الديني الخاص بالمولويين. «المترجم»

هذا الصوت لا يحمل في طياته عذاب ولوعة الفراق بل جيشان العاطفة أيضاً.
هو صراخ من الأعماق للقاء القمر بالنجوم، الأرض الطيبة بالينابيع والأنهار والنباتات. البشر والحيوانات على حد سواء جزء سعيد من هذا الكون الشاسع. لكن الفراق يظل هو الحقيقة الوحيدة للحياة من أجل أن يتحقق اللقاء المرتقب. مع دوران الدراويش تدور الكلمات أيضاً في ذهن محمد الذي نكس رأسه حاملاً بيده ما التقطه من الأرض ليمنحه بيده اليمنى للكون* ولكي يدور بسرعة ضارباً الأرض بقدمه مكرراً:

«لا أريدك أن ترحل هكذا من غيري.»

وفي كل مرة يزداد النداء النابع من الأعماق:

«انظر إلي هكذا إلى الأبد

لا تتركني، ولا ترحل، لا أريد»

بعد احتلاله المدينة، وبلوغ أربه، اختلى في إحدى الليالي بالشيخ آق شمس الدين. في اليوم الثاني انطلق الشيخ إلى مدينته في كوينك دون أن يعود ثانية. أجل لم يعد بعد ذلك أبدا. أحس محمد بالفراق في هذا الصباح. أراد أن يخر على قدمي مرشده، لكن شمس الدين قال له: «جعل الله العرش والسيف من نصيبك، وليس خرقة الدراويش» طلب منه أن يثوب إلى رشده، وأن يبتعد عن المحرمات، وأن يتوجه صوب الملذات الروحية بدلاً من الملذات المادية. لا تزال كلمات رسائله التي بعث بها من كوينك في ذاكرته «نحن لا نراكم مثل سائر الخلق» و«لا تلته بأمر ما عدا إعمار البلاد» لقد استجاب لوصايا مرشده، وأوصل الدولة والرعية إلى بر الرفاه والاستقرار.

أصحيح أنه لم يعمل إلا الخير، ولم يرتكب أفعالاً شنيعة؟ يحس بازدواجيته في هذا الجانب، فهو على دراية بأن بعض أعماله مجافية للحق، ومنبثقة من شريان الشر. لكنه رغم ذلك لا يشعر بالندم. فهو في أعماقه لا يخشى الجحيم، ولا يخشى الله. لا يريد إلا النسيان. نسيان الدماء التي طالما أهرقها، والرقاب التي طالما

طيرها، والأرواح التي سلمها للجلاد. يريد نسيان كل شيء. يريد أن ينسى كل شيء كما الدرويش المولوي حينما يبدأ بالدوران. نسيان ذاته، ونسيان مرارة الفراق في أعماقه. ولكن أي فراق هذا؟ فهو لم يحب أحداً البتة في هذا العالم. وهو ينسى حبيباته اللاتي يهيم بهن بعد الوصال معهن. لربما شعر بمشاعر التقدير والمحبة تجاه أستاذه الشيخ آق شمس الدين الذي توسل به كثيراً كي لا يرحل. لكنه في نهاية الأمر لم يستجب لرجائه. أحس في تلك الليلة التي أمضاها في الخيمة، أنه يكن الود والمحبة كثيراً لشيخه. لكنه تعود مع مرور الزمن على غيابه. بينما مولانا جلال الدين الرومي أحب حقيقة، ونسي كل شيء في بحر العشق، فرأى عن كثب جمال الله متمثلاً في وجه شمس التبريزي القدسي. لقد رحل من أحب، أي من الروح الوحيدة التي يرغب في لقائها. لهذا يشعر بالمرارة والألم. لو يعشق فسيكون بإمكانه نسيان الدنيا. لكنه عاجز عن ذلك حيث أن عليه أن يعيش في هذا العالم، وأن ينشغل بهمومه. يتذكر ابنه مصطفى. كان قد نسي للحظات خلت وجوده. أجل ثمة من يحبه، ولا يستطيع التخلي عنه، إنه الأمير مصطفى الذي سيظل مرتبطاً به حتى لو تنازل له عن العرش إذا فكر يوماً ما في الاعتكاف مثل أبيه. كم يود أن يعيش في عالم الذكر والسماح أياما وليال. لعله يتمكن بذلك من التحرر من أدران هذا العالم! ويعيش بقية أيام عمره زاهداً على ضفاف نهر تونجا بأدرنة.

ربما لا يتمكن نجله مصطفى من تحقيق أحلام بني عثمان. لكنه يشك في أنه يستطيع إدامة قوتهم، ويفتح دولاً جديدة إلا أنه لن يتمكن بأي حال من الأحوال من فتح روما، ولكن بإمكان محمد بن مراد خان المظفر دائماً، أن يبسط سيطرته على العالم. سرعان ما يتخلى عن هذا الحلم، ويحس بشعور يشبه العشق بل يتجاوزه. لكن شعوره ببسط سطوته على العالم يتغلب على مشاعره العاطفية، فهو على استعداد أن يعيش حالة عدم الحب، وعلى استعداد كذلك لتقبل الوحدة، والعزلة في سبيل أن يحقق أحلامه. يكفي أن يتمكن من عبور أسوار الفاتيكان، ويهدم سلطة البابا كما فعل عندما احتل بيزنطة، وأطلق الأذان في آيا صوفيا أماما

شجرة تفاح، أغصانها مثقلة بتفاح أحمر يلمع كالشمس. الشجرة تبدو قريبة منه جداً وكأنها على مرمى حجر. لكنه عاجز رغم ذلك من اقتطاف الثمرة الناضجة. يحس أن احتلال روما ليس يسيراً مثل قطف تفاحة من شجرتها. تبدو الشجرة هناك على مرمى رمح، تقف قرب حديقة بلا أسوار بين أزهار القرنفل والبنفسج. لكنها ستختفي حالما يهم بقطف تفاحتها. يندلع حرائق في أعماقه. وفي اللحظة التي يتخلى فيها عن قراره، وينقطع صوت الموسيقى الذي اعتاد منذ زمن على سماعه ليس بإذنيه فحسب بل بكل حواسه، ينهار الدرويش المولوي على الأرض. تتلاقى نظراته مع نظرات الشيخ آق شمس الدين. يبتسم الشيخ وكأنه يقرأ كل ما يخطر على بال محمد. هل يحاول أن يومئ بهذه الابتسامة «أن الوقت لا يزال مبكراً. لا تمن النفس بلا جدوى فثمار الشجرة ليست من نصيبك.» يبتسم، وتبرق عيناه في فراغ التكية المعتمة. يراقبه محمد بفضول، وهو ينهض مشيراً إلى انتهاء الطقوس.

يتذكر محمد قرب الحوض اختلاط الحلم بالواقع، والأحداث بالأزمنة. عندما كان يراقب قبل عام سراً آق شمس الدين، لم يكن قد فتح القسطنطينية بعد. أنبأه الشيخ بعد ذلك بزمن طويل أن الثمار قد أينعت في الرسائل التي كان يبعث بها إليه من مقره في كوينك. هل أومأ إليه بأن حلماً سيراه في ليلة القدر سيغير مجرى حياته. منذ ذلك اليوم اعتاد أن يغفو مبكراً في ليالي القدر. كان في حالة من الترقب بين النوم واليقظة، كان يحلم دائماً بشجرة التفاح وهي وسط ظلام غريب. إنه يحلم، ولكن ليس ثمة من يفسر له هذا الحلم، ويشير عليه بما يجب عليه القيام به. في الوقت الذي تنطلق فيه الأصوات بالدعاء في كل جوامع الإمبراطورية، يبدو وكأنه يسمع صوت آق شمس الدين يحدثه كيف أصبح مريداً للحاج بيرام ولي، وذلك عندما شبت في أعماقه نار العشق اتجه صوب التصوف مبتعداً عن طريق الشريعة، حيث بدأ بالترحال للمناطق النائية في سهول الأناضول. ناسياً أي مكان يعرف فيه «رأيت أنه من العار على من هو مثلي استجداء قطعة رغيف حتى لو كان على أمل توزيعه على الفقراء، لذلك ابتعدت عن التكية. لأنني لم أكن قد تحررت بعد من مرض الغرور. لهذا انطلقت صوب حلب لأكون مريداً عند زينل الحافي. لكنني

رأيت حلماً في الخان الذي أمضيت ليلتي فيه. رأيت في الحلم عنقي معقوداً بحبل، وكان الحبل في يد الحاج بيرام المباركة. في صباح اليوم التالي قفلت راجعاً إلى أنقرة من جديد. ورأيت الحاج بيرام يحصد الحصاد مع دراويشه. أخذت منجلاً وشاركتهم العمل. عملت دون توقف حتى الظهيرة، وعندما انتصفت الشمس في كبد السماء، توقفت عن العمل. أعددنا مائدة تحت ظل شجرة. جلس الكل لتناول الطعام. لكنهم لم يدعونني لمشاركتهم الغداء. على بعد قريب منهم، كانت ثمة مائدة للكلاب، لم تكن مائدة بالمعنى المعروف بل فضلات متراكمة. ولم أجد بداً من التوجه إلى حيث الكلاب. في هذه الأثناء ناداني الحاج بيرام قائلاً «تعال يا هذا إلى هذه الجهة، لقد غلبتني بسرعة» وهكذا خطوت أولى خطواتي. وبعد أن أنهيت المحن، توجهت يرافقني دعاء الشيخ إلى أدرنة، وأقمت فيها التكية البيرمية.»

كان آق شمس الدين قد حدثه عن ذلك في الليلة التي قضاها معاً في الخيمة. وعندما توفي، أوصاه بأنه سيرى حلماً في ليلة القدر، وعليه أن يتصرف على ضوئه. الآن يدرك الحقيقة. الحقيقة الوحيدة لحياته، وهي التواضع وعدم التكبر حتى لو كان فتح القسطنطينية يبيح له ذلك، لكن عليه الحذر وعدم الغرور، والاعتداد بالنفس. فالشيخ فسر له التواضع في تأويل جلوسه إلى مائدة واحدة مع الكلاب. كيف لم يتسن له فهم هذه الحقيقة حتى هذا اليوم. إذن، فهو رغم فتحه العديد من البلدان سيغادر الدنيا دون أن ينجح في الوصول إلى كل ما يهوى ويشتهي. هكذا سيغادر هذه الدنيا الفانية، المحبوبة والملعونة في آن واحد. أجل فالاسكندر بسط في يوم ما سلطانه على العالم، وتمكن أن يجمع أقوامه تحت راية واحدة. كم من عروش تهاوت، وملوك ركعوا أمامه في الشرق والغرب، وفي البر والبحر وحكم الأرض والسماء. كم كان يحب في شبابه الاستماع إلى مغامرات الاسكندر. في مانيسا حينما كان يجتاحه الشوق لاستعادة العرش، كان يستمع بشغف إلى الكتاب المزدان بالمنمنمات الذهبية يتلوه له الملا كوراني.

كان الاسكندر يجتاح بجيشه القوي التلال والوديان والسهول والصحاري الشاسعة والمحيطات التي لو كانت مداداً لعجزت، ونشفت عند كتابتها انتصارات

الاسكندر العظيم. كان السلطان الوحيد الذي حكم الشرق والغرب، وبسط سلطانه على العالم. لم يبق على وجه الأرض بلد لم يفتحه، وأرضاً لم يغزها. كان السيف والعرش يمنحانه القوة والوسامة. أما بالنسبة إليه فلم يكن يروي ظمأه إحراق المدن وإلحاق الهزائم بالجيوش أو ابنة حاكم المدينة روشنك الجميلة ذات العيون الواسعة كعيون الغزلان، والأهداب الطويلة كالسهام، ولا أسنانها الناصعة كاللؤلؤ النضيد، ولا الحكيم الذي يعرف جميع أسرار الكون مثل بسطة كفه، ولا طبيبه الذي يكشف عن جميع الأمراض بفحص قطرة من بول المريض. بل كان فضوله منصباً في الوصول إلى كأس الشراب التي لا تنضب مهما تناول المرء منها. كانت تلك الكأس ترمز إلى فضوله الذي لا ينضب للعلم. ألم يقل الرسول «اطلب العلم ولو كان في الصين.» هو أيضاً كان يتوق للإحاطة بكل شيء في العالم. حينما كان يختلي إلى نفسه في قصره بمانيسا، كان يطمح إلى معرفة كل ما يتحرك في الكون، الشمس، القمر والنجوم. كان به فضول غريب لرؤية وجه الأرض من السماء السابعة. كان يوصل الليل بالنهار. لم تكن كأس الشراب تفرغ من أمامه مثل كل الشعراء الذين يميلون إلى اللهو واللذة. وكانوا ينادمون السلاطين في ساعات الصفاء على كل حال كان فضول الاسكندر يروق له أكثر من حروبه. لأنه يعاني مثله من فضول لاحد له من أجل التوصل إلى فك أسرار الكون. كان يسوح في بقع العالم الشاسعة مع القصص التي كان يتلوها الملا كوراني من الاسكندر نامة. خلال هذا الترحال الذي لا ينتهي يقابل فقراء الهنود الذين لا يتناولون اللحم، ويتحدث إلى علماء الدين في مكة، والزنوج الذين يسترون وجوههم كالنساء في بلاد الحبشة. تلاحقهم في أعماق البحر أسماك لها رؤوس الفيلة، وفي أعماق الغابات اسود غاضبة، وخنازير برية ذات أنياب مفترسة، يواجه الثعابين والعقارب التي كانت تحاصر كل مكان وحينما كان يتمكن من القضاء عليها جميعاً كانت تبرز أمامه قمة جبل مغطاة بالثلوج وهناك يتمكن من الوحش الرابض في السفح الأخر من الجبل. على الضفة الأخرى من البحيرة الواقعة هناك مدينة للنساء. قرب الضفة البحرية التي تسمى خاسون. لم يكن فيها ثمة رجل.

كانت النساء يركبن الخيول ويرمين السهام ويتقلدن السيوف. كن عامرات الصدور مثل رمانات متدحرجة على قماش من حرير. لكن إحدى نهودهن مقطوعة، كلهن كن عذارى. وكان يتم طرد كل من ترغب بالزواج. حيث عليها ترك البحيرة العميقة والتوجه إلى مدينة أخرى كي تنجب فيها، ولو كان المولود أُنثى فيتم إرسالها إلى مدينة النساء. كانت النساء يتناوبن على الحراسة تحت الشجرة المقدسة الواقعة على شاطئ البحيرة العميقة. وكان يتم مكافأة من تسقط رجلاً من فوق حصانه بوضع تاج على رأسها وأقراط في أذنيها. بعد أن يرى الاسكندر جيشاً من النساء من ذوات الأقراط في مواجهته، فإنه يقرر التخلي عن محاصرة المدينة. لكنه بعد الحصول على الإذن المطلوب يقوم بالتجوال في حواري المدينة المسورة بالماء وعند تجواله يتعرض إلى عاصفة ثلجية حيث تغطي القصور أسطح القصور وقمم الجبال، وفجأة يجد نفسه ليس في أزقة المدينة بل على ضفة نهر. ثم يجد نفسه مع جيشه وسط صحراء قاحلة ومن فرط القيظ اللاهب تكاد النار تندلع من دروع الجنود. يكاد الإعياء والظمأ يقتل الجند والخيل. وهكذا يعبر الصحاري المحترقة والجبال المكللة بالثلوج ليصل سهولاً فسيحة، تعيش الثعابين في جزرها، والأسود المفترسة في غاباتها، وعلم بذلك أن جيشه الذي هزم الجيوش، وهدم الأسوار قد وصل إلى بلاد يأجوج ومأجوج.

بشر هذه البلاد مخلوقات غريبة في الواقع. وجوههم سوداء، وعيونهم كالفحم، ألسنتهم ونظراتهم سوداء، ويتحدثون لغة غريبة لم يسمع بها أحد من قبل. كانت أجسادهم التي تشبه أجسام الحيوانات المفترسة، مغطاة بشعر كثيف. صدورهم واسعة، وآذانهم كآذان الفيلة. عند إحساسهم بالنعاس كانوا يتوسدون إحدى آذانهم، ويلتحفون بالأخرى. ولو يكن بالإمكان قتلهم بالسلاح مهما كان نوعه. كانت إناثهم يلدن كل مرة آلاف الأطفال. مع قدوم الربيع، يهيج البحر الأخضر ويغطي البلاد من أقصاها إلى أقصاها. كانت الغيوم التي تجمعها الرياح المجنونة تمطر ثعابين. وكان الأهالي يقومون بتربيتها والاعتناء بها ثم يتركونها تضعف بعد بدء القيظ، وتحرق الشمس كل شيء، حيث يتغير عواء الذئب الذي يطلقونه

إلى ما يشبه هديل الفاختة.

قام الاسكندر بوساطة أمهر البنائين الذين أحضرهم من مختلف بقاع العالم ببناء جدار سجن خلف بلاد هذه الكائنات المرعبة.

يتذكر محمد ساعة المغيب في مانيسا. لم تزل قناديل غرفته الخاصة غير مشتعلة. كوراني، يجلس متربعاً أمامه يتلو عليه الاسكندر نامة. كانت الكلمات تنبعث منه كلمة كلمة ثم تتجمع وتتحول إلى بحيرة عميقة. مع كل بيت من المثنوي الجميل كخط الثلث، كانت الحياة تعود إلى المدن مع كل قافية. لكم يرغب أن يترك نفسه لسحر الكلمة، وأن ينساب معها صوب أعماق البحيرة. يسيطر عليه الرعب عند ذكر بلاد يأجوج ومأجوج. يتوقف معلمه عن التلاوة حتى يمنح الأمير فرصة التغلب على خوفه. ينسل الصمت إلى الغرفة برفقة ظلمة المساء. كل شيء يبدو بعيداً وغير واضح. يبدو وكأنه يشرف على الاستيقاظ من الحلم. يرى الجبل الذي أمامه تماماً، وكأنه على وشك السقوط فوق القصر. لربما تكون طائفة يأجوج ومأجوج خلف هذه الجبال المهيبة. عندما تنطوي السماء على الأرض كورقة عند قيام الساعة، وتسير الجبال وتنشق الأرض، ويبعث الموتى ويعودون ليستولوا على العالم. يسأل كوراني إذا كانت هذه الطائفة موجودة حقاً. لا يرد كوراني على سؤال تلميذه مباشرة. يبدو الصمت غير قابل للاحتمال. يهبط الظلام فوق القصر. الدنيا مليئة بالشرور، والأقدار ضلت طريقها. العجلة تدور. ولكن من أين وإلى أين؟ لا أحد يعرف. حتى الإسكندر نفسه. فلا الاسكندر يعلم سر الظلام، ولا كوراني الذي يتربع أمامه. ألا يمكن أن يمتلك يأجوج ومأجوج سر سطوة الظلام؟ يا كوراني العظيم، هل في الحقيقة هناك مثل هذا القوم؟ «بالطبع» يقول معلمه «يرد ذكرهم في القرآن» ويتلو إليه آيات من سورة الكهف. يتذكر محمد صوت الزلزال حينما يصغي إلى صوت معلمه، وكأنه ينفخ في بوق القيامة.: قالوا «ذو القرنين، ويأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً. قال مامكنيّ فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً. آتوني أفرغ عليه قطراً فما أسطعوا أن يظهروه وما استطعوا له نقباً. قال هذا

رحمة من ربي جعله دكاً. وكان وعد ربي حقاً. وتركنا بعضهم يومئذٍ يموج في بعض ونُفخ في الصور فجمعتهم جمعاً.»

أحس محمد وكأن أوان سقوط السد الذي أقامه الاسكندر قد حان، وأن يأجوج ومأجوج سيعيثون في الأرض فساداً. ما أكثر سذاجته في تلك الفترة التي كان يصدق فيها كل ما يقرأه! ولكن القرآن كلام الله يذكر أيضا. فبعد سقوط السور يبدأ سلطان يأجوج ومأجوج على وجه الأرض. ولكن كم امرؤ الآن يشبههم، وكم منهم يخشى غضبهم؟ إذن عليه التوجه إلى روما مثل جيش هانيبال مع الفيلة! وماذا سيحصل بعد احتلال روما؟ إلى متى يستمر كل الدم والدموع؟ كل شيء زائل لا محال. الموت سيطرق الباب عاجلاً أم آجلا. حتى الاسكندر عجز من الوصول إلى الخلود. لم يخلد أحد على وجه الأرض. لا العلماء ولا القديسون ولا الحكام ولا الأنبياء. غمغم في نفسه «أجل، حتى الأنبياء»! متذكراً الاسكندر الذي طاف العالم، وعاش مغامرات لا تصدق. أسقط العروش وفتح المدن، ووصل إلى أقصى نقطة يمكن أن يصلها إنسان على وجه الأرض. ظهرت هناك أمامه شجرة وحيدة. أحس، وكأنه يسمع ما قالته الشجرة السامقة ذات الجذعين «ها قد وصلت نهاية العالم. لم يعد ثمة مكان أخر! استرح، لقد تكبدت المصاعب دون جدوى»!

يعود محمد فجأة إلى زمانه، حياته لا تشبه حياة الاسكندر. فهولا يزال على قيد الحياة والحمد لله. لكنه لم يحقق بعد ما حققه الإسكندر فاتح العالم الذي مات شاباً. يتذكر تمثال جوستينان القابع خلف آيا صوفيا. حيث يقف وقفة الواثق من نفسه وكأنه على وشك أن يحلق بحصانه فوق الأسوار حيث الغيوم، وهو يؤشر بيده اليمنى إلى البعيد وكأنه يشير إلى حدود العالم. الشجرة الوحيدة تقع هناك، حيث انطلقت الحملات البيزنطية، وهبت كالإعصار إلى حيث الجنود ذوي العيون الضيقة. كانت الدنيا بين قباب الجامع وجذور الشجرة الوحيدة. التفاحة الحمراء في يد جوستيان اليسرى. لم يكن جوستيان مجرد هيكل صقيل من البرونز، بل كان رمزاً للسطوة على العالم. ولكن نعم الدنيا لم تدم له كما لم تدم

لسليمان. قام بعد احتلال المدينة بإنزال التمثال معتقداً أن القوة المتمثلة في يده اليسرى قد اضمحلت مع القذائف التي أسقطت قلعة بلغراد.

استوى محمد جالساً بينما خامره شعور بأنه لم يتمكن من إشباع رغباته كما يجب. لربما تعود السكينة إلى روحه تحت قبة الجامع التي قام بإنشائه. وقف لوهلة على عتبة الباب، ورفع رأسه صوب النافذة المطلة إلى الفناء، والمكتوب فوقها بخط الثلث «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم» بهذه العبارة يوجه الثناء والشكر لرب العالمين المنزه من كل الصفات الذي لا أول له ولا أخر الذي خلق ولم يخلق. وهو عبد له مثل شعبه، أضعف من النبي الكريم الذي يحمل اسمه. شعر بالسكينة في أعماقه. نوى أن يصلّي ركعتين لكنه سرعان ما شعر بأنه لم يتوضأ. عاد أدراجه نحو الحوض وصعد إلى غرفته في مدرسة الجامع عبر السلالم المغطاة بقوالب من الرصاص.

* * *

تربع أمام الرحلة الخشبية المرصعة بالأصداف، يقرأ من الكتاب المغلف بورق الغار. كان وجهه يبدو شاحباً على ضوء الشمس المنسل إلى النافذة. كان قد أخرج عمامته، وبدا شعره مبعثراً. كان في هيئته هذه يشبه مدرساً أكثر من السلطان، مدرساً متواضعاً وهب نفسه للعلم. لكن السحب كانت تهتز داخل قفطانه القصير الأكمام. كانت زهور النرجس وأشجار الرمان المنقوشة وسط السجاد الذي يبدو وكأنه نتاج جهد وعرق نقاش ماهر من مدينة بورصة. كان ثمة تناقض بين الجدران البيضاء العارية والقفطان الذي يرتديه السلطان. لأنه يليق بالسلطان في القصر، وليس في فناء مدرسة. لكنه يستحق منذ زمن، وعن جدارة، الرحلة والبسطة التي يجلس عليها. أجل فهو قد اجتاز الامتحان، الامتحان الحقيقي، فقد أخضعه المدرسون للامتحان دون أدنى اعتبار لكونه فاتح استانبول العظيم. قال له رئيس المدرسين دون أن يخشى من سخطه وغضبه:

– مولاي، أطلب رأسي، ولكن لا تطلب مني غرفة خاصة. نحن مدينون لك بالشكر لأنك أهديت لنا دار العلم هذه. لكنني لا أستطيع أن أخصص غرفة لك

لأنك لست بملا أو مدرس.

في الحقيقة لم يكن محمد ينتظر مثل هذا الرد. لكنه احتفظ برباطة جأشه وهدوئه واكتفى بسؤاله:

– ما الذي يجب علي القيام به؟ أريد غرفة هنا. لتكن كيف ما تكون. ولكن يجب أن تكون لي أنا السلطان محمد.

– لو أردت سنخصص غرفة للملا محمد، وليس للسلطان محمد، ولكن عليك أن تجتاز الامتحان أولاً.

نجح في الامتحان. ليس بفضل سلطته أو قوة السيف، بل بفضل علمه. واستطاع أن بذلك الحصول على هذه الغرفة. هو الآن يتلو فيها الكتاب الموضوع على الرحلة الخشبية المرصعة بالأصداف. أمام شمس الربيع الساطعة من زجاج النافذة. يتلو كتاباً ولكن أي كتاب هذا الذي يضم بحر العلوم، وأعذب الكلمات، وأجمل الأفكار عن كرامات القديسين.

كان قد استغرق في قراءة المثنوي، ولو علم المدرسون لا بتلاوته لهذا الكتاب بل بإدخاله إلى مدرسة الجامع، فإنهم سيقيمون الدنيا ويقعدونها. لأنه موضوع نقد في علم الكلام. كان محمد يحب قراءة الرومي. صفحة من هنا وصفحات من هناك. بدلاً من قراءتها من البداية حتى النهاية، محباً في الاستغراق مكتشفاً عالماً جديداً في كل بيت من أبياته، متوصلاً إلى ذائقة مختلفة في كل مرة. حيث يسوح في ترحال طويل لا ينتهي في بلاد الروم، منتقلاً فيها من قرية إلى قرى، ومن مدينة إلى أخرى، عابراً حقول القمح، منتقلاً بين الصحاري على ظهور الجمال وصولاً إلى الهند. ملتقياً خلال رحلته بالسكارى الذين عقدت الخمرة ألسنتهم، والمجانين الذين انطلقوا من عقالهم، وبالحمير التي قلبت الأسواق رأساً على عقب، وبالببغاوات، والتجار، والسلاطين، والعبيد، والبدو، والأنبياء. مطلقاً القهقهات لاعتقاد نبابة واقفة على عيدان عائمة فوق بركة من البول أنها على وشك الغرق، والدببة التي ترقص، والجدي الذي يرد التحية لكل من حوله. والطير الذي يحلق حينما يدلف إلى الخرائب التي يعشعش فيها البوم. يبدو خلال كل ذلك في قراءته

كأنه مسترخ في بستان الورد. ينقلب إلى القروي الذي يداعب ثوره لاعتقاده بأنه تحول إلى أسد أو أنه الرجل الذي يبحث عن بعيره، أو السلطان الذي يمتحن عبيده الذين اشتراهم بثمن بخس.

ينسل إلى العالم المخبوء في المثنوي، وينسى كونه سلطاناً. في شبابه كان يتجول متنكراً في الخانات، يلتقي بالأثرياء والمعدمين والشحاذين. كان الكتاب ذاته يسحبه دون إرادته إلى بلاد الروم وبلاد الهند. يصل إلى ما بعد جبال القاف في الصين. ما أعذب الحكمة المنعكسة في جميع القصص التي تبدو فاضحة.. ففيها، إلى جانب الفكر، بعد صوفي. في الحقيقة المثنوي أثر لا مثيل له. فهو عند بداية دخوله الغرفة هرع بلهفة ملتقطاً كتابه المفضل من الخزانة، ليبدأ بقراءته. ومع أول جملة ثمة سؤال غريب يتعلق في ذهنه: لماذا لا يبدأ الكتاب بالبسملة مثل سائر الكتب التي يكتبها الفقهاء؟ لماذا يبدأ مولانا كتابه بقوله «أصغ» بدلا من ذكر اسم الله؟ إن كلمة (بيشنو) الفارسية، لابد أن تكون كلمة حكمة. لكن هذا المعنى الغامض لا يستطيع تفسيره إلا الشيخ آق شمس الدين. أحس بالأسى لأنه ليس بجواره الآن ليسأله عن السر المكنون في عبارة (بيشنو.) كل الشيوخ في المدرسة إلى جانب كل ما هو ظاهر، وليس الباطن. كان محمد يدرك استحالة العثور على مكان لإطلاق مثل هذه التساؤلات. كان يدرك تماماً أن طريق العلم قائم على أساس إيجاد الجواب لكل سؤال. وأن العقل أكثر كمالاً من البحث عن المعاني الغامضة والسرية. لكنه مع ذلك لم يستطع التخلي عن السحر الكامن في الحروف وتأثير سحر الفكر الباطني. فكر في نفسه بأنه ما دامت كلمة (بيشنو) تبدأ بحرف (الباء)، فلعلها بذلك تحتل محل البسملة التي تبدأ بحرف الباء. الإمام علي، وكل ما في القرآن في سورة الفاتحة، وكل ما في الفاتحة في البسملة، وكل ما في البسملة كامن في بداية حرف (الباء.) وكل ما في (الباء) هو في النقطة التي تحته. ألم يقل أنا النقطة التي تحت (الباء)؟ ألم يدع جبرائيل الرسول في الغار بـ(إقرأ) فلو كان الرسول أصماً، ولو لم يستمع للنداء بشغاف قلبه، أكان الله سيوحي له بالقرآن؟ هل كان من الممكن أن تتولد الحروف في بداية كل سورة في قلب النبي الحبيب؟

اللام، الألف، الميم. لو كان عليّ النقطة التي تحت (الباء) ألا يكون محمدٌ في قلب الميم؟

ترنم محمد بالأبيات الثمانية عشرة التي كتبها جلال الدين الرومي بيده الطاهرة في ورقة أخرجها من عمامته، بدأ بالقراءة. كلما استغرق في القراءة بدا الانبساط على أساريره، وشعر أن الله متجل في كل ما خلقه في الكون:

«كان المصارعون يقفون إلى يسار الحكام
لأن القلب مصدر القوة في اليسار
الكتاب والدفتر دارية في يمين السلطان
لأن القيد والكتابة باليد اليمنى
كان المتصوفة يقفون أمام السلطان
لأنهم مرآة الروح وهم أكثر تجلياً من المرايا
ازدانت صدورهم بالذكر، ليكونوا مظهراً لتجلي الخالق
عليهم وضع المرآة أمام صبي جميل
فالوجه الصبوح يهوى تأمل نفسه في المرآة
أما المرآة، فهي بريق الروح وقوة القلب»

وجد أخيراً الحل في المثنوي! دائماً يكون موضوع جلوسه مثاراً للنقاش. وحينما يُسأل لا يحر جواباً. لكن كلمات مولانا جلال الدين هذه كشفت أمامه سبيل الحل. سيجلس العلماء سواء أعجبهم ذلك أم لم يعجبهم حسب الترتيب الوارد في الأبيات. سجل نصائح الرومي على الورقة، ووضعها داخل حزامه. وواصل القراءة: قصة الفتاة الأسيرة التي تحب صائغاً، وقصص الشيوخ والولاة، مسابقة رسامي الروم مع رسامي الصين، الغراب المعترض على شكوى الهدهد، صداقة الأسد والأرنب، القمر والشمس والنجوم في السماء، الطاحونة والخبز... حقاً إن المثنوي ليس مجرد كتاب بل كنز حقيقي لا يقدر بثمن.

فكر محمد بأن في الخزانة كنوزاً أخرى. قام وسحب الكتاب الكبير من الرف السفلي. وبمجرد فتحه، شعت أمامه دنيا زاهية بالألوان. رغم صفحاته الكبيرة

كان يبدو كألبوم يضم العديد من المنمنمات والرسوم الغريبة واللوحات وحروف من الخشب لم تلصق بعناية. في كل مرة يلقي نظرة فيها على هذا الألبوم تظهر أمامه ساحات الوغى، الأزهار والأشجار. كان لا يستطيع أن يمنع نفسه من التمعن في صورة تتميز عن الأخريات. توقف بعد أن قلب الصفحات بسرعة ليقف أمام الصور التي تحمل تواقيع بقلم أسود سميك. ثمة صورة بشرية منطلقة، شياطين ذات قرون وذيول، وجمال ذات سنام. أحس كلما تمعن فيها بحركة لا تنتهي بين هذه المخلوقات، وهي تخوض المعارك بأقدامها العارية وأيديها التي تحمل شرائط من الشال الأزرق والأحمر. وعيونها تقدح شرراً. وكان بينها من يجري أو يلعب ضاحكاً أو يسحب من ذيل حماره. وفي زاوية ثمة أطفال يسحبون أمهاتهم من أرديتهن، وصاحب حمار يقرب البردعة من فم حماره كي يحصل على كميات كبيرة من روثه. وفي زاوية أخرى ثمة كلاب تمرح مع الخيول، ورجل قنفذي الشعر يغسل ملابسه في إناء. كان ثمة مناظر أخرى إلى جانب هذا المنظر الذي يعكس حياة الرحل مع مخلوقات غريبة. الشيطان بعينه الوحيدة وقرنيه يقود بين ذراعيه حصاناً أبيض يبدو عليه الفزع الشديد. قطرات من الدماء تنبثق من فمه، تبرز من بين شفتيه الغليظتين أسنانه الحادة القبيحة. مخالبه التي تبدو من أصابعه الطويلة مرعبة. ثمة شيطان أخر برداء أحمر، ولحية مدببة يحيط حلقات بأطرافها، يحاول تعذيب حمار مسكين بعصا يرفعها إلى الأعلى استعداداً لإنزال ضربة قوية على ظهره. تنبعث نيران من عينيه الشريرتين، بينما يقبض بيده اليمنى على ظهر حصان. ومن جانب أخر يلف ذيله الظاهر من تحت ردائه الأحمر على ذيل الحمار. وفي الصورة أيضاً ثمة شيطان أخر يحاول أن يمسك برقبة الحمار محاولاً إيقاعه. هو أيضاً له ذيل وأسنان حادة، وثمة حلقات في ساقيه ويديه ربما ترمز إلى الشر أو إلى البشر الذين لم يتغلبوا بعد على أهوائهم وشهواتهم؟

شعر محمد بالفزع متذكراً خطاياه، وهو يتأمل الشياطين الذين يقطعون جذعاً أحمر بالفؤوس من منتصفه.

تذكر الذين قضى عليهم بالتعذيب بعد أن أجلسهم فوق خازوق، والدماء التي أهرقها هدراً. سرعان ما أبعد تلك الذكريات عن ذهنه، وعاد إلى اللوحات التي تصور صراع الخير والشر. في الحقيقة أن صاحب هذا القلم الأسود لهو رسام بارع. شعر بالأسف لأنه لا يعرف موطنه. لم يكن يعرف شيئاً عن حياته، ولا عن المكان الذي رسم فيه هذه الصور. قد يكون رحالاً تركمانياً أو ربما هو درويش يبلع الأفيون. مهما كان الأمر فيجب عليه البحث عنه والعثور عليه كي يسأله لماذا رسم الشياطين ممثلين للقوة والبأس، بينما رسم الملائكة بملامح حزينة وبريئة كالبشر!

انتقل إلى تأمل المنمنمات المرسومة على قوالب خشبية. معظم الصور المرسومة التي تحتها أسماء باللاتينية واليونانية من عمل الكفار. في إحدى هذه الصور، ثمة قرود تتنزه بعضها تتدلى من الأغصان، والبعض الآخر مستلق تحت ظلال الشجرة. ثمة قرود أخرى تمشط رؤوسها الصلعاء أو تدق الطبول أو تتأمل وجوهها في المرآة والقرود ترمز إلى الشر والرغبات غير المشبعة.

واصل محمد تصفح الألبوم. في كل صفحة منه عالم آخر، يظهر أمامه جمال باهر يشع بألوان ساطعة وباهرة. استرعت انتباهه رباعية مكتوبة فوقها اسم عبدالرحيم يعقوبي. وكان جمال الخط وبهائه هو ما جلب انتباهه أكثر من مضمون الرباعية. ثمة على اليسار طيور العنقاء تخفق أجنحتها فوق غصن مائل من شدة الريح، وفي وسط هذه الزخرفة المنقوشة صورته هو «التركي العظيم.» كان يبدو مثيراً للرعب. ابتسم محمد في نفسه وقارن بين صورته الحقيقية وصورته الجانبية. الشبه الوحيد بينهما، هو أنفه أو ربما شفتاه المكتنزتين. كان بشعره المرسل حتى كتفيه يشبه تاجراً من تجار البندقية أكثر من سلطان عثماني. رغب آنذاك أن ترسم له لوحة تمثله عن حق وحقيق. وكان يعلم بأنه ليس بمقدور نقاشي القصر القيام بهذه المهمة. لذلك بعث برسول إلى البندقية. كان راغباً في أن تكون له لوحة تشبه اللوحات التي رآها في منطقة غلاطة ببيزنطة. لوحة تخلد سحنته. لو سمع أق شمس الدين بذلك لما وافق على هذا المشروع. ليكن فهو ليس

مرغماً على قبول هذا التحريم. فهو فاتح بيزنطة مهد حضارة الأيقونات منذ ألف عام، وقصور الموزائيك الذهبية. فهو ليس نبياً أو قديساً بل هو مجرد إمبراطور. والحالة هذه لا ضير في أن تكون هناك صورة تمثل الإمبراطور. أجل صورة واحدة فقط في لوحة توضع في صالة العرض. بعد اتفاقية السلام مع البندقية بعث رسولاً إلى قصر دوكلر من أجل دعوة أمهر رساميها إلى القسطنطينية. لكن ذلك يجب أن يتم في الوقت الحاضر. فثمة احتمال لحرب تبدو في الأفق. لذلك يجب أن ترسم اللوحة قبل إخضاع البابا. اهتدى في أحد الأيام إلى هذا القرار، حينما كان يقلب كعادته صفحات الألبوم المفضل لديه. ستوضع صورته على صدر الصفحة الأولى من الألبوم، وبذلك سيصبح بإمكان أولاده وأحفاده وأحفاد أحفاده في يوم ما من النظر بإعجاب وتقدير له. ولم يكن يعلم آنذاك أن لوحته ستباع بمجرد جلوس ابنه بايزيد على العرش للتجار في غلاطة. لكنه اتخذ قراره وهو متربع أمام رحلته المرصعة بالأصداف. وكان يعلم أن لا عودة من هذا القرار، والذي هو قرار حاسم وشجاع لا يقل أهمية عن قرار فتح القسطنطينية.

* * *

كان العلماء ينتظرون السلطان بعد صلاة الظهر. عندما ولج السلطان إلى الداخل، كانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب. وكانت أشعتها قد بدأت تهبط من الجدار متقدمة صوب الإيوان. لم يكونوا مستغربين من تأخره إلى هذا الوقت. فقد كانوا على علم بأنه ينسى ما حوله بمجرد استغراقه في القراءة.

جلس وكان العلماء واقفين منتظرين أن يحدد أماكن جلوسهم. أومأ السلطان إلى أحد خدمه الذي اقترب منه، وبمجرد ما أن سمع أمره الذي همسه في أذنه، طلب منهم الجلوس في صفوف متقابلة. رفع السلطان البسطة الموضوعة أمامه فجأة. لم يفهم أحد من العلماء سبب هذا التغيير. انتظروا بفضول ليعرفوا من الذي سيجلس أمام السلطان. لأن في ذلك مكان رفيع لكل من سيتم اختياره لهذا الموقع. أمر السلطان بإبقاء البسطة فارغاً، وابتدأ القول:

– أعرف مبلغ حيرتكم. لقد وجدت حلاً. الشخص الذي يستحق أن يجلس

أمامي قد رحل عن دنيانا مع الأسف.

أخرج من زناره حزمة من الورق، وابتدأ بقراءة الأبيات التي سجلها من المثنوي. فهم العلماء المراد. فهو يومئ أن هذا المكان الشاغر هو من حق الشيخ آق شمس الدين. ولتوضيح ذلك فهو قد أختار متصوفاً غير مقبول بالنسبة لهم مثل جلال الدين الرومي. تأمل السلطان لبرهة العلماء بعمائمهم وأرديتهم الخضراء والحمراء والزرقاء. بدا له أنهم يرتدون هذه المرة ملابس فاخرة أكثر من المرات السابقة. فكر للحظة بأنه ولي نعمتهم، وأنهم أثروا بالعطايا التي أغدقها عليهم. حتى الملا كوراني لم يكن يرتدي زيه الذي اعتاد على ارتدائه كل مرة. وكان السلطان يشعر بالمهابة منه لأنه أستاذه. لذلك كان يطلب أن يكون أقرب إليه من الآخرين بخطوة. في هذه المرة أيضاً كان يبدو مهيباً كالقادة بقامته المديدة، ولحيته المخضبة بالحناء. اعتدل في جلسته.

ورأى في يده عصاه التي اعتاد أن يراها في يده اليمنى. هي العصا التي طالما انهالت عليه في قصر مانيسا. أحس بالوجع الذي كانت تتركه ضربات العصا التي نالت منه جزاء شقاوته عندما كان أميراً. تذكر نهر كيديز حينما كان يهرع حول ضفافه على ظهر حصانه عبر الحقول لاصطياد الصقور المحلقة على سفوح جبال مانيسا. بسبب انشغاله باللهو لم يكن يجد وقتاً للقراءة. كان يبدو وكأنه ولد من أجل الصيد والقنص، وليس لتعلم القراءة والكتابة. لم تكن نصائح والده مراد تلقى منه أذاناً صاغية. لم تعد هناك من وسيلة غير العصا. أخذت هذه العصا تنهال على يده كلما أخطأ في تلاوة القرآن. فهو اليوم إذا كان يحب الغوص في محيط الكتب وبحارها فالفضل في ذلك يعود إلى الملا كوراني. فهذه العصا فتحت له أبواب العلم والمعرفة. قبل يد أستاذه وأجلسه على يساره كقائد مظفر.

بعد كوراني، اقترب علي قوشجي من السلطان الذي قبل يده ووضعها على رأسه. لم يكن قد مر وقت طويل على دخوله تحت خدمة العثمانيين. بعد أن اعجب السلطان به وبعلمه حينما كان سفيراً لدولة آق قويونلو.* ولم يكن يتوقع حضوره ايا صوفيا برفقة كوراني. وقد سرّه أنه أنهى مهمته كسفير لبلاده، فبعث الرسل

إلى الخانات في الطريق مخصصاً ألف آقجة* كمخصصات لكل ليلة يقضيها فيها.
لم يكن هذا الكرم بسبب إطلاعه الواسع على علوم الرياضيات فحسب بل لرغبته في أن يسمع منه شخصياً مغامرات اولوغ بك والذي سمع عنها الكثير في طفولته. كان يرغب في سماع قصة مرصد سمرقند من مصدر موثوق مثل قوشجي اوغلو الذي مثل بين يدي السلطان وقدم له آثاره الفتحية والمحمدية، وحظي مقابلهما بالمنح والعطايا من السلطان. تذكر محمد ما حدثه ضيفه عند قبوله له في القصر.

كان قرب حوض القصر وكان ضوء المشاعل ينعكس في تلك الليلة على المياه، كانعكاس ضوء النجوم على بحر مرمرة. كانت ليلة حارة، يلفها الصمت والأضواء التي تبدو وكأنها تمتد من كون آخر مجهول. أما القمر فكان هلالاً. على ضوء تلك المشاعل المضاءة، كان السلطان يصيخ السمع إلى علي قوشجي، وهويحدثه عن

سمرقند وحدائقها وبيوتها وأسواقها وقصورها وأسوارها التي تمتص شمس السهوب. مستعرضاً تفاصيلها بدقة العالم الرياضي. متحدثاً عن سحر المدينة بخيال الشاعر المرهف. حدثه عن عادات وتقاليد بلاده وأناسها. فبلاد ما وراء النهر بلاد خصبة، أناسها مجدون، جنودها شجعان، نساؤها يخلبن الألباب وذلك قبل أن يحدثه عن اولوغ بك. فكم من عالم ترعرع في تربتها التي خصها الله بإحسانه. لم تكن هذه الإيماءات بغريبة عن السلطان الذي كان ينتظر بفارغ الصبر فوق البساط المزدان بالنقوش الحمراء والزرقاء والسوداء حديثه عن اولوغ بك، وأخيراً حانت اللحظة المنتظرة.

بدأ علي بالحديث عن جده الذي لم يكن مقاتلاً صنديداً مثل تيمورلنك. بل كان رجل دولة منح نفسه للعلم والمعرفة. كانت حياته قائمة على أمرين لا ثالث لهما: الصيد، وعلم الفلك. وكان قبل أن يبدأ بتسجيل حركة النجوم، كان يسجل في دفتر صغير مزايا جميع الحيوانات التي يقوم باصطيادها.. حيث نظم أسماء تلك الحيوانات حسب الحروف الأبجدية. شارك أولاً علي قوشجي في رحلات القنص للسلطان اولوغ بك كمرب للصقور. وكان لإلوغ بك دفتر مليء بأسماء الحيوانات المختلفة كالأوز، والكراكي، والدببة، والأسود ذات الأنياب المخيفة، والنمور

الجميلة المرقطة، والغزلان. كان يحبها جميعاً ولا يخفي استغرابه لخلق الخالق كل هذه المخلوقات. ثم ما لبث أن تحول هذا الفضول المعرفي لديه إلى رغبة جامحة في معرفة أسرار الكون. كان يصغي إلى ما يقوله علي قوشجي لكنه لم يكن يستطيع إخفاء لهفته للحديث عن المصير المشؤوم لإولوغ بك.

في أحد الأيام أضاع اولوغ بك، الدفتر الخاص بالطرائد. في الوهلة الأولى أحس بالغضب لكنه سرعان ما استدعى قوشجي الذي بدأ يذكر له عن ظهر قلب كل ما كان مسجلاً في الدفتر المفقود. استمع محمد بصبر إلى الحديث وثناء اولوغ بك على قوشجي لقوة ذاكرته. كاد صبر السلطان محمد قد أشرف على النفاذ والحديث عن مرصد سمرقند لم يبدأ بعد والذي سمع الكثير عن شهرته منذ صباه.

- أهذا كل ما تعرفه عن مغامرات اولوغ بك؟

حدث صمت طويل. كان القمر قد اختفى، والمشاعل قد انطفأت. كان ضوء النجوم هو الضوء الوحيد الذي بقي منعكساً على الحوض. كان محمد يبدو كطالب أمام أستاذه في انتظار الجواب. محاولاً كظم غيظه.

فهم قوشجي مرام السلطان. قال:

- بالطبع ليس ما ذكرته هو كل شيء. فقد حدثت أشياء جميلة، وكذلك أشياء تدعو إلى الأسى. مولاي، في سمرقند اختلط الخير بالشر.

بصوت أشبه بالهمس، بدأ الحديث وكأنه يفضح سراً رغماً عنه. تحدث بداية عن مشاريع اولوغ بك في إقامة المرصد، وعن كده ليلاً ونهاراً في تحقيق حلمه. وكيف إنه تمكن خلال فترة قصيرة من إقامة بناء مهيب ذي ثلاثة طوابق مدورة وثمة سهم من رخام كان تقسم البناء إلى قسمين. وكان ثمة سكة نصف قطرها أربعون متراً يقسم المساحات إلى درجات، وبفضل عربة متحركة فوق السكك يمكن الاتصال ببرج المراقبة.. كان رقبته مفتوحة، ويبلغ ارتفاعه عن الأرض خمسة وأربعين متراً. وكان الأفق وزوايا النجوم يراقب بفضل هذه الآلية الضخمة. كان طرف من الرخام متصلاً بأساس المرصد. أما الطرف الآخر منه

فكان منطلقاً نحو السماء. كانت عينا قوشجي تسرحان حينما كان يتحدث متذكراً أيام إنشاء المرصد. أما السلطان فقد أخذ يصغي إليه بكل جوارحه لما يذكره عن اولوغ بك. وكان الأفق وزوايا النجوم يراقب بفضل هذه الآلية الضخمة. كان طرف من الرخام متصلاً بأساس المرصد.

قال علي قوشجي:

– ربما سمعتم يا مولاي، بأن المنجمين عند ميلاد اولوغ بك، قالوا أنه سوف لن يكون غازياً كجده. بل سيصل إلى أعلى مراتب العلم. وقد صدقت نبؤتهم فقد تبارى في الرياضيات والعلوم الطبيعية مع عالم جليل مثل قاضي زاده. كما أنه صاحب الجدول الخاص بعلم الفلك الذي قدمته إلى مكتبتكم. لقد تكهن المنجمون بأمر آخر، لكنني لا أستطيع البوح به.

لكن السلطان نظر إليه نظرة فهم العالم منها، أن عليه أن يقص كل شيء، وإلا فإنه سيتعرض الى سخط السلطان. واصل علي قوشجي حديثه قائلاً، بأن المنجمين لإولوغ بك بأنه سيقتل على يد نجله الأكبر. وبسبب تصديقه لهذه النبؤة، بدأ بتشديد المراقبة على أصغر أبنائه عزيز، والتصرف بشكل مجاف للعدل تجاه نجله الأكبر لطفي. وعندما شب ولده عن الطوق، ازدادت مخاوف السلطان وتحولت إلى حالة مستديمة من الرعب. لكن كان لابد للقدر أن يتحقق. فقد أعلن لطفي العصيان على حكم أبيه، وأقدم على قتله في مرصده الذي منحه ثلاثون عاماً من عمره حينما كان قد انتهى لتوه من مراقبة محور كوكب زحل. استولى على السلطة من بعده وطرد العلماء من القصر.

سأله السلطان:

– في كم سنة يكمل زحل دورته؟

– ثلاثون سنة يا مولاي.

إذن، زحل هو الذي عين قدر اولوغ بك. في هذه الحالة يمكن معرفة موعد وفاته فيما لو تم مراقبة نجمه.

فكر في تكليف علي قوشجي بهذه المهمة، لأنه لم يكن ثمة عالم يبزه في علم

الرياضيات. ألم يحسب السنة الشمسية بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وست ساعات وتسع ثمان، وقاس على ضوئها درجات الطول والعرض للقسطنطينية ب ٤١ على ٦٠ درجة. كان يعتقد بأن الجداول المعقدة التي أعدها زيجي كوراني بعد وفاة اولوغ بك حول النجوم والكوكب صحيحة. لكنه مقتنع بعبقرية علي قوشجي في الرياضيات والعلوم الطبيعية، بعد أن سأل العلماء الآخرين عنه. كان هذا هو السبب الرئيسي في استدعائه إلى القسطنطينية. ومادام هو تلميذ اولوغ بك فلا بد أنه على إطلاع بعلم النجوم.

كان السلطان قد طلب من الخدم أن يتركوه معه في الحديقة قبل أن يبدأ حديثه عن نهاية اولوغ بك. كانت النجوم تنطفيء في السماء الواحدة تلو الأخرى. وكان قوشجي، يعلم أن السلطان سيطلب منه ذلك. لكنه رغم ذلك لم يكن يعلم بماذا يجب أن يرد على السلطان.

– ونجمي يا أستاذ؟ هل بمقدورك حساب حركته؟

– بالتأكيد يا مولاي لو أمرتم بذلك. لكن ذلك يحتاج إلى وقت.

– كم من الوقت؟

– لا أستطيع تحديد ذلك الآن، ولكن علي مراقبة الجداول.

فكر السلطان عندما كان العالم على وشك تقبيل يده، هل أن عليه أن يسأله عن نجمه فوراً، لكنه لم يرغب في إحراجه منذ اللحظة الأولى. كما أنه ليس ثمة جدوى في معرفة العلماء الآخرين بالأمر. في حين أن نجمته المريخ، كانت آنذاك في برج الثور. نظراً لأن التأريخ هو اليوم السابع من رجب من عام ثمانمائة وثلاثة وثلاثين... ألم يكن سبب طموحاته في السيطرة وحب النفوذ دخول نجمه في برج الثور؟ لو أن له مرصد مثل مرصد سمرقند أو شبيه بمرصد سمرقند لأمر المنجمين في تلك الليلة الدافئة من ليالي الصيف بمراقبة نجمه. كان يعلم أن علي قوشجي لا يحبذ التنجيم، وأنه إنما يفضل رصد حركات النجوم لمعرفة بعض الحسابات. كما أنه لم يمض على وصوله للقسطنطينية إلا فترة قصيرة، وإرغامه على أعمال لا يحبذها غير صحيح. رغب في التسرية عن العالم بقوله:

– سمعت بأنك تنظم الشعر أيضا إضافة إلى كونك عالماً.

ثم ردد أحد أبياته المعروفة بالفارسية:

«هويت حُسن بقال يمسك بالميزان

اقبل أيها الزبون لترى القمر في برج الميزان»

احمر وجه العالم وقال وهو منكس الرأس:

– ارتجل الشعر حينما يحين أوانه.

– بيت جميل، وله معنى. إذن، رأيت القمر في وجه صبي البقال!

– مولاي، لقد أردت التشبيه فقط.

– الحق أنه تشبيه موفق. لقد أكملت علمك بالنجوم بخدمة الشعر. يقال أن هذا البيت يدور على ألسنة الجميع.

لم يعد علي قوشجي يستطيع التطلع إلى وجه السلطان. تلعثم من شدة ما انتابه من خجل.

– ليس صحيحاً ذلك يا مولاي. من يهتم بهذا الجناس الرديء؟

– أن تشبيهك لجمال صبي البقال بالقمر هو عكس ما تقول...

ضحك السلطان دون أن يتمم جملته. لم يرغب في التوقف عند هذا الموضوع أكثر مما يستحق، خشية أن يؤثر ذلك على مكانته بين العلماء الذين انتهزوا الفرصة، وأخذوا يبتسمون منتظرين ما ينتهي إلي الحديث:

– استمر في نظم الشعر فنظم الشعر عبادة.

كان قوشجي يقف بالكاد على قدميه، ولولا أن كوراني أومأ إليه بالجلوس على البسطة لأنهار واقعاً. نادى السلطان الملا لطفي دون أن ينتظر جلوس قوشجي. اقترب لطفي ببطء كعادته وقبل يد السلطان ووضعها فوق رأسه. بادره السلطان بالسؤال قائلاً:

– مابك يا لطفي المجنون، أراك مسروراً؟

– بفضلك يا مولاي. لو تعلم بالكنوز والنفائس من الكتب التي عثرت عليها في مكتبتكم!

– اعرف ذلك. .معروف أن أثمن الكتب هي في الرفوف العليا. كيف وصلت إليها؟ هل صعدت فوق مهد السيد المسيح أيضاً؟

قطب الملا لطفي حاجبيه، وابعد نظراته الزرقاء عنه. إذن لم ينس السلطان ما دار بينهما من حديث. كم يحس الآن بالندم على تلك النكتة السمجة التي أطلقها. كان يعلم الكثير عن حقد السلطان وبداهته، كان يعلم بأنه ينتقم منه لقلة أدبه، وأنه سيعيش أيام رعب. لكنه رغم ذلك لم يتحكم في لسانه. كان مع السلطان في المكتبة الذي طلب فيها منه كتاباً له غلاف مذهب. ولغرض الوصول إلى الرف المطلوب، صعد فوق قطعة خشبية. لكن السلطان سرعان ما نهره:

– أتدري ما فعلته؟ إنك ترتكب إثماً عظيماً.

– ما هو إثمي يا مولاي؟

– ما هو؟! الخشب الذي دسته هو مهد السيد المسيح. وضعته أنا هنا شخصياً، بعد أن أحضرته من القدس وسط مشاق ومتاعب جمة!

أطلق العنان لضحكاته دون اهتمام بنظرات لطفي المستغربة. اعتبر لطفي الحادث غير المنتظر، والمزاح استهانة لكرامته كعالم. رغم أن السلطان كان شاباً، وكان هو في خدمته. لكنه اقتنص الفرصة، وأقدم على تصرف لربما أودت بحياته إلى التهلكة. كان قد تسلل إلى حيث السلطان الذي في المكتبة، وهو يحمل خرقة قذرة، سأله السلطان بحدة عن سبب ذلك؟ قال:

– مولاي، لقد وجدتها في مهد السيد المسيح. أعتقد أنها قماطه!

حار السلطان في البداية لكنه ما لبث أن ضحك. أما سيثأر لكرامته اليوم وإلا فلا. عندما ذكره السلطان بالحادث أحس لطفي بالفزع. لكنه لم يلتمس العفو منه، بل ظل واقفاً أمامه. أمره السلطان بالجلوس إلى جانب علي قوشجي. أن عاقبة هذا الصبي المجنون لن تكون بنهاية أجله، أو بيد العلماء. كان السلطان يعلم أن أغلب العلماء لا يودون لطفي. كما أن أغلبهم في صراع مستديم بين بعضهم البعض. فهم قد يوشون ببعضهم إلى رجال الدولة، ومنهم من يترك البلاد حينما يخاصمون السلطان. لم يكن معجباً بعلمهم وفضولهم للنقاش. فثمة نقاش استمر ستة أيام

بلياليها مع الملا زيرك الذي ادعى بأنه أوسع علماً ومعرفة من الجرجاني لكنه رغم مهارته في النقاش استسلم لمناقشيه. ولم يسمح السلطان الذي كان حكماً بين المتناقشين للملا زيرك أن يذهب عند احتدام المناقشة لإلقاء نظرة على ملاحظاته. الأمر الذي حز في نفسه ودفعه لترك مدينة بورصة. ولم يعد رغم إلحاحه، مؤكداً بشجاعة أنه لم يعد ولي نعمته بل تاجر من بورصة ينفق عليه.

أومأ السلطان إلى خوجازاده الذي تقدم، وقبل يده، وجلس قريباً من الملا كوراني ثم تقدم الملا خسرو مبسملاً، وجلس قرب خوجازاده. نظر إليه السلطان بمودة فهو لم يتركه حتى في أيام منفاه بمانيسا. لقد نال منه المشيب، وبطأت حركاته. يرافقه طلابه من بيته كل يوم على ظهر بغل ويحضرونه إلى المدرسة. لم تبق منه قوة حتى للإمساك بزمام البغل. لكنه رغم ذلك أصغى واقفاً إلى حوار طويل دار بينه وبين خوجة زاده حول المد والجزر. كما ناقش العالم السمرقندي حول وضع القمر في الحلق. لكن الملا خسرو لم يكن متفوقاً في الرياضيات كما هو في الفقه وعلم المنطق.

تذكر السلطان بتأثر هذا العالم الجليل الذي لا يزال يصر أن يكنس بنفسه غرفته، ويشعل قنديلها بتواضع جم لأنه لم يجلسه على يمينه. على كل حال لقد نجح في حل المشكلة، بإجلاسه الملا خسرو الذي أقبل قبل لحظات أمامه، وليس على يمينه. رغم أنه كان يتحتم عليه إجلاس علي قوشجي، وكوراني أمامه أيضاً.

أحس بالسأم. فما يتعلق بأمور التشريفات يبعث على الضجر حقاً. ليتأثر من يتأثر فالأجدر بهم أن يبدوا نفس الحساسية في النقاش والجدال.

نظر السلطان صوب الباب، كان محمود باشا في مكانه المعهود. واقفاً كعادته دائماً على قدميه. فهو الوحيد الذي لم يجلس بعد. وهو سيظل واقفاً حتى لو بدأ النقاش، لأنه رغم عزيمته وعلمه وكونه ركناً من أركان الدولة. فقد خاض حروباً عديدة، وكم من مرة رجع من هاوية الموت. فهو يجلس إلى جانب العلماء حينما يدعوهم إلى مائدته، ويتأمل بشغف وهم يلتقطون القطع الذهبية المنثورة في أطباق الرز المخلوط بالحمص ثم يضعونها في أكياسهم. لقد تجاوزت شهرة هذه الولائم

أرجاء الإمبراطورية. لكن الحظ كان يبتسم للمحظوظ في هذه الولائم، وليس لمن هو أجل وأكبر علماً من الآخرين.

أجال السلطان عينيه في وجوه الحاضرين، وطلب من محمود باشا الذي يقف على مقربة من الباب أن يفتح باب النقاش. كان الموضوع مثيراً هذه المرة: اختلاف وجهات النظر بين الإمام الغزالي وابن رشد. وسيتم الإعلان عن النتيجة بعد الاستماع إلى حجج الطرفين.

بعد إعلان محمود باشا عن الموضوع، بدأ خوجازاده بالكلام لكونه كتب رداً على كتاب ابن رشد (تهافت التهافت) والذي كتبه عن كتاب (تهافت الفلاسفة) للغزالي. كان يبدو أن النقاش سيكون حامياً. لأن الطرفين اعدوا عدتهم لخوض غمار النقاش، ومقارعة الحجة بالحجة. ولم يكن واضحاً من الذي سيفوز.

* * *

حينما خرج السلطان من المدرسة متجهاً صوب الحوض، كان مرهقاً وتعباً أكثر مما يجب. فقد استمر النقاش حتى الصباح دون الوصول إلى اتفاق. كانت اللذة التي يحس بها طوال فترة النقاش لا تشبه ما تبعثه في نفسه قرقعة السيوف أو بلوغ أوج اللذة الجنسية. كان إحساسه بالإرهاق الذهني أكثر من إحساسه بالإرهاق الجسدي. رغم ذلك كان يعد نفسه في قمة السعادة. في الحقيقة أن الطرفين كانا في منتهى المهارة والحذق في النقاش. فكلاهما كان يمتلك الحجة، والقدرة على الإقناع. لكنه عند العودة للنقاش كان يرى أنصار الغزالي في المقدمة. أسند ظهره على الجدار تحت الشمس الربيعية، وفكر بأن الحياة ما هي إلا تكرار التكرار! حروب، انتصارات، فرح وهموم متعاقبة. ثم يبدأ كل شيء من جديد. حروب، انتصارات، فرح وهموم. كانت الشمس التي أشرقت قبل قليل تضيء صحن الجامع. سترتفع الشمس بعد قليل فوق القباب وتنخفض وراءها، وتغرب من جديد، ويهبط الظلام على الفناء. لربما سيضيء بريق النجوم اللامعة مياه الحوض، وعواميد الرخام. ثم تعود الشمس من جديد. تغيب مرة أخرى، ويواصل هذا الفناء القابع في الصمت والظلمة واقعه. لم يجلس هذه المرة قرب الحوض.

ليس بالإمكان تغيير انسياب الزمن الذي يكرر ذاته. لكنه يستطيع تغيير سلوكه وعاداته اليومية. يستطيع مثلاً أن يتوجه قبل الانتقال من المدرسة إلى أي مكان أخر ليخلو إلى نفسه في صمت النهار الوليد.

بعد أن خرج من صحن الجامع، أبصر المسامير الموجودة قرب إحدى المنائر. كان التصميم من عمل قوشجي فهذه الدقة لابد إن تكون عائدة له. كانت الخطوط المرسومة داخل الرخام الممتد في القاعدة نحو وسط المركز قرب القاعدة الواقعة في القسم الجنوبي الشرقي، وفي بداية أحد الخطوط المقتربة من بعضها البعض ثمة أرقام هندية مكتوبة باللون الرصاصي. أما في نقاط الخطوط المقتربة من المركز فثمة مسامير تلقي بظلالها على فراغ القاعدة الممتدة حتى الأرقام الني تكشف الوقت. وبذلك يمكن معرفة الساعة. ولو تسنى له أن يفكر أربعين عاماً لما اهتدى إلى هذه الفكرة. يجب قياس الزمن، ولكن كيف؟ لقد صنع قوشجي آلة تدور مع حركة الشمس. وهي أكثر دقة من الساعة الرملية، وأكثر فائدة. أجل كل شيء يكرر نفسه. الأيام تلاحق الأسابيع، والأسابيع الأشهر، والأشهر المواسم، والمواسم السنوات. كل شيء في حالة حركة. الأنهار تنساب، الميلاد يلاحق الموت، النمل يدب على الأرض، والطيور تحلق في السماء تأتي وترحل، القمر والشمس، النجوم والأجرام تتسابق فيما بينها. يجب معرفة أسرار هذا النظام، وفهم حركة الكون وقياسه ومن أجل القياس يجب معرفة الرياضيات واستعمال العقل. بدأت ظلال المسامير بالإستطالة. كان الوقت مبكراً. ربما هذا الضياء ليس منبعثاً من شمس النهار بل هو كامن في الرخام. رغب في تلك اللحظة أن يكون كل شيء فيه شفافاً كالمياه المنطلقة من الحوض، وأن يتجرد من شروره. كان الزمن ينساب من أعماقه، وكلما انساب، كانت الأحزان والندم والهموم تقبع في القاع وتتراكم. وجود مثل هذا التراكم كان يضايقه. لم يكن ثمة نهاية للرغبة والنفوذ والعلم. لكن العلم يبقى أجمل من النزوع إلى النفوذ. هذا الصباح يبعث السكينة والطمأنينة في النفس. تذكر ذلك الصيف الجميل الذي بقي في طيات الماضي.

تذكر يوم دخول اميروترس عند عودته من حملة بونتوس. يالها من أيام جميلة

وهادئة. عاشا في غرفة مكتبة القصر أياماً عذبة، بعيدين عن الحروب والموت والآلام. قاما معاً بتدقيق خريطة بطليموس محددين ليس حدود العالم فقط، بل الكون. فقد قاما بتحديد حدود النجوم والذي تمكن العالم بطليموس من خوض غمار عالمها المعقد، الغامض. كان يورغوس عالماً بكل معنى الكلمة. حسناً فعل حينما تصرف إزاءه كأقرب المقربين إليه وليس كأسير. يقع العالم في وسط السماء. والشمس، والكواكب السيّارة الأخرى تدور في محورها. والنجوم التي تقف ثابتة بأشكال مختلفة تدخل في أبراجها وتخرج. الأرض كروية. وهي رغم الجبال، والتلال والعوائق دائرية. لأنها ضخمة جداً. قام كل من علي قوشجي واولوغ بك بقياس محيطها. وفي وسط الأرض المحاطة بالمحيطات هناك البحر الأبيض وفي جوارهما بلدان ومدن. من بين هذه المدن القدس مركز العالم، والقسطنطينية المركز الثاني. بعد احتلاله لبيزنطة أقام عرشه في منتصف العالم. وفكر بأنه قد اكتسب بذلك لقب إمبراطور العالم. لكنه خلال وجوده في جنوة علم من البحارة، أن ثمة أماكن ومحيطات في العالم غير موجودة في جغرافية بطليموس. ربما لن يكون هناك في الطرف الغربي من نهاية المحيط زبانية الجحيم، ولا أسماك طائرة، بل ثمة بلدان جديدة، وبحار أخرى، وأُناس آخرون. عند التوجه صوب الغرب، فإن المحيطات ستتوجه إليها. والبحر يبدو بلا نهاية. ولكن يجب أن تكون ثمة نهاية للبحر. حدثه يورغوس عن استعداد ملوك البرتغال وأسبانيا للوصول إلى الشرق عن طريق آخر لذلك بدؤوا منذ زمن يعدون سفنا لهذا الغرض.

قال له «مولاي! اقطعوا طريق الحرير والبهارات عنهم. فسيضطرون للبحث عن طريق آخر.»

في الحقيقة لم يكن ثمة نظير لهذا البيزنطي في علم السياسة إضافة إلى علمه في الفلسفة والجغرافية. لواسلم، وكُلف بمهمة في إدارة الدولة العثمانية، فإنه سيخدم العثمانيين خدمة مهمة. لكن السلطان كان لا يؤمن بإرغام من يعتنق ديناً على القبول بالإسلام ديناً. لذلك ترك يورغوس حراً في معتقداته. واكتفى بفكرة تكليفه بترجمة كتاب جغرافية بطليموس إلى اللغة العربية. وهو وإن فكر بذلك فإنه

لم يفصح صراحة عن رغبته هذه. إلا أنه يشعر بالسعادة عندما يفكر مع يورغوس بالأنهار، وتفحص الجبال والبحار، والتفكير بالبلدان النائية التي تعيش فيها دببة زرقاء، وقطط خضراء ووحوش تنفث النيران من أفواهها، وأقزام ذوو رأسين وثلاثة أذرعه وأربعة أقدام.

كان يقف قرب الساعة الشمسية وحيداً. لم يكن يشعر بالنعاس رغم سهره مع العلماء يستمع إلى مناقشاتهم لكن الإنهاك الذي كان يشعر به في جسده، كان لا يزال مخيماً عليه. فكر في العودة إلى الجامع والصلاة مع العلماء. لكنه سرعان ما تخلى عن ذلك. في حين أنه كان يتوق إلى لقاء الله. كان ذلك شيئاً غريباً ينتابه أحياناً

فهو يتطلع أحياناً لمناجاته بخشوع، ومن جانب آخر يود نسيانه والتهرب منه. ألم يفعل ما فعل باسم الله. أليس هو ظله على الأرض. عبده وظله في آن واحد؟!

بلغت الساعة الشمسية سطح الرخام من جديد. أبصر الدم المتخثر على السطح الأبيض الذي لم تبلغه الظلال بعد. دبت الحياة في يدين قطعتا من الرسغين. يدا المعمار سنان. كانت الدماء تنهمر منهما وتتخثر فوق الرخام البارد. دعك عينيه. أجل إنهما يدا المعمار يوسف سنان. تقفان هناك في الهواء مثل نقش جميل.

أصابع إحداهما متقلصة من الألم. لم يشعر بأدنى درجة من الألم حينما أمر بالقبض على المعمار وأمر بقطع يديه كان يرى سنان مذنباً. فقبة الجامع الذي قام ببنائها ليست أضخم من قبة آيا صوفيا رغم استغراقه في البناء عشرة أعوام، وصرف أموال طائلة في سبيل ذلك. ليس من خزينة الدولة بل من الضرائب. لذلك فعندما أمر بقياس القبة وحدها وجدها أقصر من قبة آيا صوفيا، وعندما علم أن ارتفاعها أقل أيضاً منها بكثير، جن جنونه، وأمر في سورة غضبه بإحضاره على الفور للمثول بين يديه. لم تفلح مبررات سنان في تهدئته، في أن إضافة العواميد وتوسيع القبة ستزيد من احتمالات انهياره أثناء وقوع الزلازل، لذلك اضطر في اللحظات الأخيرة إلى تقصير طول العواميد، وفضل بدلاً من ذلك تخليد اسم السلطان بدلاً من كون الجامع الذي يبنيه أكبر من آيا صوفيا. لكن السلطان

صرخ بغضب «اقطعوا يد هذا الملعون فوراً»! وعلى الفور نفذ الجلاد أمر السلطان. قطعت يداه، وألقيتا على الفور أمامه. أما الآن وقد هدأ سخطه فهو يبصر يدي سنان حيث تختلط دماؤهما بأسس البنايات التي لا تحصى والذي قام ببنائها. من يدري سيتذكر الناس هذا البناء ليس مقروناً باسمه بل باسم سنان. يتذكرون سنان الذي شمخ بالقباب والنقوش والزخارف إلى عنان السماء.

سيلهجون لذكراه بالدعاء، ذكرى المعمار العظيم الذي جعله معاقاً، عاجزاً عن العمل ثم قتله بالتعذيب في غياهب السجن. آنذاك ستركن أرواح العاملين معه ليل نهار إلى السكينة. أحس بالندم ينسل إلى أعماقه مثل انتشار بقع الدم فوق الرخام. يحس بالمرارة لأنه لم يكبح جماح غضبه العاصف في تلك اللحظة. مع شروق الشمس، ابتعد عن مكانه حينما بدأ ضياء الشمس يغمر الجدران. كان كمن يود نسيان ما حدث. وما أن ابتعد حدث ازدحام على الحوض. بعد قليل سيقف الطلبة والأساتذة والمناقشون من العلماء لأداء الصلاة وسينطلق من تلك القبة حتى لو كانت أصغر من تلك التي في آيا صوفيا نداء «الله أكبر» مدوياً.

---

* الحركات التي يؤديها الدراويش عند رقصة السماح التي تعتبر جزء من الطقوس المولوية.
* القصائد لمولانا جلال الدين الرومي من ديوانه (الديوان الكبير)
* آق قويونلو: دولة أنشأها التركمان في الأناضول الشرقية والعراق وايران (١٤٦٨-١٥٠٨)
* اقجة: عملة عثمانية. أُلغي تداولها في ١٨١٨ وتعني بالمغولية (العملة المعدنية). «المترجم»

تفيد بعض المصادر، أو بالأحرى بعض الأساطير، أن المعمار يوسف سنان قد أقام دعوى ضد السلطان. وهذا شيء جميل بالتأكيد. رئيس المعمارين يقدم السلطان للمحاكمة، ويسأله الحساب لأنه قطع يديه دون وجه حق. فكرت للحظة. إن القاضي لابد وأن أصابه هلع كبير لاضطراره الى محاكمة السلطان. يقف السلطان محمد الفاتح أمام القاضي مبتسماً، مرتدياً ملابس عادية. يسأل القاضي المعمار أولاً:

- أصحيح بأنك أقمت دعوى ضد مولانا السلطان؟

يتدخل السلطان مصححاً ما قاله القاضي:

- لا تقل السلطان. بل قل ضد محمد ابن مراد.

لا يَصدق القاضي ما تسمعه أذناه. إذن لا فرق أمام القضاء بين السلطان والعبد. فهو عندما دخل القاعة خلع عنه قفطانه وزيه الرسمي. إذن كل شيء ممكن في بلاد آل عثمان. في حين أن السلطان هو واضع القوانين ومطبقها. وهو ليس مرغماً أن يقتسم نفوذه وسلطانه مع أحد. إذن هو ليس فوق القانون!

حوقل القاضي مستغرباً داخل جبته.

- صحيح يا سيدي القاضي. شكواي هي ضد محمد ابن مراد.

- حسنا. لماذا يا ملعون؟

- قطع يدي دون وجه حق.

التفت القاضي صوب السلطان متلعثماً:

- مولاي...

نبهه السلطان محذراً للمرة الثانية، فاستدرك القاضي خطأه:

- محمد بك، لقد سمعت المدعي فبماذا تتفضل للدفاع عن نفسك.

- هذه محاكمة، ولا يقال للمتهم تفضل!

واصل محمد حديثه دون توقف وسط دهشة واستغراب القاضي.

– أجل لقد أخطأت. المعمار على حق.

أوشك القاضي على العجز عن الكلام. إنه يحلم بالتأكيد. ود من الأعماق لو يطول الحلم ولا ينتهي. قال القاضي لرئيس المعمارين وهو يتمنى أن تنتهي الجلسة قبل لحظة:

– حسنا. وماذا تريد مقابل يديك؟

– القصاص! رد يوسف سنان بحزم. أريد القصاص.

ثم وقف مستدركاً للحظة، حيث التمعت عيناه:

– كلا، كلا.. لا أريد القصاص يا سيدي القاضي! فالقصاص لن يعيد لي يدي المقطوعتين. فيدا محمد ليستا بضروريتين لي. لأنهما تمسكان بسيف الإسلام، وتحميان الدولة. المهم أن محمد اعترف انه أخطأ بحقي، وهذا يكفيني. لا أريد شيئاً أكثر من ذلك.

تنفس القاضي الصعداء. وقال دون أن يتلعثم هذه المرة: تستطيع الآن الذهاب!

ما أروع ذلك. لكنه ليس الحقيقة. فأنا أعلم أن المعمار يوسف سنان قتل في سجن مظلم تحت التعذيب. كل المصادر الموثوقة تؤكد ذلك. ولو صدقت بهذه الأسطورة المزعومة، فإن ذلك سيعد استهانة بذكرى المعمار سنان. فالجامع الذي أنشأه لا يزال قائماً حتى يومنا هذا. بينما لا يزال ضريح السلطان محمد الفاتح، وضريح المعمار سنان غير واضحي المعالم. جلست في باحة الجامع، في ظلال العواميد التي أنشأها بيديه الماهرتين أجل لن أهين ذكراه بعد قرون عديدة. كما أنه ليس المطلوب مني الانتقام لذكراه. لماذا قطع السلطان يديه؟

سأتحدث عن جواب هذا السؤال. يكفي أن أواصل الكتابة إنني لا أضيف إلى (قاطع البسفور) الحقائق التاريخية والأساطير بل ما يذكره الناس. ولكن تركي محمد في هذا الموضوع يعاني من عقدة الذنب هو أفضل حل. ولكن هل أحس السلطان محمد الفاتح بالندم؟ بالتأكيد شعر بذلك، لأنني ذكرت ذلك.

لم يمر يوم من أيامي دون كتابة، حتى في الأيام التي نزلت فيها إلى المدينة رافقتني حكاية «قاطع البسفور.» جعلتها ترافقني في جولاتي بالأزقة تحت شمس

أيلول، وفي الباخرة، ومواقف الباصات، والمقاهي التي ارتدتها، والمنضدة التي جلست عليها في المكتبة. وتأملت من زاويتها صخب المدينة، والحركة المستمرة التي لا تعرف الهدوء. واصلت جولاتي في أزقة استانبول التي سبق وأن تجول فيها السلطان متنكراً، وفي الجوامع التي أنشأها والكنائس البيزنطية التي حولها إلى جوامع، والقصور، وقنوات المياه والأسواق المسقفة التي أحاطت بكل جانب من جوانب المدينة، والخانات والحمامات مثل موظف يعمل في دائرة الطابو. كانت حكاية (قاطع البسفور) تتفرع في داخلي إلى فروع وغصون مثل شجرة دلب معمرة. كنت أخشى أن تظل جذور الرواية ضعيفة مثل جذور شجرة قوق. دون أن تتمكن من مد جذورها في الأغوار مثل شجرة الدلب.

ازدادت ثقتي بنفسي كلما توغلت في الكتابة. ولن أدعي أن الدنيا قد تحررت من عقدها بسبب ذلك. لكن (قاطع البسفور) سرعان ما سحبتني إلى واقعها، ونفذت نهجها مثل حاكم جائر. صحيح خضعت لهذا النهج ولكن ليس دائماً.

لم يحدث أن قضيت يوماً دون كتابة. لكن ثمة لحظات مرت دون أن أكتب فيها. مثل لحظات استلقائي على السرير، وتأملي لزرقة البحر المنعكسة على السقف مثلاً في ساعات الصباح المبكرة. كانت المياه تتحرك عند انبلاج النهار، وتمتلئ الغرفة بالبحر. وعند حلول الظلام، كانت الأشياء ترحل في حال سبيلها. كنت استغرق في التفكير في أمور غريبة، وأرى وجوهاً حزينة. كان وجه أمي المستدير الأبيض يقترب ثم يبتعد عني. لو أشعلت الفانوس الذي قرب رأسي فإن كل شيء يرجع لسابق عهده. عند إشعالي للفانوس كان الظلام يهبط بقوة. غالباً ما كنت أتكاسل للقيام بإغلاق الستائر. ثم استغرق في نوم عميق. أو أظل أتأمل حركة البواخر التي لا تهدأ في غروب الشمس. وينساب الزمن لدقائق.. هذه اللحظات كانت كافية لإعادة التوازن بين الكتابة وعالم الحقيقة. كان يبدو لي أن الحقيقة التي نعيشها ليست مستمرة. فهي تتناثر ثم تعود لتعيد نفسها مثل نافذة مفتوحة على عالم غير حقيقي.

في مرة حينما كنت عائداً بقدح الشاي إلى غرفتي ذات الشناشيل، لم أر البسفور

في محله. كانت النافذة التي في زاوية الغرفة خالية. لون الغروب سائد في الخارج. كل شيء باللون الأحمر. كأنه لوحة رسام متطرف في الواقعية يرسم بلون واحد، وينتقل به من لون إلى أخر. هكذا كان يقف أمامي قريباً وبعيدا في نفس الوقت. وفجأة ظهر شراع سفينة ثم سفينة أخرى وأخرى، وكأنها تتسابق فيما بينها. وحينما كانت ثمة سفينة تدخل في إطار النافذة تظهر أخرى. وكانا أحياناً يظهران في نفس الوقت. لم تكن القلعة هناك. بل احمرار مغيب الشمس، وثمة نورس أعرج يصفق بجناحيه في الفراغ، لأنه يقترب من النافذة، ويجثم قربها ملتقطاً بمنقاره فتات الخبز من كفي ثم ينطلق صوب مرأب قوارب الصيادين. ظهرت على صفحة البسفور باخرة قديمة، وظهر بعدها قارب يتحرك وهو ينطلق بتثاقل يرافقه قارب صيد، وقارب خفر السواحل، وقارب أخر محمل بالفحم، وباخرة للركاب. اقترب قارب خفر السواحل من قارب الصيد لكنه ظل داخل إطار النافذة. بقيت الباخرة فترة ثم اختفت مثل نجمة هاوية. لم أر القارب الذي ظهر في النافذة مرة أخرى.

بعد أن اختفى جميع القوارب، انطلق سرب من السنونو بسرعة متجهة من اليسار صوب اليمين. لم أر القلعة في مكانها. اقتربت عدة خطوات. اتسعت أبعاد النافذة. ظهرت في الغروب تلال الضفة الأخرى ثم ظهرت القلعة. ربما هذا الذي خرج من البحر أمام القلعة، كان حصان البحر الذي يغطي فمه الزبد. اصطفت أرواح الموتى الراقدين بمقبرة آشيان ثم دخلت من هيئة إلى أخرى. ارتفعت أبراج القلعة نحو السماء، واحتلت أماكنها في قلب الاحمرار. كانت ذات ألوان بنفسجية وسوداء ورصاصية. ومثل خيول مجنحة دخلت في سباق طويل ومحموم. آنذاك عرفت أن الغيوم تتناثر بسرعة في ظلمة المساء. كانت تمر من منخفض وكأنها على وشك الاصطدام بأبراج القلعة. كانت تبدو، وكأنها تهرع مع موجات الرياح لفتح القلعة. ثم اصطفت جنباً إلى جنب مثل خيول أصيلة. جلست على مكتبي وأشعلت الضوء. تناولت رشفة من الشاي، وبدأت بكتابة قصة حصار استانبول، والقسم الذي يتحدث عن محمد الفاتح.

هذا الجزء يتناول حصار وفتح استانبول

«قال السلطان:

منذ عهود قديمة، ارتسم طيف في مرآة قلبي المشعّة يقول (...) بانه مقدر أن يتم فتح القلعة على يدي، حتى لو لم تكن أبراجها وأسوارها من الحجر والتراب، بل من الحديد الخالص فإنني سأنيبها بقوة غضبي وعزيمتي مثلما تذوب الشموع»!

(فتح نامة استانبول المحروسة، جعفر حلبي)

في صباح خريفي اجتمع مجلس الدولة. كان هذا الاجتماع مختلفاً عن الاجتماعات الأخرى. كان قد تم استدعاء أركان الدولة، وتم اتخاذ التدابير القصوى حول القصر. كان السلطان غارقاً في التفكير كعادته. لكنه رغم ذلك كان يبدو أكثر تصميماً من المرات السابقة. كان مرتدياً ملابسه التي اعتاد على ارتدائها في المناسبات الرسمية. كان للؤلؤة الموضوعة على عمامته بريق ساطع. كان النهار على وشك الانبلاج، وكان السلطان بجلوسه متربعاً على العرش، يبدو من خلال الضوء المنسل من النافذة مثل تمثال بوذا. وكان خنجره المرصع بثلاث قطع من اللؤلؤ يظهر من خلال ردائه المصنوع من جلد الثعلب. كان يبدو على مظهره إصرار غريب منعكس بوضوح على حركاته.

لم يغب كل ذلك عن عيني خليل جاندرالي. كان يعلم أنه دعا الجميع للاجتماع بسبب حصار القسطنطينية.

فهو لهذا أيضاً دعا إلى جانب قادة الجند، قائد البحرية سليمان بلطالي اوغلو، وقائد الإنكشارية مصطفى بك الذي كان يقف مثل رمح مغروس في الأرض. كان جاندرالي يجلس في يمين السلطان باعتباره الوزير الأعظم مرتدياً عمامة مرقطة لكنها أقصر من عمامة السلطان. أما بقية الوزراء شهاب باشا، صاروجا باشا، زاغنوس باشا، وسادة روملي، والدفتردار فكانوا يجلسون على مقربة من الملا كوراني. بينما كان بكوات الأناضول، واسحاق باشا واقفين. بينما كان أق شمس الدين يقف على يسار السلطان، والشيخ أق بيبق. وهم على أُهبة الاستعداد لدعم معنويات السلطان بالأدعية والصلوات. كانت أفواههم لا تظهر من خلال لحاهم الكثة.

كانوا سادة خراسان الذين ليسوا من عباد الله فحسب بل أفراد يتفاءلون بالخير دائماً، ويسيرون بين الأرض والسماوات السبع الطباق. كان خليل يتوقع تشجيعهم للسلطان الذي يبدو مصراً على فتح القسطنطينية كاشفين عن ذلك من خلال عدم مشاركتهم في الحديث، دون ذكر للقرآن والحديث. يقفون بصمت،

وكأنهم في عالم الغيب.

كان الصمت مخيماً على الجميع. صمت ثقيل ألقى بكاهله على الديوان. نظر خليل إلى السلطان الذي كان يحاول أن يبدو وقوراً، وأكثر خبرة، وحنكة مما يتطلبه عمره. كان يحدق في نقطة مجهولة، منتظراً المزيد من الصمت حتى يحدث ما سيتكلم عنه تأثيره المطلوب. لم يستغرق الانتظار طويلاً. فتح محمد فمه بمهارة المهرج الذي ينفث النار من فمه، بدا في حديثه قلق لم يكن مناسباً لإصراره. كانت الكلمات تتساقط من فمه مثل قذائف المدافع النارية.

– منذ مدة طويلة، وعهد بائد ارتسمت في مرآة قلبي، وضميري ما دعوتكم للحديث عنها.

أدرك خليل صحة ما توقعه. آق شمس الدين، تمكن إذن من إقناع السلطان بأن القسطنطينية ستفتتح من قبله إذن لابد من الحصار فقد رسم محمد في مرآة قلبه صورة، وهو الآن يريد أن يكشفها للجميع.

مهما كان المرء عالماً، وذكياً، ومهما منحه الله من الذكاء، وحتى لو أوحى الله إليه بشيء، فإنه يستشير الآخرين قبل الإقدام على اتخاذ قرار هام. هكذا كان يفكر محمد. فعندما كان يكشف عن أفكاره كان يراقب تأثيرها على الآخرين. حسب الموقف كان يرفع صوته، ويتأنى في اختيار الكلمات، ويقيس وقعها على السامعين. بعد إنهاء حديثه، يطلب من الجميع إبداء آرائهم. لكنه لم يطرح الموضوع مباشرة، ولم يطرح وصف الصورة التي في قلبه. عاد إلى عهد الرسول مذكراً بوحدانية الله، وأن الدول فانية، وما البقاء إلا لله. تحدث عن أجداده الذين جعلوا سيف الإسلام مشرعاً، وذكر أن الدولة التي أقاموها فوق أراض شاسعة هي دولة العدل. وكلما استطرد في الحديث، كانت مغامرة العثمانيين تنساب كالنهر من أمام عيني جاندرالي. كلما تحدث عن نجاح العثمانيين كعشيرة صغيرة في اكتساح أرض الروم، واحتلالها قارتين في آن واحد، كان جاندرالي يسرح بخياله في سهوب بورصة، وجسور أدرنة، وقصورها، وبحر إيجة، والسهول الممتدة حتى أعماق الأناضول تحت قرقعة السيوف، وسنابك الخيل في

غروب الشمس الدامية، والحملات المستمرة صوب الغرب دائماً. كان يجب أن تكون ثمة نهاية لهذه الطرق. وإلا أمن الممكن أن لا تكون هناك نهاية لهذه الطرق، والأهداف؟

عاد خليل إلى واقعه. كان مع أركان الدولة في ديوان الهمايون. وكان السلطان الشاب يستعد لاحتلال القسطنطينية، ووضعهم على شفير هاوية فقدان كل ما حققوه من انتصارات، ومكاسب حتى الآن. باعتباره رئيساً للوزراء، فسيمنحه السلطان بعد إنهاء حديثه فرصة إبداء رأيه. آنذاك سيعمل على تخليه عن قراره هذا.

هذه فرصته الوحيدة.

بعد حديثه عن سلفه الصالح، بدأ بالحديث عن القسطنطينية كبؤرة فساد ينبغي احتلالها. لأن هذه المدينة تقف بمثابة جرح في لقب مملكته، ولإنهاء الوجود البيزنطي أصبح الفتح قدراً محتوماً. لأن البيزنطيين يحاولون وضع العراقيل أمام حركة المرور بين منطقتي الأناضول وروملي، كما يعملون دائماً استغلال وجود أمير عثماني كرهين لديهم كذريعة للعديد من تحركاتهم.

لم يستطع السلطان أن يفسر خلال حديثه الطويل، مغزى الصمت الذي كان مخيماً على الجميع. فهو يريد اتخاذ قرار حصار القسطنطينية بالإجماع. التفت إلى خليل قائلاً:

– معلمي لماذا تصمت! صحح كلامي إذا كان فيه ثمة خطأ.

– كل ما قلته يا مولاي حقيقة لا ريب فيها. العثمانيون وصلوا إلى ما وصلوا بفضل جهاد أجدادك الأبرار. القسطنطينية فعلاً بؤرة فساد في قلب دولتنا. وهي حجرة عثرة أمام تحركات جيوشنا.

توقف للحظة، ولاحظ أن السلطان يصغي إليه باهتمام. واصل حديثه بصوت متهدج:

– مولاي القسطنطينية مدينة جميلة، لا مثيل لجمالها، ومناخها، وكنائسها المليئة بالنفائس من الذهب والفضة. لكنها محاطة بأسوار عالية. وهي قد

حوصرت عدة مرات قبل الآن، لكنها لم تسقط. كما أنه من الممكن أن يرسل البابا من جديد جيشاً صليبياً. ما أود قوله أن الوقت يا مولاي ليس مناسباً للقيام بحملة على القسطنطينية. لم يستغرب خليل من الغضب المتطاير من عيني السلطان. أجل انه لا يعارض رأيه، لكنه يخشى أن تؤدي هذه المغامرة المجهولة العواقب إلى نهاية الدولة العثمانية. التفت السلطان إلى زاغنوس باشا، محاولاً كبح جماح غضبه:

– وأنت ما رأيك؟

قال زاغنوس، أن الجيوش الصليبية، نالت ما تستحقه من دروس مرتين متتاليتين، وأنها لن تجد في نفسها الشجاعة لمهاجمة العثمانيين مرة ثالثة. كما أن التحالف بين الكنائس غير قائم، وأن البابا، والبندقية سيواجهان المصاعب في إيصال الإمدادات إلى البيزنطيين، وأن معاهدة المجر ستفسح لهم فرصة محاصرة المدينة ثم احتلالها. وكان لسروجا باشا نفس الرأي. بعده تحدث إسحاق باشا بإسهاب عن أسوار القسطنطينية، وقوة النظام الدفاعي. وكما يعلم السلطان، فهناك على مقربة من الأسوار خنادق مملوءة بالمياه، وأسوار، وقلاع عالية، ونيران تحترق تحت الماء بإمكانها إشعال النيران في السلالم بالأبراج المتحركة السيارة. والمدينة على استعداد دائم للدفاع عن نفسها، كما أن البيزنطيين مرتبطين بدينهم ومدينتهم. فكم من جيوش حاصرت المدينة، لكنها أرغمت في النهاية على الركوع أمام الأسوار، ولم يدعوا أي قارب ينجح في التسلل إلى الخليج، ومحاصرتها من الجانب البحري. حيث يستحيل احتلال القسطنطينية دون التسلل إلى الخليج، ومحاصرتها من الجانب البحري. حينما كان إسحاق باشا مستغرقاً في الحديث، انطلق صوت مرتعش:

– لنفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش!

كان المتحدث هو أق شمس الدين مكرراً حديث السيد الرسول. نكس خليل رأسه حينما سمع ذلك. وكانت القادة يعملون على إقناع السلطان بشتى الوسائل، وكان لتحريضهم دوره في تحريك الدهاء العسكري للسلطان. قطعاً لم يكن السلطان دمية في أيديهم. لكنه كان على يقين أن ذلك الجندي الذي سيفتح

القسطنطينية سيكون هو. عندما استمع إلى حديث الرسول ازداد ثقته بنفسه:

– مقدر أن يتم فتح تلك الأسوار على يدي. سيتم ذلك بعون الله حتى لو كانت أبراجاً من النار والحديد، والفولاذ الخالص. بعزيمتي ستذوب بين يدي كالشمعة!

أتخذ القرار، وحمى وطيس النقاش للبدء بتدابير الحصار. انطلق السهم من قوسه.

* * *

كان أق شمس الدين جالساً في حديقة التكية تحت شجرة كستناء. كانت أدرنة مبسوطة تحت قدميه مثل سجادة عجمية، زاهية الألوان تحت شمس الصيف الساطعة. كانت التلال مزدحمة بالزنابق، وأزهار النرجس والورود البرية ذات الألوان الزرقاء، والبنفسجية، والحمراء. كانت قلعة المدينة تطل على ملتقى الأنهار صوب الأسوار، وقباب الجوامع الرصاصية، والبيوت الخشبية، والأسواق، والخانات، والحمامات. كانت أنهار تونجا، وأردا، ومريج تنطلق هادرة تحت الجسور الحجرية، ساحبة معها الأشواك الجبلية، والأغصان، والبراعم. كانت مناسيب المياه قد ارتفعت لذوبان الجليد. كان جسر ميكائيل يربط جزر ببعضها تبدو في امتدادها مثل سور الصين.

كان بإمكان شمس الدين الذي يتأمل من مكانه ظلال الأطواق المنعكسة على صفحة المياه المنسابة، أن يرى منارة جامع السلطان مراد التي تشبه أقداحاً من الكريستال. لكن قلبه كان مع جامع بيلدرم خان القابع في أعماق الجسر. فالحاج بيرام ولي الذي اقتيد إلى حضور السلطان مراد مقيداً بالأغلال، أعيد إليه اعتباره، وبدأ بالخطبة في جامع متواضع فترة من الوقت. كان قد توضأ بيديه الطاهرتين في حوض الجامع. تذكر أق شمس الدين مرشده بالخير، واتجه ببصره صوب القصر الجديد الواقع في منطقة بعيدة عن جامع بيلدرم خان وفجأة لم يصدق ما تراه عيناه. كانت ألوية السلطان الستة ترفرف أمام مستودع الأسلحة. إذن بدأت حملة القسطنطينية، وبدأ الحلم الجميل الذي بشر به بيرام ولي، والشيخ ادابيلي

يتحقق.

كان عثمان بك قد حلم بالقمر في الليلة التي حلم بها بالقمر في الليلة التي أمضاها في تكية شيخ الأخيين*.

أن القمر يرتفع من بطن أدابيل إلى سماء مرصعة بالنجوم وسط هالة ساطعة من النور. ثم رآه يقترب منه متحولاً إلى غصن ثم إلى شجرة ضخمة متفرعة تمد ظلالها على العالم. حيث الجبال، والصحاري، والبحار، وقصور المدن الذهبية، ودجلة والفرات، والنيل المقدس، ونهر تونا الذي تهدر مياهه في أرض الفرنج فوق أراض شاسعة، تنتشر فيها غابات في خضرة الزمرد. فجأة هبت ريح قوية، وحملت أوراق أغصان الأشجار إلى حيث الأسوار، والقباب، والقصور، وعواميد الرخام. تحولت المدينة فجأة إلى خاتم من الماس والزمرد.

هب عثمان بك من نومه حينما كان على وشك أن يضع الخاتم في إصبعه. عندما ذكر للشيخ حلمه، طلب منه أيضاً يد كريمته مال خاتون، فذكر له الشيخ أن ولده الذي سيرزق به من هذا الزواج سيكون صاحب الأراضي الشاسعة التي ظلت تحت أفياء الشجرة. وأن آل عثمان سوف يحتلون إلى جانب القسطنطينية، مدناً في القارات الثلاث. وهكذا زوج ابنته عن رضا إلى عثمان بك.

أحس آق شمس الدين بإحساس طافح في أعماقه مثل أنهار أدرنة. رأى أمام قصر الصدر الأعظم خليل باشا خفقان الألوية الثلاثة. غداً إذن عند شروق الشمس، ستبدأ الحملة.

* * *

في البدء ظهرت ثمة إشارات. اندفع البيزنطيون من فراشهم على أثر هزة عنيفة في الليل. كأن ثمة صخب قادم من أعماق طبقات الأرض السبع. اهتزت لقوته الجدران، والأرائك. سقطت الأيقونة الضخمة للعذراء، والأيقونات الأخرى في آيا صوفيا. انشقت الأرض في باحة الدير الواقعة في الأحياء بضواحي المدينة. فزع القسس في حجراتهم من صرخات الهلع المنطلقة من أعماق البشر المذعورين. ستفتح أبواب الجحيم، وستنتشر الشرور على وجه الأرض. كانت الصرخات

تختلط بأنات غريبة تشبه أصوات الحيوانات ساعة الذبح. اجتمعوا فوراً، وبدءوا بالتضرع إلى الرب لحماية دينهم ومدينتهم. في تلك الليلة ازداد عدد النجوم الساقطة من السماء، وتبعه سقوط كرة من اللهب في البحر. فهم الكهنة أن نهاية المدينة قد حلت. أبلغوا الإمبراطور مع أركان الدولة، وسدنة الكنيسة. في نهاية المباحثات قرروا طلب المساعدة من البابا. عارض ميغادوك لوكاس لونتراس، والبطريرك جاناديوس القرار بشدة. صرخ لونتراس في وجه مؤيدي طلب قرار المساعدة «نفضل رؤية العمامة التركية على قلنسوة اللاتين»! عاد جاناديوس، وبانتاوكراتو إلى حجرتيهما في الدير. أغلقا بابيهما، ولم يخرجا. بعد أن علقا على الباب لوحة استنكار حول استحالة توحيد الكنيستين الكاثوليكية والبروتستانتية في أي وقت أو زمن، مع تحذير الشعب البيزنطي من ارتكاب هذه الخطيئة. رغم ذلك قرر مبعوث البابا الكاردينال ايزودور الذي شارك في الاحتفال القدسي توحيد الكنيستين لكن الشعب الذي امتلأت به الشوارع، والأزقة استنكر هذا القرار.

رأى الإمبراطور الذي أدركه القلق في تلك الليلة، أن الهيكل الموضوع قرب رأسه بدأ يعرق عند الصباح.

لم يصدق ما تراه عيناه، وعندما أعاد النظر فيه رأى أن عواميد الرخام، وليس تمثاله وحده بدأت تتصبب عرقاً، في صباح اليوم التالي هبت عاصفة بحرية عاتية. هاجمت العواصف المدينة دون هوادة. غرقت السفن، والقوارب، واخذ الناس يهرعون في الأزقة دون صواب. توجهوا برفقة الرهبان والقسس إلى أيا صوفيا للدعاء، والتضرع للرب. كلما ارتفعت الأصوات بالتضرع، أخذت حدة الرياح تخف ثم سكن كل شيء لكن الغيوم سرعان ما غطت سماء المدينة، وحولت الرعود التي انطلقت بشكل متتابع المدينة إلى مكان للعيد.

كانت البروق تضيء الأسوار، والقصور، والقباب، والصلبان. كان الناس حيرى من الدهشة التي يحسونها كلما أضاءت البروق السماء المعتمة. فجأة بدأ المطر ينهمر بغزارة. ظن القسس أن طوفاناً أشبه بطوفان نوح قد حل بهم. أحسوا

بالأسى لأنهم لا يملكون سفينة مثل سفينة نوح. لقد حل عليهم غضب الرب. أوصوا الناس بالابتعاد عن الكاثوليك. مع ازدياد انهمار المطر، غمرت السيول أزقة المدينة جارفة معها البساتين، وحقول الحصاد، وعربات النقل. فاضت الصهاريج، والبيوت، وأقبية النبيذ، ومخازن المؤن. انتشر خطر الجوع والأوبئة في المدينة. لكن سيل الأمطار هدأ في نهاية اليوم الثالث. عادت الشمس إلى السطوع كسابق عهدها في السماء. تلاقت الأزقة مع البشر. أصبحت المدينة التي اغتسلت من الأدران، والخطايا أكثر بهاءً، ورونقاً من السابق.

بدأ الدرويش الزاهد الذي لا يعلم أحد متى حط الحال فوق عمود الرخام الذي يقيم عليه، بتغيير لهجته. لم يكن ثمة من يعرفه أو يعرف متى بدا بالإقامة في هذا المكان. لربما كان نبيلاً أو راهباً سئم حياة الدير أو كان مجنوناً. لم يكن يغادر قمة العمود. كان العامة قد رفعوا هذا المخلوق الذي يشبه القرد في هيئته، وشعره المبعثر المختلط بلحيته إلى مصاف الأنبياء. كان يكتفي بتناول سلته التي يدلي بها إلى الأسفل بوساطة حبل ليملؤه طعاماً له. وكان يقضي حاجته فوق العمود. بعد هدوء العاصفة الهوجاء، ملأ البيزنطيون الساحة ليسألوه عن المصيبة التي حلت بهم.

كان الزاهد قد تحول تحت الأمطار التي انهمرت أياماً إلى كتلة عظام. كانت الأسمال التي يرتديها قد التصقت بجسمه. لم يكن أحد قد أحضر له الطعام كالعادة لانشغالهم بما ألم بهم من كارثة. جلس القرفصاء، وبدأت لحيته تغطي صدره حتى النهاية. لم يكن يظهر من جسمه سوى ساقيه اللتين تشبهان عمودين نحيلين، ووجهه وعينيه اللتين لم تفقدا بريقهما رغم الصخب، والهرج اللذين سادا المدينة. كان ما يتفوه به تشبه حشرجة منطلقة من صدره. كان الجمهور يحاول استخلاص ثمة معنى لهذه الحشرجة. لكنه في الحقيقة كان يتحدث بلغة غريبة لا يعرفها أحد من المحيطين به. ربما كانت لغة كهنة دلف. أو لربما لم تكن بلغة. ربما كانت عبارة عن مخارج لأنين أو شكوى يحاول التعبير عنها. لكن كلمات مفهومة بدأت تنطلق من فمه. لم يكتف بذلك بل بدأ بالصراخ من فوق

العمود:

«رأيت في حلمي خروج وحش بسبعة رؤوس من البحر»! وعاد للتأكيد «أجل رأيته. وحش بسبعة رؤوس، وسبعة قرون، وسبع عيون، وسبع أياد. أحاط بالمدينة، وابتلعها. ثم انقشعت السماء، واعتلى ملك العرش المنصوب في سماء الملائكة. أمام العرش كان الملوك القدامى الذين حكموا المدينة، راكعين بخشوع وكان الملك المستوي على العرش معرضاً عنهم. ثم تقدم الوحش نحو العرش، وهجم برؤوسه السبعة حيث انطلقت نيران بسبعة ألوان من أفواهه السبعة. كل راس من رؤوس الوحش، كان يشبه مخلوقاً أخر. رأسه الأول يشبه الأسد والثاني صقر طائر، والثالث ثور هائج، والرابع حصان يصهل، والخامس سمكة تسبح في الماء، والسادس راس ثعبان، والسابع راس نئب. فصل الملك الجالس على العرش كل رؤوس الوحش، وبقر بطنه محرراً المدينة من شره.»

خيم صمت عميق على الساحة. لم يكن أحد ليتوقع حديث الزاهد بمثل هذه الكلمات القاطعة والواضحة والذي واصل كلامه بصوت أجش لم يكن يتلاءم على الإطلاق مع جسده الهزيل. كان يتحدث منفعلاً، وكلما استرسل في الحديث، كان يبدو، وكأنه يصب زيتاً ساخناً من فوهة قمع فوق رؤوس الجمع المحتشد تحت قدميه:

«وحدث زلزال مريع. سقطت النجوم من السماء. انشقت الأرض، وفتحت أبواب الجحيم. خرج منها سرب من أفراس البحر، أفواهها ترغد بالزبد، ورؤوسها تشبه رؤوس البشر، وعلى ظهورها جنود من نوي العيون الضيقة. كانت نظراتهم أرفع من الشفرة، وأشد مضاءاً من السيف. يهاجمون ما أمامهم، كهجوم أسراب الجراد على حقول القمح. يهجمون على الكنائس، والقصور، ويستولون على الأبواب الذهبية، والشمعدانات الفضية، والكؤوس النحاسية. يسبون العذارى على ظهور الخيل، ويواصلون طريقهم. يقيدون الشيوخ بالأغلال، ويبيعونهم في أسواق النخاسة. ثم اهتزت الأرض، أرعدت السماء من جديد.

تحطمت الأسوار، ودخل أيا صوفيا ملك معمم على ظهر حصان أبلق. القوة

والشكيمة تكمنان فيه وعلى الإمبراطور، والبطريرك، والنبلاء، والقادة، والرهبان، وكل الشعب البيزنطي إطاعته. لقد رأيت دورانه فوق قبة أيا صوفيا كالهلال الساطع. كانت أمنا العذراء، وسيدنا المسيح، والملائكة، والحواريون يلتفون هناك ثم اختفى الملك المعمم. مر عشرة آلاف عام، عشر مرات متتالية. عادت الأسماك الحمراء التي كانت تتقافز في الحوض الواقع في فناء الكنيسة إلى المقلاة لتُقلى من جديد. كان الراهب الذي يقلي الأسماك ذا عينين سوداوين. في نظراته كان يتراكم سخط وغضب آلاف السنين. تقلد الراهب السيف، وقتل الملك المعمم مقدماً التاج لمولانا الإمبراطور. ثم سمعت صوتاً يقول: أنا من يملك البداية والنهاية. رأيت بعد ذلك مكاناً جديدا وسماء جديدة. لكن السماء والأرض القديمة مرتا، ولم يكن هناك البحر. رأيت مدينتنا المقدسة. كانت مزدانة كعروس. بقوة الرب، وبقوة السيف عادت إلينا من جديد.»

صمت الزاهد. ولم يعد يتفوه بكلمة واحدة. في هذه المرة غمر المكان صمت عميق. بعد لحظات من الصمت قرعت النواقيس في أيا صوفيا. افترق الحشد من هناك، وبقي الزاهد في عش اللقلق فوق العمود. تفرق الجمع. ذهب من ذهب إلى حانات جنوة في غلاطة، ومنهم من ذهب إلى بيته أو إلى الكنيسة. بعد كل ذلك أخرج السلطان محمد مدفعه ذو الفوهات المرعبة من أدرنة.

كان المدفع يستحق المشاهدة. تم صنعه في معمل الصب ثم صب الرصاص المنصهر بعد أن عمل المنفاخ أياماً متواصلة في أنبوبتين ضخمتين متداخلتين، مصنوعتين من فتائل الكتان والقنب. وقد أصيب حتى ساروجا باشا وهو الملم بصنع المدافع بالرعب من منظره. كان السلطان يبتسم بسرور، وكذلك ساروجا وزاغنوس وقره جه بك الذي كان يبتسم بدوره من تحت شاربيه الكثين. خليل باشا لم يسره ما يحدث. لذلك ظل ساهماً في الزاوية التي كان يقف فيها. لكن الأوان كان أوان الحملة، وليس النقاش والنزاع.

بعد أن برد حديد المدفع تم تنظيم حافاته وتلميعها، وتزيينه كعروس. كان ضخماً وطويلاً وذا فوهة ضخمة لم يكن بوسع أي بهلوان عثماني احتضانه. في

طلقة الاختبار، انطلقت قذيفة الغرانيت إلى بعد ألف قدم محدثة حفرة واسعة. أخذ الأطفال يلعبون فيها الغميضة، ويتقاذفون بكرات الثلج. كما ارتفع جمل من مكانه بقوة الريح التي أحدثتها انطلاق القذيفة. ولم يعد أهالي أدرنة يسمعون شيئاً لثلاثة أيام بلياليها. أسقطت الحوامل أجنتها. شبهه إمام الجامع في خطبة الجمعة التي ألقاها من منبر الجامع بسور إسرافيل. ووصل نبأ الوحش الذي أطلق عليه اسم «شاهي» إلى بيزنطة.

كان المدفع الذي يسحبه خمسون ثوراً، يتقدم في سهول تراقيا تحت حماية مائتين من الجنود على يمينه ويساره ومراقبة فرسان قره جه بك المعروف عنهم بأنهم أسرع من الريح، كان يبدو، وكأنه لا يتقدم لإسقاط إمبراطورية قسطنطين بل لضرب، وتدمير بيزنطة. كان يتقدم بهدوء من بين الأشجار. يبنى له في الأراضي الوعرة جسوراً صغيرة، وتوضع في بعض الأماكن جذوع الأشجار لتسهيل مروره. تم استنفار كل الإمكانيات من أجل شاهي، أجل تم تسخير كل شيء من أجل هذا الوحش الذي يسطع تحت الشمس، وينفث من فمه قذائف الموت لم يكن وحشاً بل هو بالأحرى عروس جديدة، أُعدت كهدية لقصر قسطنطين. ستزف إلى الإمبراطور الذي يبحث منذ فترة عن شريكة مناسبة لحياته.

عندما وصل بعد مسيرة شهرين إلى أسوار القسطنطينية تأهب كمارد جبار لالتهام المدينة بفمه الضخم، المظلم. أعلن راهب شاهد شاهي من على السور، انه إنما يرى الدجال. انتشر النبأ في المدينة، ولجأ الأهالي إلى الكنائس من الخوف. لم يعد من سبيل سوى دعاء القسس، ومناجاة المسيح، واللجوء إلى أعطاف السيدة العذراء للعفو عن خطاياهم. فقبل سنوات منيت قوات السلطان مراد التي حاصرت المدينة بالهزيمة، ومصير ابنه الدجال سيكون نفس مصير أبيه بفضل قوة مريم العذراء التي بإمكانها تقطيعه إلى أشلاء وأوصال ممزقة ومبعثرة بنظرة من نظراتها. ولكن يتحتم لتحقيق ذلك التضرع باستمرار إلى الرب، ليغفر آثامهم، ويجب البدء بالصوم، وصب اللعنات على الأتراك واللاتينين، واللجوء إلى أحضان

العذراء الرحيمة. خف الرعب في صفوف الأهالي بعد ارتفاع الأصوات بالدعاء، ورؤية وجوه القديسين في الأيقونات وسط الروائح المنطلقة من المباخر. نشر قسطنطين المنادين في المدينة يطلب إليهم الهدوء والسكينة، ويعلن أن لا مبرر هناك للخوف والذعر، فالأسوار حصينة ومنيعة، والجيش مصر على المقاومة، وكان ثمة جنود مدججين بالأسلحة والدروع مرسلين من قبل البابا سيصلون قريباً. بعد فترة نسي السكان شاهي، وعادوا إلى أعمالهم اليومية، وبدأ الإمبراطور بتعزيز دفاعاته.

* * *

أتوا. ووقفوا كفصائل أمام الأسوار تحت شمس الصيف الساطعة. كانوا آتين من كل بقعة من بقاع أماسيا وسيواس، وبورسوك، وإزنيك، وبورصة، ومانيسا، وأدرنة، وسرز، وماناستر، وقزل ايرماق، وتونا.

كانوا يرون القسطنطينية لأول مرة. اقبلوا من القرى الجبلية، ومن بساتين كيدين، ومن سفوح مازداغ، وكشيش داغ، وطوروس، وأسفنديار، وغاليبولي، وقره بورون، وأغاج دنيزي. كانوا يرون الأسوار لأول مرة. كانوا ينتظرون بترقب أمام الخنادق، والأبراج التي رفعت عنها الجسور. كانوا قد سمعوا الكثير عن عذارى المدينة اللائي لم تر أجسادهن البضة الشمس، وعن كنائسها ذات القباب الذهبية، وقصورها ذات العواميد الرخامية التي ينساب فيها الشراب، والشهوة. شباباً كانوا، وشيوخاً، وصبية سمر، وشقر ذوي شوارب كثة لهم عيون زرق، وسود، وعسلية. كان بينهم دراويش، وحشاشون، وشيوخ بلحى بيضاء، وشباب مرد. تركوا حقولهم، وبساتينهم، ومواشيهم، ومغازلهم، وتكاياهم، وقراهم. هبطوا سفوح الجبال وعبروا السهول، والأنهار، متطوعين، حاملين السلاح للالتفاف حول الراية المحمدية.

في ملتقى طرق كشان – مالقارة – تكير داغ، التقوا مع الإنكشارية وجنود المدفعية، والخيالة، والمشاة.

ومثل صبية صغار اصطفوا بإيمان وشجاعة أمام الأسوار. كما يلي:

على الجناح الأيمن قوات الأناضول القادمة من ييلدز قابي، وطوب قابي بقيادة اسحاق ومحمود باشا. كان الخيالة يرفعون ألويتهم الحمراء والصفراء. كان المتطوعون من الخيالة يقفون في المقدمة لنيل مرتبة الشهادة.

وكانوا مترددين بين اختيار الجنة أو الغنائم. وكان يبدون من خلال وجوههم التي لوحتها الشمس أنهم أرغموا على الاشتراك في الحملة قبل جني حصاد حقولهم. رغم ذلك كان يبدو عليهم، وكأنهم يعسكرون أمام أسوار القلعة منذ سنوات. كأنهم لم يهجروا أحضان أمهاتهم، ونراعي حبيباتهم للالتحاق بصفوف الجيش في ساحة الوغى. كانوا منتشين يتلهفون لحصد رؤوس الكفار بسيوفهم، وفؤوسهم، ومناجلهم. لم يكونوا يعلمون أن الإنكشارية ستجعل جثثهم موطئ قدم لمهاجمة الأسوار.

في المركز تجمع الجنود في طوب قابي وأدرنة قابي متقلدين سيوفهم، وتروسهم. كانوا يرتدون معاطف زرقاء من الجوخ، مقطبي الجباه. في مقدمتهم ثمة جنود يحملون أسلحة ثقيلة، وخلفهم جنود مسؤولين عن مستودع العتاد والذخائر مع جنود المدفعية، والخنادق. كانوا يتأملون ألويتهم بإعجاب. تجمعوا أمام الأسوار بمدافعهم السوداء الصغيرة، وكأنها جزء من كيانهم. كان لكل منهم اسم مختلف، وطبع مختلف. كانوا يبدون بين تلك المدافع الصغيرة مثل رؤوس الأحصنة. كانوا جميعاً تحت إمرة كارماني باشا. الجناح الأيسر الممثل بمناطق أدرنة قابي، والخليج كان تحت إمرة بكوات روملي، وقره جه بك. كانوا قد استولوا على ميسفري الواقع على شواطئ البحر الأسود، وقلاع أق يولو، ونيزا. قصفوا سواحل سيلفري في مرمرة، وبيغادوس، واياستافانس. أشعلوا النار في القرى البيزنطية التي صادفوها في طريقهم حتى وصولهم أمام أسوار القسطنطينية كانت دروعهم تلمع تحت الشمس، وكانت جيادهم أسرع من الريح. كانوا تحت قيادة ارمانوس بك من تلامذة تونالي حلمي، إضافة إلى ميخائيل، ومالقوج اوغلو. أمضوا شهوراً على ظهور جيادهم، يتعقبون العدو. لم يكن ثمة أثر للتعب في نظراتهم التي كانت تشبه نظرات الصقور في حدتها.

احتل زاغنوس محمد باشا السهول الممتدة من بيرا حتى منطقة قاسم باشا. أما مقر السلطان محمد، فكانت عبارة عن خيمة مزخرفة بنقوش نهبية قريبة من القوات المركزية، قائمة على سبعة أوتاد. كان ينظر إلى قصر تكفور مثل صقر بسط جناحيه الحمراوين أمام المدينة.

كان الإمبراطور قسطنطين بالغوس دراغزاز مع رئيس التشريفات فرانتزس. وكان خبير الأسلحة غرانت قد وصل لتوه من جرمانيا. كانوا جميعاً يصغون إلى الجنوي جان كيستينياني الذي وصل مع أربعمائة من الجنود المدرعين، وثلاثمائة من البحارة. كان الإمبراطور قد عينه قائداً عاماً لجيشه، وأوكل إليه مهمة الدفاع عن المدينة. كان يدلي بمعلومات عن مدى طاقة الأسوار لتحمل الهجوم، وعن معنويات الجنود، والمؤن، والأرزاق وكما يلي:

الأسوار الأمامية في حالة جيدة، وذلك لإصلاحها قبل فترة. لذلك يجب الدفاع في الخط الثاني، وتنظيم كل شيء وفق ذلك. أما بالنسبة للدفاع عن الأسوار الواقعة على شواطئ مرمرة، والخليج فيجب أن يحتل الدرجة الثانية من الأهمية، ويجب إعطاء الأهمية القصوى للدفاع عن الأبواب الواقعة بين ايوس روماندوس - شاغيسوس. فالخنادق في هذه المناطق خالية، والأسوار ضعيفة. كما أن السلسلة الضخمة المربوطة بين غلاطة، وسراي بورنوستوقف تقدم القوات البحرية العثمانية. لذلك ليس ثمة داع لتقوية الدفاعات في هذه المنطقة.

على هذا الأساس سيواجه ثيود غاريستوس القوات العثمانية المركزية. أما الجنود المدرعين، والبحارة الذين تحت قيادته فسيواجهون العدو قرب قصر تكفور، وضواحيه. وبالنسبة للمناطق الأخرى اعتبارا من بورتا أروجا وحتى كاليغاريا فسيتكفل للدفاع عنها قادة البندقية، وجنوة، وبيزنطة. هؤلاء سيمطرون الأتراك تحت راية الإمبراطورية ذات اللون الأرجواني، من أبراج المدينة تحت راية سان ماركو الخفاقة باسم المسيح، والعذراء، وجميع القديسين، بحمم القذائف، والسهام، والحجارة، والحمم اليونانية، وعند الضرورة يطيرون رقابهم.

كلما تحمس كيستينياني مردداً أسماء فرسان من أمثال اندرونيكرس،

كانتاراني، كونيرو، دولفيونو، وبالاغوس، كانت معنويات الإمبراطور ترتفع، ويزداد يقينه بإلحاق الهزيمة بالأتراك. ففي النهاية سيكون النصر لقوة الإيمان، وليس للحقد والغضب. وكما ذكر غرانت وأيده فرانتزس في أن العلم سينتصر على النزوة، والعقل على البأس. وبسبب تضحياته وعد قسطنطين كييستنتياني بجزيرة ليمني. أما ماغدوك نوتاراس فقد غادر الاجتماع تحت نظرات الاتهام، وكأنه المسؤول عن الوحدة مع اللاتينين. حلت ليلة صيف دافئة في نفس اللحظة على قصر تكفور، وعلى خيمة السلطان. استغرق جند الطرفين في النوم بنفس الخشية والأمل، ونفس الشوق والإصرار. ابتسموا في أحلامهم، وهم يرون تكريم الله لهم بالنصر، والظفر.

---

* الأخية: طائفة من الدراويش ظهرت في نهاية عهد السلاجقة. اكتسبت طابعاً سياسياً فترة من الوقت ثم استطاع السلطان العثماني مراد الأول اخماد فتنتهم.. انتشرت بين أصحاب الحرف في الأناضول فيما بعد لتحقيق التآخي، والتآزر فيما بينهم في المجال الحرفي. «المترجم»

من يوميات كاتب الرحلات نيكولو

٥ نيسان ١٤٥٣

أنا ميت في السابعة عشرة. رغم أن الحياة بأيامها، ولياليها، وسنواتها الطوال لا تزال أمامي. أمامي عمر جديد، ولكن ليس لابن المرحوم دومينكودي ماستري كاتب الرحلات نيكو في سفينة القبطان أنطونيو ريزو الذي ودع الحياة في تشرين الثاني ١٤٥٢. اسمي الآن سليم. اسمي السابق كان نيكو. أنا الآن غلام في القصر العثماني. أعمل إنكشارياً قريباً من خدمة السلطان محمد. بعد دخولنا البسفور متوجهين صوب القسطنطينية في يوم مشمس دافئ. هالنا منظر القلعة المرعبة التي انتصبت أمامنا فجأة. كنت أجهل أن الذين انقذوا من السفينة سيرغمون على الجلوس على الخازوق، كجهلي بأنني سأخدم في القصر لإعجاب السلطان بي. من يدري أين، ومتى ستنتهي حياتي التي منحها لي الرب؟ لكنني كنت أحس بأن ثمة حياة جديدة أمامي. فكما نجتني الأقدار من خازوق السلطان، فإنني أؤمن بأنني سأفلح في إنقاذ حياتي في هذه الحرب، ومن هذا البلاء المخيف المسلط على العالم. لو حدث، وادركني الموت فستبقى هذه اليوميات شاهدة على أيام القيامة.

أعلنت الحداد على رفاقي الذين أُرغموا على الجلوس فوق الخازوق، بعد إغراق سفينتنا. ثم تعودت على حياتي الجديدة، وطي صفحة الماضي في مخيلتي، ونسيان البندقية إلى الأبد. نجحت في ذلك إلى حد ما. لكن ظهر بعد ذلك أن نيكولو لم يمت تماماً، في زمن اهتزت الأرض فيه تحت قدمي. هل أستطيع مواصلة عادتي في تسجيل اليوميات التي تعودت عليها أثناء عملي ككاتب سير الرحلات. هل أستطيع مواصلة كتابة اليوميات حول حصار القسطنطينية؟

أود أن يعلم الآتون أهمية الأيام التي عشناها، وتلك الأحداث التي هي لربما تنبئ عن نهاية العالم. أولئك سيتابعون من قلم سليم المصنوع من ريش الآم والخوف مخاوف، وشجاعة نيكولو. لكنني أعلم أنه يتحتم عليّ أن أتحلى بالواقعية،

وأن أسجل ما سمعت، وما رأيت - على الأخص ما رأيته - دون أية إضافة. ورغم حلول شهر نيسان فلا تزال هناك رائحة الدم، والبارود رغم أن كل شيء في الحياة يبدوأجمل من كل المرات سأكتب ما أراه. أجل عندما كانت الأعلام الحمراء ترفرف مثل طيور السنونو في ريح نيسان فوق خيمة السلطان المطلة على تلة تطل على بوابة أياوس رومانوس رأيت البحرين. كانت تنتصب أمامي أسوار عمرها ألف عام، وأبراج لا تحصى تلمع تحت الشمس تصل ببعضها بسلالم حجرية. لتسهيل مهمة الدفاع عنها. في المقدمة ثمة خنادق عميقة مليئة بمياه البحر، يليها الجدار الأول وعلى مقربة منه أسوار لم أر لها مثيلاً من قبل في أية مدينة ساحلية. فكرت بالمدينة القابعة خلف تلال الأحجار والصخور التي يستحيل اجتيازها. كانت هناك على بعد خطوات مني. لكنني لم أدخل أبداً من أبوابها، ولم أر شوارعها ذات العواميد الرخامية. لم أنطلق في حلبه بحصاني، ولم أدخل كنائسها، ولم ألق نظرة إعجاب على صور قديسيها. لم ألمس نساءها ذوات البشرة البيضاء. لم أكن أعرف كنائسها، ولا صهاريجها. لم أمر حتى من الطرق التي تقع فيها أديرتها عليها. أجل حتى أديرتها التي تجثم على آبارها العميقة الغربان، ويواصل فيها الرهبان حياتهم.

حسب تعريف القبطان المسكين، فنساء بيزنطة لهن نكهة النبيذ. يميلن رؤوس الرجال من الكأس الأولى.

وفي الثانية فإنك تسكر لا محال. وفي الكأس الثالثة لا أحد يرفعك من المكان الذي تسقط فيه مخموراً... بمجرد وصولنا إلى غلاطة وقبل انطلاقتنا إلى بونتوس، كان انطونيو يمنعني من مغادرة السفينة، ومرافقتهم لصغر سني. طوال اليوم كنت أكتفي بتأمل المدينة من فوق ظهر السفينة. كنت أعاني بسبب ذلك من حزن غريب، وأحس بوطأة اليتم.

في الجهة اليسرى يتوغل البحر على امتداد الشاطئ رويداً رويدا نحو اليابسة، مقسماً المدينة إلى قسمي غلاطة وبيرا. على المياه ثمة قوارب، وسفن ضخمة، وأشرعة في بياض النوارس المحلقة في السماء. في الضفة المقابلة تنعكس ظلال برج

المسيح على أحياء جنوة ذات النوافذ الواسعة، والبيوت الحجرية، ومنها تسقط فوق أسوار غلاطة. كانت قمة الأبراج الحادة التي تمتد حتى الميناء. تبدو مثل عضو ذكري مختون. في الحقيقة كنت استنكر ذلك، دون أن أعلم بأنني سأُختن بدوري في يوم ما. كان بإمكاني رؤية قصر بالهارنة مع قباب الكنائس، والأسوار الواقعة في الضفة المقابلة لسفوح بيرا. المدينة كانت هناك بإمبراطورها، ونبلائها، وقسسها، وتجارها الأثرياء، وفقرائها، وعاهراتها قريبة مني، وكأنني قادر على لمسها. لكنني كنت في السفينة، محظور عليّ ليس التجول فيها فحسب بل حتى النزول إلى الشاطئ. كنت مواطناً من البندقية، ربما لهذا كنت أحلم بالمدينة. كانت عيناي تنقشعان حينما كنت ألقي نظرة على قبابها الذهبية. حينما كنت ألقي عليها نظرة من بعيد كلما كنا نغادر المرفأ، كنت أحس أن المدينة هي التي تبتعد، وليست السفينة.

حلمت في تلك الليلة ببريزو على ضوء المشاعل التي أشعلها الطاقم الذي تناوب على العمل وهو بين ذراعي امرأة. ترى ما الذي يجعل من النساء رغبة غير قابلة للإشباع؟ ربما لن أعرف ذلك إلى الأبد. الشيء الذي أعرفه عن الحب هو بشرة الرجل المتوحش. سوف أكتب عن ذلك في يوم ما. سأكتب عن ذلك الدفء الجميل، الملامسة الخشنة، والرعشة التي عشتها في قصر أدرنة. ولكن فيما بعد، وليس الآن.

هاأنذا أقف بعد عام، أقف تماماً على أبواب المدينة التي لم تدعني للدخول إليها، المدينة التي في أحلامي دائماً، والتي حملت جسورها قبل وصولي، ومنعتني حتى من النزول إلى شواطئها – أجل شواطئها – هاأنذا الآن أحاصرها مع الأتراك. سوف أكون بين محتليها، والج إليها بالقوة، سأدخل أزقتها، وعندما ينتصر الأتراك سأنهب قصورها، وأديرتها، وبيوتها. في حين إنني أكره الحرب، ورؤية الدماء المهرقة. أشعر بالغثيان من رؤية الرؤوس المتطايرة، ومن منظر الأذرع والسيقان المقطوعة، والأجساد الممزقة. للأسف إن الرب لم يبخل على عبد نيكولو بمشاهدة أهوال الحرب. فقد رأيت جثة أبي الحبيب ممزقة شر تمزيق بأم عيني.

ورأيت موت القبطان فوق الخازوق. في إحدى المرات لم يعد اثنان من أفراد الطاقم إلى السفينة الراسية في طرابزون.

في اليوم التالي عثرنا على جثتيهما في زقاق قذر. كانا قد طعنا من قبل لصوص المدينة، وكان المهاجمون قد قطعوا أصابعهما للحصول على الخاتم. وكانت عين أحدهما قد اقتلعت. إزاء كل ذلك عند دخولي مدينة قسطنطينبوليس سأنتقم من هذه المدينة. كنت راغباً في طعن أزقتها كما تطعن الأجساد، وبقر بطنها، وفصل ساقيها بيدي الدافئتين. أجل هذه المرة سأصل المدينة ليس بصفتي كاتب الرحلات القديم نيكولو. بل بصفتي غلام من غلمان السلطان محمد. سأحتلها مع الأتراك. أخيراً سأحتل قسطنطينبولوس التي دافع عنها البيزنطيون والجنويون جنباً إلى جنب.

شيء مؤكد قيام الأتراك بنهب المدينة عند انتصارهم في الحرب. رفض الإمبراطور شروط السلطان لتحقيق السلام بعد أن بعث إليه محمود باشا كرسول الذي عاد، وأبلغ السلطان بعد أن قبل أطراف ثوبه:

«مولاي، قسطنطين لم يوافق على الشروط. قال إنه قد يستطيع دفع جزء من الجزية، لوتم رفع الحصار وقال، إننا لن ندخل المدينة مادام هو حياً.» صرخ محمد «إذن سنحارب»! وردد الوزراء، والقادة الذين كانوا معه بصوت واحد «سنحارب.» كنت أراقب من إحدى زوايا خيمة السلطان كل ما يحدث. دعا السلطان الحضور إلى اجتماع عاجل، لإجراء تقييم عاجل جديد للأوضاع. في اللحظة التي تناولوا الخطط، والخرائط، ابتعدت عن المكان.

ما أسوأ ذلك لقد منح مولاي السلطان فرصة أخيرة للإمبراطور. إذا وافق على تسليم المدينة دون حرب، فإنه باسم الله ورسوله محمد، وباسم أسلافه، ووالده السلطان مراد خان، وباسم السيف الذي يقلده سيعفو عنه وعن أفراد عائلته، وعن سكان المدينة، ويحترم معتقداتهم. عبثاً كان ذلك. فالبيزنط أهل عناد كما يشاع عنهم. كما أن الإمبراطور مغرم بمدينته بحيث أنه مستعد للتضحية في سبيلها. لا مفر من الحرب. على من يعتمد قسطنطين في عناده؟ على المساعدات

التي سيبعثها البابا؟ أم على جند القائد الجنوي كيستينياني المجهزين بالدروع. كنت قد سمعت أنهم اتصلوا بالإمبراطور لإرسال سفينتين من حمولة آلفين وثمانمائة برميل للدفاع عن المدينة، وتخليص المسيحية من الخطر المحدق بها للحصول على الشهرة في العالم المسيحي. لقد أدى وجود هؤلاء الجند من ذوي الخبرة، والبأس إلى رفع معنويات السكان. لابد أن لهم مصلحة في ذلك. فأهل جنوة ليسوا على استعداد لتحريك إصبعهم من أجل الشهرة وحدها. الإمبراطور وعد كيستينياني بجزيرة ليمني أيها الجنوي القذر هل نسيت انك العدو اللدود للبندقية؟! في هذه اللحظة لا يهمك البندقية، وأدرنة. أنا أريد قسطنطينبوليس. أود محاربتها، والدخول معها مخدع الزوجية! ترى هل يثق قسطنطين بالعذراء؟ أمر غريب. لقد أسلمت، لكن يداي ترتعشان كلما كتبت اسم السيدة العذراء. لم أعد أصدق أنها والدة الرب.

ولم أعد أؤمن بتجلي الروح القدس في المسيح. الله واحد لم يلد، ولم يولد. عيسى ليس إلا نبياً من أنبياء الله، فهوليس ابن الله، وليس المخلص! لن ينقذ بيزنطة غير مريم. أنا بحاجة إلى محبتها، ودفئها، ونظراتها الرقيقة في صورها أكثر من أي وقت أخر. كتبت مريم. أكان عليّ أن أكتب السيدة العذراء؟ لقد اتحد اللاتينيون مع الأرثونوكس في النهاية. هل يعتمد قسطنطين على العذراء؟ هل هي التي تحمي المدينة؟ حمداً لله إنني بعيد عن هذه المناقشات العقيمة. لا مفر من الحرب، وإذا ما انتصر الأتراك فإن النهب سيبدأ في المدينة سيكون السيف نهاية كل من يمد يده إليها.

١٢ نيسان ١٤٥٣

قمت فزعاً من النوم على اثر انفجار مريع. لم أفهم في البداية ما الذي يحدث. هل أرعدت السماء، أم حدث زلزال هدم أسوار المدينة؟ حلمت بأنني في الردهة الهادئة للفناء الصخري للكنيسة الصغيرة التي كانت تقع قرب بيتنا في البندقية. كنت مع أمي التي ما لبثت أن دلفت إلى الداخل. ثم رأيت نفسي على ظهر سفينة

منطلقة في بحر هادئ. كانت الأمواج تصطدم بمقدمة السفينة. رغم ذلك لم يكن هناك ثمة صوت للبحر.

فجأة حدث انفجار أخر. نهضت من النوم مذعوراً. عندما أطلت من الخيمة رأيت السلطان مرتدياً زياً ناصع البياض، ممتطياً ظهر حصانه الأبلق متفقداً فوهة شاهي المخيفة التي تقذف الحمم مثل وحش غاضب. كانت أساريره منطلقة بصورة لم أرها من قبل. كانت فوهة المدفع موجهة نحو بوابة أكري قابي، وكأنها تتحدى الجنود المدججين بالدروع الساطعة تحت الشمس تحت قيادة كييستيناني في أبراج قصر تاكفور. بدأت المدافع الأخرى بإطلاق حممها محدثة ثغرات صغيرة في الأسوار والتي بدأت تتسع مع انطلاق النيران بصورة منتظمة بين الضجيج، وأصوات الصخب. في كل مرة كانت قذائف الغرانيت المنطلقة من فوهة شاهي تأتي على بنيان القلعة، وتحطم أجزاء من جدران السور. عندما كان الدخان يتبدد، كنت أرى أجزاء من الصخور المتطايرة في الجو. كانت خوذ الجنود البيزنطيين واللاتينين تصفر بفعل الريح التي تحدثه انطلاقة القذائف. لم يكن بمقدور المدفع إطلاق القذائف بصورة متتالية. كان لا بد من لفها في كل مرة بخرق قطنية مبللة لتبريدها. وصب الزيت في أوان ضخمة في فوهتها. خلال تلك الفترة، كان البيزنط يقومون بترميم الثغرات الصغيرة بأكياس مملوءة بالخرق المبللة حتى لا تحترق. معظم سكان المدينة كانوا يشاركون بالعمل، وكأن هذه المهمة أوكلت لهم جميعاً. كانت النساء والأطفال يتسابقون لتقوية الأسوار، وترميمها. بدأت المدافع المنصوبة فوق الأسوار بإطلاق نيرانها. لكن القذائف لم تكن تبلغ أهدافها مثل المدافع التركية. ونظراً لكوننا خارج مدى تلك المدافع، لم ننل خسائر تذكر.

استمر تبادل القذائف حتى الظهيرة حيث بدأ عشرات من المشاة حاملين دروعهم بالتقدم نحو الخنادق. إلا أنهم اضطروا للتراجع أمام سيل السهام التي انهالت عليهم. ولم يهملوا وهم يتراجعون حمل جثث القتلى كما في كل حرب. شممت فجأة رائحة الدم والعرق. بدأت أتعود على رائحة البارود، وعلى هدير المدافع التي لم تهدر منذ الصباح. لكنني لم آلف رائحة الدم. كان ريزو يتعطر

بالمسك والعنبر في البحار المفتوحة، والتي كانت تغطي على رائحة العرق المنبعثة من لحيته، ورائحة البحر في شعره. هو أيضاً مثلي كان يكره رائحة الدم. ما أسوأ الموت فوق خازوق في يوم ربيع حيث الأغصان لم تزهر بعد. من يدري لربما قبطاني الحبيب ينتقم الآن من جند السلطان لدمائه التي أهرقت هدرا.

عند حلول المساء، وصل نبأ وصول البحرية العثمانية. هبط محمد إلى الشاطئ. كان منظراً يستحق المشاهدة. كان ثمة بياض ساطع يخيم على بحر مرمرة. لم يكن البحر ظاهراً. رأيت غابة من الأشرعة والمجانيف في البدء. اقتربت القوارب المستديرة ذات الأشرعة الوحيدة كانت القوارب تبدو بجنودها وبحارتها مثل أسراب هائلة من طيور السنونو في البحر برفقة سفن لا تحصى. في المؤخرة كانت ثمة سفينة للمؤن ذات حمولة ثلاثمائة برميل، وعلى ظهرها المستلزمات الضرورية للحصار من أحجار وصخور وآجر وحطب. من يدعي أن العثمانيين لا يملكون قوة بحرية! لم أر سفناً تسير بانتظام كما أرى الآن. كانت أسارير السلطان منبسطة، وتباشير السرور تبدو على محياه. كان البيزنطيون يتأملون بقلق من أسوارهم السفن المقبلة على مدى بحر مرمرة. أستطيع أن أتخيل مدى حيرة الإمبراطور أمام هذا المنظر، وما سيقوله للذين معه على اثر هذه الدهشة. أجل بالتأكيد أن الإمبراطور يجب أن يكون من بين الذين رأوا السفن العثمانية. فأشرعتها البيضاء الخفاقة لابد أن تكون قد هزت قلب الإمبراطور وأسود البندقية الذين معه. اختفت السفن التركية المتهادية براياتها الخضر بعد سراي بورنو. سمعت أن السفن ستبدأ القصف من الخليج تحت إمرة القبطان سليمان بك عندما كنت في طريق العودة إلى الخيمة، رأيت وصول رسول على ظهر حصان. بمجرد وصوله مثل بين يدي السلطان. كان يحمل نبأً سيئاً، فالمدفع العملاق شاهي قد انفجر، وأدى ذلك إلى مقتل المئات من الجنود وأظلمت الدنيا في عيني السلطان. لم أر التعاسة على محياه كما بدت لحظة سماعه بالنبأ. كأن المقتول ليس وحشاً كاسراً مثل شاهي بل نجله الأمير الصغير. أمر السلطان بأنه سيتم إطلاق النيران بالمدافع الثقيلة طوال الليل حتى الصباح. حاول قائد الإنكشارية محمد

بك واسحاق بك بعد أن رأيا أن السلطان قد نسي الحرب، وأنه سيواصل عزاءه على شاهي تخفيف وطأة النبأ على السلطان بهجوم الإنكشارية على الأسوار مستفيدين من الظلام. أيدهما في ذلك على شريطة تغطية طاقياتهم البيضاء. وكان هو يلبس طاقية مزركشة بالنقوش. قالا له بصوت واثق «مولاي سننتقم لشاهي» كرر اسحاق باشا «أجل سننتقم»! أصدر السلطان أوامره إلى عمال المناجم وأفران صهر الحديد، بأن يواصلوا أعمالهم دون توقف. سيضيء اللهيب نوم آلاف الجنود، وتستمر الأحلام المرعبة للجنود الواقفين خلف الأسوار. سيصب الحديد في قوالب ضخمة، وسيتجمد حتى الصباح حتى تنطلق كقذائف من فوهات المدافع من فوق الأبراج. لكن كل ذلك لم يكن كافياً للتعويض عن شاهي. تذكرت المصاعب الجمة التي تم بها نقل شاهي من أدرنة حتى هنا. كل تلك الجهود ضاعت هباء. أي عزم، وصلابة هذه ياربي! ما أكثر صبر الترك على المصاعب! لكن محمد ازداد عزماً فقد خرج بحصانه بغضب نحو الخيمة. وقف لفترة على الشاطيء. كان البحر خالياً من السفن. والشمس قد بلغت الأفق. فكرت في البندقية. بأمي التي لا تزال تنتظرني في نافذتها التي تطل على القناة. لكنني سرعان ما أمحيت هذه الذكرى من مخيلتي. حينما بلغت الخيمة كان المساء قد حل منذ وقت طويل.

١٣ نيسان ١٤٥٣

ما أفظع الحرب! يُقال أن الظلام يهدد الإنسان، وأن النوم يطرد الأفكار السيئة. اجل كانت الليلة مظلمة. هيهات أن يراودني النوم. ما أن غربت الشمس حتى هجم الإنكشاريون صوب الأسوار. وفي لحظة ارتفعت أصوات التكبير، واختلطت مع قرع الطبول. لم أكن أتصور أبداً قدرة البشر على إطلاق مثل هذه الأصوات المرعبة. تحت سيول السهام، والرماح، والصخور المنهالة عليهم من نهر ليكوس كانوا يرددون باستمرار (الله، الله) هاجمين دون حماية، ويسقطون صرعى قرب السور. كان معظم الذين في صفوف الخلفية يقفزون من فوق الجثث

مرددين الشتائم. لم يكن الطرف الأخر أقل منهم في الرد على شتائمهم الصاع بالصاعين. كانوا يحاربون بعضهم البعض بحقد دفين، دون أن يفقه أحدهما الأخر. كانت الرغبة في الانتقام تزداد مع تطاير كل الرؤوس، وقطع الأذرع والأرجل. كان الدعاء باليونانية يواجه الشتائم بالتركية. ولم يكن الجنود يسمعون المنطلقة باليونانية، والتي كانت تضيع وسط أصوات التكبير. كنت أعلم أنهم لا يؤمنون بنفس الإله. لكنني رغم ذلك كنت أواجه صعوبة كبيرة في فهم أسباب الحقد والكراهية بينهم. أنا نيكولو، أفهم ما يردده الطرفان من شتائم! أؤمن بإله كل منهما. ولكن لماذا يجعلني الرب أعيش حالة مخيفة من الرعب. لماذا لا يرحم رب الإنجيل، والقرآن عباده؟ لماذا يسمح لعبيده أن يعيشوا كل هذه الآلام؟ هل لكي يلتقوا قبل لحظة بالجنة الموعودة يجب عليهم أن يعيشوا كل هذه الآلام؟ أم لكي يدفعوا ثمن آثامهم على الأرض التي تحولت إلى جحيم؟ أتمنى لو تسقط المدينة قبل لحظة، لأتحرر من هذا الكابوس. إلهي إلى متى ستستمر هذه المذبحة؟ إلى متى سينهمر الدم والنار من فوق رؤوس الطرفين؟ كان يتم صب الرصاص المنصهر من فوق الأبراج على رؤوس الإنكشارية الذين نجحوا في الوصول إلى السور الخارجي. وكان يتم صد الذين اجتازوا السلالم للوصول إلى البرج بنيران الجند المدافعين، حيث كانوا يسقطون ككتل ملتهبة من النيران وسط صرخات وحشية. لم أتحمل ما كنت أشاهده. عدت إلى الخيمة، وتمددت على الفراش.

عندما أفقت من النوم كان النهار على وشك الشروق مع انطلاق أصوات النواقيس. حينما خرجت رأيت الإنكشارية وهم يحملون قتلاهم. كانت أطراف الأسوار الأمامية مليئة بالجثث المحترقة. على مسافة قريبة كان جنود كيستينياني يتأملون ما يحدث بدهشة. كانوا يبدون مرهقين، وأرقين أو هكذا خيل إلي. لم يكن بمقدوري أن أرى من مكاني وجوههم بوضوح. لكنهم كانوا أرقين بالتأكيد. فقد قضوا الليلة يخوضون الحرب، مدافعين عن مدينتهم. مدافعين عن أموالهم وأعراضهم. لا أستطيع الادعاء بأنهم دافعوا عن الكنيسة. فلم يعد يهمهم تحالف الإمبراطور مع الكردينال! كان اليونان يكرهون اللاتينيين، وكان يستصغرون

شأن اليونانيين. وكانوا ينظرون من فوق الأسوار على قتلى الإنكشارية، وكأنهم قادة نالوا الظفر. لا أفهم عن ماذا يدافع كيستينياني وجنوده؟ هل يدافعون عن الحياة من على أسوار بيزنطة أم عن الحرب نفسها؟ هم ليسوا مضطرين للحرب من أجل الحياة؟

تجولت طوال اليوم في صفوف الجرحى المستلقين على الأرض. كان بعضهم يدخن. كانت الأجزاء المحترقة من أجسادهم قد أصبحت وردية مثل زهور الربيع. ما أسوأ هذا التشبيه. الأزهار تتفتح في التربة، والجراح في أجساد البشر، وأحياناً في القلوب. الحياة أجمل مع الأزهار والقرنفل والورود المزروعة بألف عناية في حديقة السلطان. وردة شقائق النعمان في احمرار الدم. تلك الأزهار في حديقة القصر تتفتح بجراح الإنكشارية. يكفي هذا القدر من الشاعرية! ألم أجهد نفسي في أن أكتب ما أراه، وأن أسجل انطباعاتي عن هذه الحرب لكن الإنسان كما يبدو لا يستطيع أن يتحرر من عاداته بسهولة. كان لي دفتر أخر في السفينة، أسجل فيه عواطفي، وأحلامي في أوقات الفراغ. كنت أتحدث فيه عن الموانئ التي لم أزرها، وعن مدن لم أعرفها، عن غروب الشمس، وضوء القمر، وعن مغامرات القبطان ريزو التي كنت أتخيلها. لم يكن يفهم ما في الدفتر سوى سليم الذي يمسك بالقلم أي نيكولو.

كان بين الجرحى من يعاني النزع الأخير. كان أحدهم ينادي أمه، وأخر ينادي الإمام الخضر، واغلبهم كانوا يرددون اسم الله ورسوله. قبل موته سمعت أحد الإنكشارية يصيح «يا علي»! ربما كان هذا الإنكشاري الذي تفحم جسده الذي يتصاعد منه الدخان أمام أسوار قسطنطينبوليس، يظن نفسه في الجنة. كان وجه الجرحى في بياض الآجر. كان أنينهم، وأجسادهم المحترقة كالخراف المشوية يثير الآماً مبرحة في قلب الناظر إليهم. رؤوس بعضهم محطمة، وأذرعهم مفصولة، ونظراتهم متضرعة تطلب العون. كان الذين جروحهم طفيفة يئنون مرددين اسم الله ورسوله. لم يكن بينهم من إبيضّ شعره أو شاربه. كان الذين ابيضت شعورهم، يغطون في النوم على فراشهم في خيامهم.

استمر دفن الموتى حتى الظهر. بعد الظهر تم سحب الذين أصيبوا إصابات بليغة إلى الخطوط الخلفية. حان المساء. بعد قليل سيوزع الحساء على الجنود، وتخرج من الأفران أرغفة طرية. أبدو وكأنني أرى هجوم من بقي حياً على الطعام. مات من مات. الموتى لا يمنحون طعاماً، ولا خبزاً. يجب مواصلة الحصار مع الأحياء، مع الذين ينتظرون نبأ ساراً يصل إليهم. قنديلي على وشك الانطفاء. أجل عندما كنت كاتباً فوق ظهر السفينة الغريقة، كنت أكتب عن خرير الماء، عن الليالي المطرزة بالنجوم، وعن مداعبتها للنسيم. وبدلاً من تسجيل حساب البضائع المشحونة في دفتري، كنت أفضل تسجيل ما يتحدث به ريزو عن النساء اللائي كان يشتاق إليهن، وعن قناني النبيذ التي استهلكها. أما الآن فعلي أن أستمر حتى انطفاء القنديل. كتبة السلطان يكتبون شيئاً ما. لكنهم رهن إشارة محمد. يسجلون انتصاراته. أحضروا إلى هنا للكتابة عن حروب محمد خان ابن مراد المظفر دائماً. أما أنا فمجرد شاهد. شاهد متواضع لأيام القيامة هذه التي نعيشها.

١٩ نيسان ١٤٥٣

لم يعد السلطان ير شيئاً غير مجريات الحرب. لا ينام، ولا يدع لمن حوله فرصة للنوم. لا نهاية لاجتماعاته التي يعقدها مع القادة في مقره والتي تستمر حتى الصباح. بينما نقف نحن خلال ذلك بخشوع منتظرين أوامره. منذ الآن محظور علينا الابتعاد عن أطراف خيمة السلطان. بدأت أرقب الحرب عن كثب رغماً عن مؤرخي تاريخ السلطة، وانتصاراتها. سأكون أكثر شهود هذه الأيام المرعبة حياداً. سأترك للأجيال القادمة كنزاً لا يقدر بثمن من خلال كتاب نيكولو الشهير باسم سليم.

أخيراً مثلت بين يدي السلطان راجياً منه السماح لي في أن أكون قريباً منه لمتابعة المعارك. عبس لحظة مداعباً لحيته مفكراً ثم قال بأسلوب ساخر، إن الحرب ليست أمراً يسيراً كممارسة الحب. وددت لحظتها أن تنشق الأرض وتبتلعني. لم

يكن محمد فظاً معي قط ولا مستهيناً بمشاعري مثل تلك اللحظات التي كنت أستلقي عارياً فيها فوق جلد نمر في قصر جهان أمة بأدرنة.

كنت أركع أمام الموقد سارحاً في سحر اللهب، مصغياً السمع لصوت قدميه. متمنياً من الله أن يأتي قبل لحظة كي ينتهي كل شيء بسرعة. لكن الأمد كان يطول، ولم يكن الليل يعرف الانتهاء. كنت أحس بالعرق يتصبب من وجهي وبالبرودة تسري في ظهري. كل شيء كان حاراً، وبارداً في نفس الوقت. مثل رغبة السلطان غير المستقرة، وطالعي الأسود. في فترة انتظاره التي لا تنتهي كنت لا أرى نفسي جندياً ذا حظوة عند السلطان، بل كنت أرى نفسي، وكأنني الحارس الوحيد لهذا القصر الغريب المقام في منطقة بين التقاء النهرين. لا أحد سواي في هذا القصر الكبير. كان الثلج ينهمر في الخارج، وهزيم الريح يشتد، وتمتلىء الغرفة بخرير نهري تونجا ومريج. كان خرير النهر يضاعف شعوري بالوحدة، ويجعل الأنتظار أمراً لا يطاق وكنت أسمع طقطقة الحطب المحترق في الموقد. كنت أسمعها كما أسمع صوت أقدام محمد في الفناء. قرب الفجر اقتربت الأقدام مني، وسمعت صرير الباب. دلف محمد إلى الداخل، مبعثر الشعر ومتعباً. يده المرهقة بدأت بمداعبة ظهري ثم انحدرت نحو فخذي المرتعشتين. شيئاً فشيئاً تزداد مداعباته خشونة. أحسست بألم في داخلي. كان يتغلب عليه أثناء امتلاكه لي شعور بالعنف، وكأنه يدخل معي، ومع جسدي في عراك.

لم أكن أعلم أن محمداً حينما قال أن الحرب ليس أمراً يسيراً كممارسة الحب. إنما كان يريد إبعادي عن ويلات الحرب. إلا أنه وافق على تحقيق رغبتي فيما بعد. بل تجاوز ذلك في الموافقة على إرسال عبده سليم إلى خط النار. لربما رغب في موتي أو إشراكي في المواجهة التي حدثت فوق الأبراج ضد جند كيستينياني حتى أدخل الجنة.

شاركت في استعدادات الهجوم الليلي الذي جرى الإعداد له طوال اليوم. لم يكن سهلاً نقل الأبراج المتحركة من الخطوط الخلفية إلى أمام الأسوار. كان كل برج يتألف من خمسة طوابق. وكانت عجلاته بحجم رجل. كان كل منه يسع لإيواء

جيش كامل. كانت الطوابق متصلة ببعضها بسلالم، وبغية عدم احتراقها تم تغطيتها بجلود حيوانات طرية. كان القبطان انطونيو قد سمع عن شهرة هذه الأبراج لكنني لم أكن أتصور أن تكون بمثل هذه السعة والضخامة. كان يبدو أن الجنود ليسوا هم الشجعان بل الفضل في ذلك يعود للأبراج، فبفضل هذه الأبراج يحاصرون القلاع، ويفتحون الطرق المؤدية للبلدان التي يفتحونها. ما أغرب اسمها كوش وركوش. يمكن أن نسميها هليوبوليس، إذا كنا نرغب أن يكون اسمها أكثر تحضراً. حينما اقترح عليّ أن ادخل فيها، وأشارك في الهجوم، رأيت الجنود يسحبونها بحبال غليظة مزيتة من حفر امتلأت أطرافها بالحصى.

كانت أكثر ارتفاعاً من القلاع المطلة على قصر بلهارنا في طوب قابي. سأشارك الإنكشارية في الهجوم على قوات كيستينياني، سأطير الرقاب بالسيف، ولربما سأقتل. لم اكن أشعر بالخوف. كنت أرى الموت كنتيجة طبيعية للحياة، ولم أكن نادماً لمراجعتي محمد للسماح لي بمراقبة الحرب عن كثب. لكنني في الحقيقة لم أكن أتوقع سوقي بهذه السرعة برفقة حراس مدججين بالدروع إلى قائد الإنكشارية مصطفى بك. على كل حال حمداً لله لأنني تمكنت من الخلاص من ذلك الجحيم. لم تقطع يداي التي كتبت هذه السطور، ولا طار رأسي الذي قادني إلى هذا الوضع. لم أتأثر لاندلاع النار في جسد أحمد المكلف بحمايتي. إن إقبالي على الموت لم يكن لإطلاقهم اسم (الغلام الأمرد) علي للتشنيع بي، أو بسبب استشهاد أحمد بل ليقيني بأنني مستعد للسير في كل سبيل حتى لو أدى الأمر إلى استشهادي مثل أحمد. لقد قررت أن أكتب هنا انطباعاتي، وليست عواطفي. إذن لابد من الحديث مجدداً عما حدث يوم أمس.

حينما أمر محمد باشتراكي في هجوم ليلة أمس، كدت أطير فرحاً عندما قادوني إلى خيمة مصطفى بك، لأنني سأرى في نهاية الأمر الحرب عن كثب. سأرقب المعركة من فوق الأسوار، وليس من مكان بعيد. ولربما سأكون ضمن الجنود الذين سيدخلون المدينة أولاً. سأنهب معهم قسطنطينبوليس. لم أكن أفكر في حمل أيقونات آيا صوفيا الضخمة. كان الدخول إلى المدينة يعني بالنسبة لي الاختلاء،

والولوج في جسد عذراء لم تمس جسدها البض حتى أشعة الشمس. فيما عدا ذلك لم يكن يهمني أعمدة المدينة الرخامية، ولا شوارعها، ولا هياكلها أو أديرتها أو صهاريجها - أجل حتى صهاريجها التي يتحدثون الكثير عن عمقها ورطوبتها... لم يكن في مخيلتي سوى رمز لامرأة بيزنطية سمراء. امرأة وجسد شهي. لا أمتلك خبرة القبطان ريزو، ولا صبره. أجل ليس بقدوري أن أصبر حتى أحس بدوار لذيذ من الكأس الأولى، ولا أن أسكر في الكأس الثانية، ولا أن أسقط أرضاً في الكأس الثالثة في زقاق خالي من أزقة المدينة المنهوبة. سأمتلك امرأة في المدينة في منتصف الليل أو على مشارف الصباح. سأمتلكها، وكأنني انتقم من كل ما عشته في قصر جهان امة. أجل سأمتلك امرأة لأول مرة في حياتي.

عندما كنت في خيمة مصطفى بك انتظر تقليدي السيف، وصل رسول، وبدأ يتحدث بقلق عن تحرك القوات البحرية. سفن ألقت مرساتها مع شروق الشمس، وحاولت كسر طوق الحديدي الموضوع على قناة الخليج.

- لو رأيت يا مولاي، كيف صعد البيزنطيون بسيوفهم الضخمة إلى ظهر السفن في غمضة عين.

ابتسم مصطفى بك بعد أن ظن أن البحرية حققت انتصارات في الخليج بعد الاستيلاء على السفن ومحاصرة المدن. اضطرب الرسول حينما رأى تهلل أسارير سيده الإنكشاري. واصل حديثه بلهجة قلقة:

- وهكذا يا مولاي فقد نصب العدو كميناً..

تلعثم، ولم يعد بإمكانه مواصلة الحديث:

- بحارة نوطراس.. نو.. طراس..

- مادا حدث لنوطراس؟ هل مات هذا الكافر؟

- كلا يا مولاي. لقد هلكت جماعتنا. سحقوا كالحشرات تحت الأحجار التي انهالت عليهم.

- ماذا تعني، ألم تدخل قواتنا البحرية الخليج؟

- لقد رصدهم نوطراس من فوق أشرعة السفن.

قطع مصطفى بك حديث الرسول:

– سحقاً، ليذهب نوطراس الملعون إلى الجحيم.

لم أنشغل هناك كثيراً. لم يكن لأحد الوقت الكافي للانشغال معي. الواضح أن الأمور ليست على ما يرام. استدعى مصطفى بك أحد الحراس للخيمة، وأوصاه بمرافقتي، وعدم الابتعاد عني، وحمايتي حتى لو كان ذلك على حساب التضحية بحياته. ولم ينس أن يضيف بأنني من خواص غلمان السلطان. تقلدت سيفاً، وقميصاً مدرعاً، وترساً. أحسست أن وزني قد تضاعف، وأن حركتي ازدادت ثقلاً. كان القميص واسعاً، لكنني لم اشعر بالسيف المتدلي إلا وكأنه جزء أساسي من جسدي. كان كل ذلك بمثابة معجزة تعيد إليّ ذكورتي التي فقدتها في خدمة محمد. خرجت من الخيمة واضعاً يدي على السيف. لم يعد هناك أي وجود لسليم الغلام بل حل محله محارب صنديد. سرت بمشقة نحو البرج. قال مرافقي الذي علمت أنه يدعى أحمد، بأن في إمكاني الخلود للراحة بعض الوقت.

ثمة واد للنهير الذي ينبع من جبال تراقيا، وللوصول صوب أبراج المدينة التي كان مستوى الأرض المقامة عليها ينخفض قرب شاطئ مرمرة، وحتى بوابة ايوس رومانوس. ثم يزداد انخفاض الأبراج عند التوجه نحو المنطقة الشمالية الغربية للمنطقة التي أقيم عليه قصر بلهارنا. ومنها تنخفض من جديد في خطين متوازيين على شواطئ الخليج. بمجرد بدء الحصار تم قصف هذه المنطقة بالقذائف. لكن ذلك لم يحدث الأثر المطلوب. كان القصف يحدث خسائر في الأسوار بينما ظل القصر بعيداً عن مرمى المدافع. أود القول إن أضعف نقطة في المنطقة هي نهير ليكوس. لذلك تحصن جنود كيستينياني في هذه المنطقة. بمجرد حلول الظلام كنا سنبدأ الهجوم من هناك. لأن المدافع قد تمكنت من هدم بعض الأبراج، وأحدثت ثغرات في الأبراج الأمامية والخلفية. ونظراً لأن القطع المنهارة من هذه الأبراج قد ملأت بعض الخنادق، فإن الهجوم بواسطة القلاع المتحركة من المكن أن ينجح. في هذه المرة سيقوم كوش وركوش بمهمة سبق وان فشل بها الجنود. ويحقق لنا محاربة الأعداء في نفس المساحة. كنا نثق به. في الحقيقة حتى منظره، كان مرعباً.

يوحي للناظر إليه من بعيد بأنه وحش أسود. تم في الطابق الأول جمع الحطب، أما في الطابق الثاني فثمة جنود مدججين بالرماح، وفي الأعلى هناك الإنكشارية.

تمكنت من رؤية الإمبراطور، وهو يراقب جند الترك من أعلى نقطة في البرج الثالث والتسعين - كنت أرى جيداً هذا البرج من موقعي، والذي يحمل اسم فرانتز رئيس التشريفات - حاولت التكهن لبرهة معرفة ما يدور في ذهنه، وهو يرى أمامه كوش وركوش منتصباً، يلمع تحت الشمس أمامه كالوحش؟ هل أحس أن نهاية البيزنط باتت وشيكة أمام هجوم الإنكشارية ذوي الطاقيات البيض، وهم يهجمون بسيوفهم المحدبة من الثغرات المغطاة بالصخور عبر بوابة كيركوبورتا. هل أنبأه الكهنة بالكارثة، أم أنه يحاول إنقاذ حياته؟ كنت أعلم مدى حب قسطنطين لمدينته الساحرة التي أنشئت قبل ألف عام، وانه يحب مدينته بحيث لن يحتلها الأتراك إلا على جثته. كنت قد سمعت الكثير عن الإمبراطور في الموانئ التي ارتدتها. كما كنت أعلم أنه لم يعثر لنفسه على زوجة مناسبة رغم تقدمه في العمر. ربما مدينته التي تحمل اسمه هي حبه الوحيد. لذلك لم يتزوج، وقرر الدفاع عن حبيبته التي يطمع فيها محمد حتى النهاية. أحسست بإشفاق غريب نحو إمبراطور بيزنطة الذي لربما سيكون أخر إمبراطور لها. فهو رئيس دولة عمرها ألف عام، وأنا مجرد غلام أمرد لمحمد. رغم ذلك لم أستطع مقاومة الشعور بالإشفاق عليه. تماماً كالشعور الذي أحسست به عندما رأيت جثة أبي الذي لم أره كثيراً. ذلك الرجل الوسيم الذي أتذكر ملامحه بالكاد. في حين كان يتحتم علي أن أشفق على نفسي، وعلى نيكولو الذي خلفه يتيماً، وأمي الحبيبة، أليس كذلك؟

كان الإمبراطور يراقب عن كثب، استعدادات الهجوم من أبراج قلعة فرانتز. كنت واثقاً من خوفه. لم يعد وجود كيستينياني مع دروعه التي تلمع كالنجمة المذنبة يحمل أهمية كبيرة له. ولم يعد يحس بوجود يوحنا غرانت، وهو يلقي بالمنجنيق الحمم الملتهبة، لم يعد يهمه هذا الجرماني ذو الشعر الأصفر المتطاير في الهواء. كان الإمبراطور وحيداً فوق قمة أبراجه التي طالما حمت المدينة مئات السنين من هجوم الأعداء. لكنه هذه المرة يشعر بخوف حقيقي. لم يكن يخاف

الموت، بل كان يخشى أن يلفظ أنفاسه الأخيرة مع حبيبته بين يدي الترك. في حين إنني على يقين أن قسطنطينبوليس ستكون أجمل لو احتلها الترك. قبة آياصوفيا ستتحرر من وحدتها مع المآذن ذات النهايات المدببة. وستزف الكنائس الأخرى إلى المنائر المطهرة. ترسخت هذه الحقيقة في ذهني فجأة. ربما بسبب رؤيتي للحرب مثل حفلة عرس. ولكن ما أن بدأ الهجوم حتى استغربت من مجافاة شعوري للواقع.

بدأنا الهجوم مع هبوط الظلام. كنت مع أحمد في قمة القلعة المتحركة نحو الأسوار. كان الجنود والثيران والجمال تسحب القلاع المتحركة نحو الأسوار. كانت قرقعة عجلاتها الدائرة تختلط بقرع الطبول والصنوج والأبواق، وكانت الأرض والسماء تهتز مع أصوات التكبير. كان الجنود يصرخون بصوت واحد الله أكبر.

لو أن الله كبير، فإن القلعة صغيرة. رأيت الإنكشارية حولي لا يحمون أنفسهم بتروسهم إزاء سيل السهام المنهالة عليهم بل كانوا يتطلعون بسخط نحو الأسوار. كانوا يبعثون الذعر في النفوس بفؤوسهم الصغيرة التي أعدت للعراك وجها لوجه. وما أن صدر الأمر بالهجوم حتى اندفعوا بسيوفهم المعقوفة، وتروسهم على ضوء المشاعل. لكن الهجوم استمر طويلاً في التراشق بالسهام، والمنجنيق، وقذائف المدافع. لم تكن القلعة السيارة قد بلغت إلى المكان المطلوب من الأسوار. كنت أبصر انطلاق القذائف من الجهة المقابلة، وهي تصفر. كانت أغلبها تسقط أمامنا. أما التي كانت تصيب القلعة فكانت تصطدم بجلود الحيوانات الطرية. أمطرنا غران بوابل من نيران البراميل المحترقة. أصبحت الأسوار قريبة منا. كنت أستطيع تمييز كيستينياني الذي أقام جنده جداراً من الدروع. دون أدنى شك فثمة بينهم جنود من البندقية. بعد قليل سنهاجم هؤلاء الجنود الذين قد يكون بينهم جنود من وطني. أو لربما يكون بينهم من ترعرعت معه في نفس الحي، وشربت معهم الماء من نفس الينبوع. فكرت بأننا قد نكون لهونا معاً في نفس الأزقة ليس منذ فترة طويلة بل قبل عام. صحيح ماذا أعمل بين

الأتراك، ألست من مواليد البندقية؟ أنا نيكولو وحيد المرحوم دومينشودي ماستري، وكاتب رحلات المرحوم انطونيو ريزو ماذا جرى حتى أخذت أحارب أبناء جلدتي؟ لكنني سرعان ما أبعدت هذا التفكير عن ذهني. وصلنا قرب الأسوار. لم يعد إلقاء الجسور على الطرف الآخر إلا مسألة وقت. لم يعد لدينا ثمة وقت لإضاعته. سحبت سيفي، قفزت إلى الأمام دون أن أنتظر من أحمد حمايتي. كنت قريباً من الجسر النازل من فوق البرج. كان عليّ أن أكون من بين الجنود الذين سيقتحمون الأسوار. في تلك اللحظة وجّه جنود كيستينياني رماحهم علينا. فجأة أحسست بألم فظيع في صدري. بدا لي، وكأنني أحتضن جبلاً. أتذكر سقوطي على الأرض.

عندما عدت إلى وعي، كنت في الطابق السفلي للقلعة السيّارة. لم أكن أرتدي درعي. كان أحمد الذي ينتظر قرب رأسي قد أخذ مني السيف. كان صوت الدروع يختلط بقرقعة السيوف. كانت الحشرجات الصادرة من الصدور الممزقة، والبطون المبقورة تسمع في كل مكان. كان الإنكشاريون يتساقطون باستمرار من قمة الأسوار. وكان من بينهم أيضاً جنود كيستينياني، والجنود البيزنطينيون. رأيت سلماً بشرياً يمتد من أسفل الأسوار وحتى قمتها. فجأة أحاط لهيب النيران كل مكان. رأيت أحمد يندفع من مكانه لإطفائها ثم اندفع اثنان من الإنكشارية. اختفوا جميعاً وسط النيران. بعد لحظات رأيت انكشارياً ينطلق نحوي، وقد تحول إلى كتلة من اللهب. كان جسد أحمد يحترق كالحطب. اندفع إلى المكان الذي استلقي فيه ثم قفز إلى الأسفل واندفع نحو الأسوار. كان يريد التخلص من الحريق. ربما كان بإمكانه ذلك، لكنه توقف عن المحاولة، بعد أن أصابه سهم في رقبته. أومأ لي بإشارات مبهمة ثم سقط مثل شجرة دلب أصابها البرق. تمكنت من الوقوف على قدمي بصعوبة، وابتعدت من هناك متقدماً من خيمة السلطان.

يا لأحمد البائس! أتذكر وأنا أكتب هذه السطور كيف كنت تنطلق كالشعلة وسط الظلام. أنا مدين لك بحياتي، رغم إننا لم نجد الفرصة للتعرف جيداً ببعضنا، فلم نتكلم البتة. من أية مدينة أنت، وماذا كنت تفعل قبل الالتحاق

بالإنكشارية؟ من أية قرية أنت في روملي. من قرية جبلية أم سهلية؟ ربما كنت من البحر، من اكسندريان أومن منطقتنا. قضيت طفولتك في اللهو في الكهوف. أحببت الحيتان، والسفن ذات الصواري.

ربما أتيت إلى أدرنة بعد أن رافقت الجنود الذين احتلوا قريتك. ربما كنت من قرية جبلية تتجول بين أعشاش النسور، وتتسلق السفوح، وتتفتح في باحة كنيستكم آلاف من الآزاهير الملونة. كان بإمكانك أن تصبح راهباً في دير. لكنك وقعت في يد الأتراك فأصبحت جندياً. ساقتك الأقدار إلى هنا حيث شبت فيك النيران أمام هذه الأسوار. لن يتسنى لي معرفة ذلك أبداً. كل ما أعرفه عنك تضحيتك وشهامتك ونبلك. أتذكر صوتك الرقيق الذي لم يكن يناسب ضخامة جسمك.. «لو قتلت في الحرب أحرص أن لا تبقى جثتي دون رأس » قلت ذلك ثم نزعت طاقيتك كاشفاً عن جديلة من الشعر تمتد كذيل حصان، وأنت تقول «من هذه الجديلة تقبض على رأسي، وتضعها إلى جانب جثتي وإلا لن أغفر لك.» حمداً لله لأن رأسك لم ينفصل عن جسدك.

بيت:

مت يا أحمد محترقاً كاللهب

واخترق سهم رقبتك

لتكن الجنة مثواك!

٢نيسان ١٤٥٣

عاش الترك هزيمة أخرى قبل أن ينسوا هزيمتهم في الهجوم الليلي. لم أشارك في المعركة هذه المرة. لم أكن أستطيع ذلك لأنها حدثت في بحر مرمرة على بعد مرمى حجر من اياستيفانوس. ضمدت جروحي غير البليغة وأقسمت أن لا أبتعد عن المعسكر. وصل نبأ اقتراب ثلاث سفن محملة بالمؤن آتية من ليكوريا.

استدعى السلطان القبطان سليمان بلطة اوغلو، وأمره بإغراقها. وكان قسطنطين ومن معه يراقبون من على البرج ما يحدث في شواطئ بحر مرمرة.

انطلقت ثمان عشرة سفينة بقيادة سليمان بلطة اوغلو وسط قرع الطبول. كان تقدم السفن اللاتينية بصواريها المزدوجة التي تشبه منائر أبدنة، منظراً يستحق المشاهدة. تهيأت السفن للحرب، وفجأة خطرت في ذهني فكرة ماكرة في أن ألقي بنفسي في مياه اليم، وأنطلق في مياهه المزبدة إذن لا تزال روح البحار حيّة في أعماقي. لا يزال نيكولوجياً حتى لو كان سليم العبد خاضعاً للمراقبة.

كان السلطان واثقاً من أن النصر سيكون حليفه، لهذا اختار أفضل الأماكن لمراقبة ما سيحدث، وهو منبسط الأسارير، موزعاً ابتساماته على من حوله. كما لم يهمل مداعبتي:

– قل لي أيها الغازي سليم، من سينتصر؟

– أربع مقابل ثمان عشرة! النصر سيكون حليفنا يا مولاي.

– طبعاً سنحقق الظفر! سننتصر بعون الله، وسيمزق جنودنا الكفرة!

بدأت المعركة بتبادل إطلاق القذائف. هاجمت السفن العثمانية العدو، وبدأت بتطويقها، ومحاصرتها متخذة شكل هلال. اصطدمت مؤخرة سفينة أمير البحر بمؤخرة إحدى السفن. هاجم البحارة ببسالة السفن لكنهم كانوا يواجهون صعوبة في تسلقها، لكونها مرتفعة جداً. وكان جنود العدو يصدون المهاجمين بسهولة ملقين بهم في البحر. اضطر جنودنا للتراجع دون أن يسفر هجومهم عن تحقيق أي هدف. قاموا بالهجوم على سفينة المؤن، وربطها بالحبال لشل حركتها، وحينما عجزوا عن ذلك حاولوا إشعال النار فيها، ولكن هيهات! حتى سفينة المؤن كانت تقاوم الأسطول التركي الأكثر عدداً وعدة. حل جنود جدد محل الجنود الذين اصيبوا بالجراح من جراء إطلاق السهام، وقذفهم بحجارة المنجنيق. كانت سفن الأسطول العثماني تبدو صغيرة الحجم أمام السفن اللاتينية الضخمة التي كانت تشب فيها النيران بسهولة لكنهم كانوا ينجحون في إخمادها بسهولة.

من الغريب إنني لم أعد أكره الحرب كالسابق. استنكرت صراع البشر الدموي الذين يعبدون نفس الإله في هذا اليوم الجميل من أيام الربيع حيث يمزقون بالسهام، والمطارق صدور بعضهم البعض. تلك الصدور التي قبلتها بحنان

أمهاتهم، وأحاطتها نراعي حبيباتهم. عند الحرب ينسون إنسانيتهم، ويتحولون إلى نوع أخر من البشر ينهالون بالسيف دون رحمة على بعضهم باسم الله أو طوعاً في جنته. وفي سبيل نلك تتدفع الدماء من الرقاب المتطايرة، والأحشاء المبقورة، والأنرع، والسيقان المقطوعة. لا أحب الدماء، لكنني أراها في كل مكان تنساب كالمزاريب. حينما يخوضون الحرب، يحطمون بعضهم البعض بشهوة، يفصلون أعضاء بعضهم البعض بنفس الاندفاع الشهواني. يقتلون ويُقتلون. غطى لون الدم على لون البحر. كم مرة عبرت هذه المياه برفقة ريزو. كان مرمرة يكتسب لوناً أرجوانيا في الغروب، لم يكن لونه قانياً كما هو الآن لم يكن الزبد يظهر عند سكون البحر. رغم نلك كان يظهر ثمة شيء أبيض. كانت الألوان آنذاك داخل تناسق طبيعي، تتبدل حسب الضوء. وكان الليل يسابق النهار. لكن الحرب غيرت انتظامها. حتى الألوان لم تعد كما كانت. فجأة يبدو البحر غارقاً بلون الدم، والأرض بالبياض والتي لم تعد تحتضن جثث المدفونين بلا كفن. لم تعد الأرض سوداء ولا حمراء بل تحولت إلى أرض ترفض البذور، وجثث الموتى في دروع صدئة. لم تعد الطيور تحلق في السماء بعد أن أخذت أحجار المنجنيق والرماح والسهام وقذائف اليونان النارية هي التي تنطلق بدلاً منها غادرت الابتسامة العريضة أسارير السلطان الذي كان يطلق النكات قبل قليل بعد أن رأى أن أسطوله البحري المؤلف من ثماني عشرة سفينة عاجزة من مواجهة أربع سفن محملة بالمؤن. تبدلت سحنته، وتغير لونه كما الألوان في البحر، ولم يعد يتحدث. ولو تركوه لأنهار باكياً. كان المقربون منه يدركون أنه لن يتوانى عن إنزال القصاص بأقرب المقربين إليه. لذلك لم يجرأ أحد منهم إلى الحديث. كنت أفهم من نظرات القادة إمكانية اتخاذ تدابير قبل استفحال الأمور من سيئ إلى أسوأ. لم يكونوا متأثرين للقتلى ولكن بما سيؤول إليه مصير أمير البحر بلطه اوغلو. محال أن يغفر السلطان له هذا الفشل. كان مصيرهم أيضا متعلقة بكلمة مثل مصير بلطة اوغلو بكلمة تنطلق من بين شفتيه. لذلك كانوا غارقين في الصمت مثل شواهد الأضرحة في المقابر. رأيت جيش السادة وقد أصيب بالخرس، وهم

يراقبون عن كثب مجريات الحرب. كنت أنا أيضاً ضمن شلة الخائفين الذين يخيم عليهم الصمت، وكأن على رؤوسهم الطير.

فجأة دبت في أوصالي شجاعة لم أجد لها تفسيراً حتى الآن. تقدمت، وأمسكت بزمام حصان السلطان. ركعت أمامه متضرعا «مولاي.. لو تستريح قليلا فلقد تعبت كثيراً!» أتذكر سقوطي على الأرض بضربة من مهمازه. ثم انطلق محمد نحو البحر بحصانه حيث السفن المتحاربة. عندما رأى الوزراء والقادة ما فعله السلطان لحقوا به. تقدم محمد من البحر، وبدأ بإطلاق نداءات التشجيع. أبصرت السفن وهي تعود القهقرى لاجئة إلى الميناء الواقع أسفل الأسوار الجنوبية أمام سرور الإمبراطور قسطنطين، وجنود بيزنطة وانطلاقتهم.

٢٧ نيسان ١٤٥٣

ظللت أرقاً ليلة أمس. تقلبت في فراشي. تبدأ الحرب حينما أغلق عيني يتراجع الإنكشارية الذين يهاجمون الأسوار أمام بأس جنود كيستينياني، تقطع الأيدي التي تتشبث بالأبراج، تحرق السلالم، يرتفع جدار من القتلى الذين يسقطون صرعى في الخنادق. أخذ الجدار البشري بالارتفاع بحيث تجاوز ارتفاع الأسوار. لم أكن أبصر شيئاً. فجأة ظهرت هيولى سوداء على الجدار... امتلأ المكان بضوء باهر. آنذاك عرفت عزرائيل. كان يقترب وبيده منجل ضخم، يحصد به كل من أمامه. أيقنت أن نهايتي باتت وشيكة، وإنني لن أنجو بجلدي من هذه الحرب. رغبت في التضرع إلى الله. لكنني حرت إلى أي إله أتوجه بضراعتي. في البداية وددت ذكر اسم الله، لكنني رأيت سيدنا المسيح على الصليب، وقد سقط رأسه المتوج بالشوك جانباً. كانت قطرات الدم تتساقط من جسده.

عندما استيقظت، سمعت آذان الصبح. ارتديت ملابسي. غادرت الخيمة دون أن أوقظ الخادم. مررت من بين الخيام صوب الخليج. كانت الشمس على وشك الشروق. ظهرت أمامي غابة كبيرة لكن أشجارها لم تكن كثيفة وإن كانت كبيرة. أشجار الغار أو الحور أو السرو. لم استطع أن اتبينها جيداً. برز أمامي بعد أن

واصلت المسير تل في نهاية الغابة. بدأت بتسلق التل. وقفت وأصغيت السمع هزيم الريح. لم يكن النهار قد بدأ بعد. كانت أصوات الديكة تصل إلى أسماعي. صهل حصان ثم تبعه صهيل أحصنة أخرى مثل كورس مدرب. عندما بلغت القمة، رأيت الخيالة يعدون العدة للهجوم. أشرقت الشمس من سفوح غلاطة. اختفى الاحمرار الذي كان يحيط ببرج المسيح. وفجأة ظهرت سفينة مطلقة الشراع خلف البرج. اعتقدت للوهلة الأولى بأنني أرى خيالاً بسبب التعب. فقد كنت تعباً من هذا الحصار الذي لا ينتهي، والحرب الذي لا تزال دون نهاية. لم أكن معتاداً على حياة الخيام، والنهوض من الفراش في جنح الظلام. أخذت أشتاق إلى حياة الرغد والنعيم في أدرنة. هذه هي أول مرة أبقى فيها مثل هذه الفترة الطويلة بعيداً عن القصر. لهذا كان طبيعياً أن أرى خيالات. ظهرت هذه المرة السفينة خلف القلعة ثم اختفت. ثم ظهرت أخرى، واختفت بدورها. لتظهر ثانية في سفح الضفة الأخرَى. بدأت أراها، وهي تهبط عبر نهير دركان على امتداد الخليج نحو السهل. تبعتها سفن أخرى. إلهي هل يعقل ذلك! ربما كنت أحلم. كان السلطان يشرف على تحركاته بحرية من البر مثل ساحر بل قل مثل نبي. راقبت من مكاني وصول السفن إلى الخليج عن طريق البر. لقد حقق المستحيل بعد هزيمة ليلة أمس. دخل جزء من قواته البحرية الخليج. شعرت بالخوف من محمد لأول مرة. وأخيراً سيحاصر المدينة التي تقاوم ببسالة من البحر أيضاً. فكرت بقسطنطين. ترى هل شاهد عند استيقاظه من النوم من نافذته السفن التركية، وهي توجه فوهة مدافعها صوب قصره؟ ربما يكون في تلك اللحظة بين ذراعي حسناء، يغط في نوم عميق بعيداً عن وحشية الحرب. ربما ذلك أفضل. لا تستيقظ ياصاحب الجلالة! لا ترفع رأسك المتعب، المكدود، السيئ الحظ من فوق النهدين الناعمين، ولا تنظر إلى الخارج أبداً. استمر في النوم مثل القنفذ في فراشك الدافئ. واصل نومك الهنيء. متعك الرب بالراحة، وهدوء البال!

عندما عدت إلى المعسكر، لم أكن أصدق ما رأيت. ربما كان حلماً كل ما رأيته، وليست حقيقة. فالسفن يجب أن تكون في الأماكن التي ألفت فيها مرساتها. لم

أستطع في نهاية الأمر أن أقضي على فضولي، تسللت سراً إلى الخيمة التي سيجتمع فيها ديوان الحرب. لم يكن الباشوات قد حضروا بعد. ولم يكن السلطان موجوداً. كان دورسون بك جالساً القرفصاء يعد منهاج الديوان، مسجلاً شيئاً على السجل الضخم الموجود أمامه.

كان منكباً على عمله بحيث لم ينتبه إلى وجودي. اقتربت منه، ووضعت يدي على كتفه. لم يهتم. نظرت من فوق كتفه إلى السجل الذي أمامه. كان ما يسجله لا علاقة له بالاجتماع. عندما دققت النظر رأيت أنه يسجل يوميات الحصار. إذن دورسون بك بدوره يسجل يومياته مثلي. هو أيضاً يود أن تبقى شهادته عن أيام الدم والنار للأجيال المقبلة. هتفت به:

– دورسون بك! يقال إن سفننا تنتقل بأمر السلطان من بحر إلى آخر. هل ذلك صحيح؟

أجفل فجأة. ازداد حيرة حينما التفت ورآني خلفه. لم يكن ينتظر أن يرى غلام محمد في خيمة ديوان الحرب على ما يبدو.

– وماذا يهمك في ذلك يا أمرد! هذه أمور لا تهمك.

ألححت عليه:

– دورسون بك، قبل لحظة رأيت ذلك بأم عيني. كانت السفن تنقل على زحافات إلى الخليج من البر.

جلست القرفصاء إلى جانبه. شرحت له كل شيء. كيف أن سفينتنا غرقت إثر قذيفة أطلقت عليها من قاطع البسفور، وكيف أن القبطان ريزو قضى نحبه فوق خازوق. حدثته عن أيامي في قصر جهان امة. ذكرت كل ذلك بنفس واحد. ذكر لي أن كل ما قلته ليس مهماً فهو مكلف بكتابة تاريخ فتوحات السلطان محمد، وأضاف:

– تذكر ما جرى بأسلوب جميل، لكنك تبقى ساذجاً. ولست مطلعاً على مجريات الأحداث.

وبدأ يتلو ما كتبه بصوت عال:

«كان جند السلطان يحملون سيوفهم حباً بالله، وحباً بسيدهم. وكان السلطان أبو الفاتحين يستعجل ساعة الوصال بالحبيب. كانت ضفة الشاطئ مغلقة، ولم يكن بالإمكان مهاجمة الكفار منها. وكان ذلك يقلق السلطان، بغية القضاء على هذا القلق أمر بنقل عدة سفن، وقوارب من خلف خطوط غلاطة، ومن بر البسفور إلى الميناء لإقلاق العدو وإنزال ضربة قاصمة به.»

«مع صدور هذا الفرمان، استعد المهندسون، والفنيون، وزينت السفن الإسلامية بالرايات، وفتحت أشرعتها وانطلقت في الهواء خلف خطوط قلعة غلاطة. ربما تكون قد حلقت. بهذه المهابة تم نقل هذا السلاح العظيم إلى ميناء البحر.»

إذن كان صحيحاً ما رأيته ولم يكن خيالاً! تم نقل السفن فوق زحافات تم تزيتها بشحوم الثيران والأكباش من تلال غلاطة حتى الخليج. حسناً ولكن كيف تم إنجاز هذا العمل؟ كيف يمكن تسلق التلال باثنتين أو ثلاث سفن ضخمة بمجانيقها؟ دون أن يعلم أو يحس سكان غلاطة بذلك؟ وكيف تمكن الأجراء والحيوانات التغلب على كل هذه الصعاب؟

لم أكن أنتظر رداً على تساؤلاتي من دورسون بك. فهو لم يكن يكتب الأسباب في تأريخه بل النتائج. وكان مثل بقية المؤرخين يكتفي بذكر النتائج دون الدخول في التفاصيل. «ربما حلقوا بها» أجل ربما لربما خلقوا بها بعد أن أضافوا إليها الأجنحة! لا أحد يستطيع أن يفهم ما حدث. فثمة كرامات للسلطان محمد في كل قرار من قرارته! شكرت دورسون باشا لمشاعره التي أبداها تجاهي، وابتعدت عنه. عندما خرجت كانت المدافع تقصف الأسوار مثل كل صباح. مادامت البحرية قد تسللت إلى الخليج، فإنها تحاصر البيزنظ من البحر. كانت نبوءة الكهنة على وشك أن تتحقق. المدينة لا محال ستسقط.

شممت الهواء المليء برائحة البارود. وكررت لنفسي أن كل شيء سينتهي «حينما تسقط المدينة سينتهي كل شيء» سأنحدر نحو الظلام. انتهى قسطنطين. حسن، وأنا؟ ماذا ستكون نهايتي؟ شعرت أن نهايتي لم تعد بعيدة. نحن في شهر

نيسان، وأنا في السابعة عشرة من عمري. لماذا يغمرني هذا التشاؤم! أنا في السابعة عشرة، ولا تزال هناك أمامي حياة طويلة.

٢٨نيسان ١٤٥٣

«أرعدت السماء حينما كشف عن الختم السابع». هذه العبارة عن الصمت المظلم الذي سيخيم قبل حلول القيامة. عبارة قالها القديس يوحنا. يستشف الظلمة في كل حرف من حروفها. أكررها رغم ذلك عدة مرات دون سأم. أكتبها حتى يزداد إحساسي بالصمت. سأكتبها حتى يجف الحبر في دواتي، والزيت في قنديلي. لأن كل شيء توقف هذه الليلة في لحظة، لف صمت عميق العالم كله. لم تعد السماء تسطع بالنجوم ولا البحر في الأرض. هدأت الرياح. لم تعد هناك نأمة. أجل صمتت حتى المدافع التي انطلقت منذ اليوم الأول للحصار. تماماً مثل نواقيس الكنائس التي تعودت على سماعها كل صباح وأصوات التكبير والأبواق والطبول والصنوج. أما هذه الليلة فليس هناك من صوت لا الهمس ولا الأنين وصوت تضرع أو حتى صهيل حصان. كما توقفت طقوس الدراويش. الليلة الكل وحده يناجي ربه. نحن في اليوم الثالث والخمسين، ولم تسقط المدينة بعد. ربما ستسقط غداً لأن الأتراك سيشنون هجوماً كاسحاً. الطرف الآخر يعلم ذلك، وقد أعدت عدتها لمواجهته. غداً ستشرق الشمس من نفس المكان. لكنني متأكد انه سيكون يوماً جديداً.

عندما وصلت البحرية التركية إلى الخليج، ظننت أنها ستحتل المدينة فوراً. لكم أخطأت في ذلك! لن تصمت المدافع منذ اليوم. ظلت على سفوح غلاطة والخليج. كانت تطلق قذائف بحجم أحجار الرحى من هناك على قصر تكفور، ووادي ليكوس، وكاليكاريا، وكاريسبتوس، ومن أمام بوابة آيوس رومانس فهدمت الأبراج، وأسقطت القلاع، وأحدثت ثغرات كبيرة على الجدران. لكن البيزنط سرعان ما أسرعوا إلى إصلاح الأسوار أعلن النفير العام بالنسبة للجميع شيباً وشباباً، نساءأ وأطفالاً، رهباناً ونبلاء وجنود. تمكنوا من تغطية الثغرات بما

وصلت إلى أيديهم من صخور، وبراميل وأعشاب وعصي، ونجحوا في صد الهجوم. لكن الهجوم استمر بالقلاع السيارة، واستمر هجوم الإنكشارية بسيوفهم المعقوفة، والمدنيين برؤوسهم الحاسرة، وأرجلهم الحافية هاجموا الأسوار لكنهم تقهقروا في كل مرة دون أن يتمكنوا من جمع أشلاء قتلاهم. امتلأت الخنادق بجثث القتلى من الجانبين. في هذه الفترة أنشأ الأتراك جسراً عائماً على الخليج من البراميل، والقوارب، والصناديق مواصلين طريقهم إلى إيوان سراي. هل في الإمكان نقل المدافع عبر هذا الجسر المربوط بمسامير ضخمة. بالتأكيد سيمر من فوقه الإنكشارية. أما بالنسبة للمشاة فقد سمعت انهم واصلوا العبور حتى الصباح. في حين أنه ليس بمقدور أحد ماعدا سيدنا المسيح من المشي فوق الماء. على كل حال هذا ما يشاع، وهو على الأقل يخفف من شعورنا بالضيق.

أصبحت في أيام الحصار الرتيبة شاهداً على مناظر وحشية قبل استعمال الجسور بدأ الأتراك بحفر أنفاق سرية تحت الأرض، لكن النفق الممتد من الأسوار حتى الخليج لم يلبث أن اكتشف قرب بوابة كاليفاري ثم تم اكتشاف بقية الأنفاق. قام البيزنطيون بخنق الجنود داخل الأنفاق بالدخان. دفنوهم أحياء ثم أهالوا عليهم التراب.

مع إطالة أمد الحرب ازداد عنف الطرفين. في هذه المرة لم يجد القبطان جاكومو قبطان سفينة طرابزون فرصة للهروب فقد أغرقها الأتراك، وهبطت إلى أعماق البحر دون أن يجد فرصة لطلب العون. وقد أجلس السلطان، البحارة الذين تمكنوا من الوصول من الوصول إلى الشاطئ سباحة على الخازوق. تمضي الأيام، والأسابيع وتتهدم الأسوار، وتتعفن الجثث في الأنفاق التي امتلأت بالمياه الآسنة، رغم ذلك لم تسقط المدينة.

وطال أمد الحصار.

أدى هذا الوضع إلى نفاذ صبر السلطان، وبدأ دعاة رفع الحصار من أنصار خليل باشا بالضغط عليه. أما زاغنوس، وآق شمس الدين، ومجموعة الدراويش فكانوا إلى جانب مواصلة الحصار جازمين أن سقوط المدينة مسألة وقت لا غير،

وأن دعم البابا لم يعد ممكناً. عادت السفينة الصغيرة التي أرسلها الإمبراطور لاستطلاع نبأ السفينة بقيادة جاكومو لوردن بنبأ سيىء. لم يكن في الأفق لا السفينة التي تحمل الجنود المدججين بالأسلحة والعتاد ولا سفينة المؤن. لم يكن في الأفق بالنسبة للبيزنط سوى سخط الرب. لكن محمدا رغم ذلك كان متردداً. كان لا يزال يعتقد أن البابا سيساعد البيزنطيين. ومما زاد من شكوكه حضور رسول ملك المجر إلى القصر معلناً له أنه قد تم تنصيب لاديسلاس ملكاً على المجر بدلاً من نائبه هو يناد، وأنه يعتبر معاهدة السلام المبرمة مع العثمانيين والتي أمدها ثلاث سنوات ملغية. ازداد قلق الأتراك من هذا التطور غير المنتظر فكان أن تم إيفاد قاسم اسفنديار اوغلو لنقل الشرط النهائي للبيزنطيين حماية لأرواح المواطنين، وهو الاستسلام دون قتال.

كرر قسطنطين قوله «لا يمكنكم دخول المدينة ما دمت حياً» رافضاً بذلك أن يستمع إلى نصائح المقربين له.

إنه يريد الموت. يا إلهي ما أكثر الذين يودون الموت! كيستينياني أيضاً مصر للدفاع عن المدينة حتى الموت الإنكشارية أيضاً أتوا للموت، وكذلك الدراويش، والمتطوعين. فهم يتلهفون لدخول الجنة قبل لحظة. لم يبق من يود الحياة غيري.

أجل أريد الحياة. لقد سئمت من هذه الحرب اللعينة التي لا تعرف الانتهاء. أريد ذلك حتى أدخل المدينة في نهاية الحصار، لأمتلك فيها امرأة. أجل لهذا السبب فقط الحياة مهمة بالنسبة لي. رغم أن الموت قريب مني بحيث أحسه داخل شراييني، نابضاً في قلبي في كل لحظة.

قبل أن يجمع محمد الديوان لإبلاغه بقراره، اعتكف في خيمته. طلب من حراسه أن لا يزعجه أحد. لم أخرج مع الخدم الذين غادروا الخيمة بأمر من السلطان بل اختبأت في زاوية منها. لم أر السلطان قلقاً بهذا الشكل من قبل. كان شارد الذهن على ضوء المشاعل يدقق في الخطط، والخرائط المبعثرة أمامه، وكأنه يبحث عن شيء ما بين أكوام الورق المبعثرة أمامه. يبحث عن نقطة مضيئة في المدينة يستطيع من خلالها فتح أبوابها، أو ربما يبحث عن معجزة. بعد أن جرب كل ألاعيب الحرب

حتى التي لا تخطر ببال أحد سواه. كان تشاؤمه واضحاً من سيمائه. كان جبينه البارز من تحت عمامته متغضناً، ونظراته تعبة. بقي هكذا لفترة يتأمل المدينة. بدا وكأن فمه صغر عما كان عليه. قسطنطينبوليس ليست مجرد خارطة على ورق. لا يزال جيشه أمام الأسوار، عاجزا عن اقتحام المدينة. لم يحن أوان الوصال مع المدينة. كنت متأكداً أنه يعيش في لجة العواطف التي أعيش فيها. لم يكن ثمة فارق كبير بيننا بالنسبة لهذا الموضوع حتى لو كان هو سيداً، وأنا مجرد عبد. كنا نشتاق معاً إلى المدينة. كان الألم يعصرنا شوقاً إليها. كنا نكتفي بالنظر إليها من بعيد. ربما يكون السلطان حينما كان أميراً قد رغب في رؤية قسطنطينبوليس، وربما الذين يحيطون به وقفوا حجرة عثرة أمام رغبته هذه. لكنه ربما تمكن بعد تنكره من التجول في أزقتها، ونزل داخل صهاريجها، وتناول في حاناتها ذات السقوف الواطئة الشراب. أنا متأكد من خلال نظراته أنه يعرف قسطنطينبوليس عن كثب. وهولا يعرف أسوارها فحسب بل يعرف حتى خطوطها الدفاعية. كان يبدو وكأنه في حلم. كانت نظراته شاردة فوق الخرائط التي كان يتطلع بدقة. كان يبدو، وكأنه نسي الحرب ونتائجها. كان في حلم، في شرك شوق ملتهب. لم أدر كم استمرت حالته هذه.

كان سارحاً في خيال قسطنطينبوليس، بينما كنت شارداً في أمر أخر. كنا قد نسينا الزمن. وفجأة انطلقت صرخات قرب الخيمة. كان الحراس يحاولون منع أحدهم من الدخول. توجه محمد صوب باب الخيمة فوجد أمامه أق شمس الدين. بدا الشيخ وكأنه نبت من باطن الأرض. «مولاي.. لم نستطع إيقافه»! طلب منهم أن يتركوا ضيفه. أومأ محمد لأستاذه بالجلوس. جلس الشيخ القرفصاء على بسطة، وأشار للسلطان بالجلوس أمامه. لم ينبسا بكلمة للحظات. ثم بدأ الشيخ بالحديث. كانت الكلمات تنطلق من فمه كلمة كلمة تماماً مثل حبات سبحته التي كان يداعبها:

- رأيت حلماً قبل قليل يا محمد. ستفتح المدينة!

لم يبد على السلطان الذي أعتاد على سماع مثل هذه التكهنات من الشيخ بين

حين وآخر اهتماماً بما قاله لكنه رغم ذلك وخشية أن يتأثر لعدم اهتمامه بما قاله قال:

– خير إن شاء الله! تفضل، وحدثني عن الحلم.

أغمض آق شمس الدين عينيه وقال، أن ضوءاً سطع في مرآة القلب ثم توسع الضوء، وانتشر في كل مكان.

وأضاف:

– كنا معاً يا مولاي في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم. استدعاك الرسول إلى جانبه. ذهبت إليه، وقبلت يده المباركة. انتزع من وجهه الشال الأحمر الذي كان يحجب به وجهه وقدمه لك قائلاً «إليك راية أيوب الأنصاري»! في تلك اللحظة غمر نور ساطع المكان. لم أتمكن من رؤية وجه الرسول الكريم. لكن الشال بمجرد انتقاله إليك تحول إلى راية خضراء.

كنت أتابع محمد. لاحظت تورد وجنتيه. لم أستطع معرفة السبب في هذا التغيير المفاجئ فيه. كان يبدو عليه الاهتمام الشديد. كان لون وجهه يتغير من لون إلى أخر كلما أصاغ السمع لأستاذه. كانت شفتاه ترتعشان، وكان آق شمس الدين يواصل الحديث.

– ها قد بدأت البشائر تظهر يا محمد! هل رأيت البدر؟ هل رأيت الظلام المطبق ليلة أمس رغم عدم وجود قطعة سحابة واحدة في السماء؟! يقول الله في كتابه العزيز في سورة القمر «اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر.» أتعلم أن نبي آخر الزمان سيدنا محمد المصطفى حينما قال له المشركون «أرنا دليلاً على نبوتك»! قسم القمر إلى نصفين، ووضع كل جانب في جهة أخرى. ثم جمع بينهما فيما بعد. وقال الرسول الكريم «لن يقوم الحشر حتى يقوم جيش تعداده سبعون ألف جندي مكبرين في القسطنطينية. أقسم بالخالق أنكم ستغنمون كنوز القيصر»! هل كنت تعرف كل ذلك؟ عليك يا محمد أن تكون لائقاً بحمل اسم رسول الله. لقد بدأت البشائر، وأزف أوان البشرى. لقد سمعت أن الله تعالى سخط على الرهبان الذين يتجولون في حواري بيزنطة حاملين

صورة ضخمة للسيدة مريم. أرعدت السماء في تلك اللحظات، وسقطت صورة العذراء على الأرض، وبعد لحظة اختفت الصورة. هذه إشارة أن أمنا مريم لم تعد تحمي المدينة.

لم يكن الشيخ يود السكوت بل استمر يواصل حديثه عن العلامات القادمة من عالم الغيب. وكان يرفع من صوته، كلما رأى تأثر محمد بحديثه. لم تعد الكلمات تنطلق من فمه كلمة كلمة بل أصبحت مثل صخور تنهمر من مرتفع إلى منخفض. قال مواصلاً حديثه:

– المهم يا مولاي هو وجود ضريح خالد ابن أيوب الأنصاري المبارك الذي أكرم وفاد الرسول عندما حل ببيته أثناء الهجرة إلى المدينة بين ظهرانينا في مقر جيشنا المظفر!

أرتعب محمد، وبدا وكأنه يصحو من حلم:

– ماذا يعني ذلك. هل ضريح مولانا أيوب الأنصاري موجود هنا؟

– بالتأكيد. ضريحه هنا بين الخليج، ومقر قره جه بك.

لم يبد عليه أنه يصدق تكهن أستاذه الأخير. وهنا أخذ أق شمس الدين يتحدث عن مدى ارتباط أيوب الأنصاري بالرسول، ومشاركته في كل الحروب التي كان يقوم فيها برفع راية الإسلام فوق قلعة الكفار ثم قال:

– تعلم يا مولاي. أن أهالي المدينة خرجوا عن بكرة أبيهم لاستقبال الرسول عند تشريفه المدينة. متسابقين فيما بينهم لاستضافة رسول الله. لكن الرسول ترك الخيار لناقته التي وقفت في أرض مالك ابن نجار الخالية ثم قامت من هناك ووقفت أمام بيت خالد ابن زيد أبو أيوب الأنصاري. حل الرسول ضيفاً عليه لمدة سبعة أشهر وأمر ببناء أول مسجد للمسلمين في المكان الذي وقفت فيه الناقة لأول مرة في أرض مالك ابن نجار.

ما أعذب حديث الشيخ! نسيت كل شيء. لم يبق في خاطري الحرب، ولا رطوبة أول ليلة من ليالي الربيع كنت أصغي لما يقوله أق شمس الدين دون توقف:

– هل تعلم يا مولاي كيف احتل المسلمون قلعة خيبر؟ عندما أقام الجيش

معسكراً أمام الأسوار، كان المسلمون خائفين من ارتفاع الأبراج. قامت السيدة عائشة بتعليق حجابها الأسود على طرف سيفها. وحينما بدأ الإمام علي بالهجوم. من الذي حمل الراية؟ أيوب الأنصاري بطبيعة الحال. وعندما تم فتح قلعة اليهود، وقتل قائدهم ظل أيوب الأنصاري يحرس حتى الصباح الخيمة التي تزوج فيها الرسول من ابنة قائدهم المقتول صفية حتى الصباح. كما أنه هو الذي أخرج التمرات من بيته وتقاسمها مع الرسول. وحينما رأى الرسول أن الطعام الذي في قدره لا يكفي لإطعام ضيوفه بصق فيه ليكفي ضيوفه كي لا يشعره بالخجل أمامهم. هذا الشخص التقي عاش بعد وفاة الرسول عهود الخلفاء الراشدين. لا تكفي مئات الكتب لذكر مآثره. في النهاية قدم أيوب الأنصاري إلى هنا يا مولاي حاملاً السيف رغم شيخوخته. لأنه كان يعلم علم اليقين أن لا نصر دون خروج السيف من غمده.

نطق الشيخ جملته الأخيرة مركزاً على مخارج الحروف. كان السلطان يصغي إلى قصة أيوب الأنصاري بفضول:

– كان الجيش يحارب بقيادة الملعون يزيد، ولكن المدينة كانت تقاوم كما هي الآن، وقد نال دليل سيدنا الرسول مرتبة الشهادة، أوصى أن يدفن على مرتفع هنا حتى لا يكون قبره عائقاً أمام جيش الإسلام الذي سيفتح القسطنطينية. لذلك لا يعرف أحد من ذلك اليوم المكان الذي يرقد فيه سيدنا أيوب.

– في الحقيقة لا يعرف أحد ذلك. هل اكتشفت في الحلم مكان الضريح؟

– أجل اكتشفت مكانه. أنه يقع بين الخليج ومقر قره جه بك.

وكمن يريد تكذيب أستاذه قال:

– حسن. لنذهب إذن ونبحث عن مكان القبر تيتي.

تبعتهما عند خروجهما من الخيمة برفقة حارسين. كان محمد يبدو متلهفاً، لذلك كان يسرع في المشيتي بينما يحاول الشيخ اللحاق به. لكنه كان يتعثر كثيراً في الظلمة. بعد أن انطفأت المشاعل. كان الجنود قد اخلدوا للراحة. وكان الخفراء يقفون باحترام عندما كانوا يرون السلطان برفقة حراسه. قال آق شمس الدين:

- ها هوذا.

أمر محمد حراسه بحفر المكان الذي أشار إليه أق شمس الدين، والذي ما لبث أن قال معترضاً:

- لا تحفروا فوراً تيتيتي. يجب أن أصلي ركعتين.

أخرج سجادته، ووضعها على الأرض الندية. بدا التوتر واضحاً على ملامحه على ضوء المشاعل المنيرة. كان يزفر من منخريه مثل ثور هائج. أطال الشيخ أمد الركعتين، وكأنه يريد أن يقيس درجة غضب السلطان. غمغم قائلاً:

- علينا تلاوة سورة الفاتحة قبل فتح ضريح سيدنا أيوب المبارك.

رفع محمد وحارساه أيديهم إلى السماء، وبدأوا بقراءة الفاتحة. كنت قريباً منهم أرقب بفضول ما يحدث فكرت للحظة أن علي أن أشاركهم قراءة الفاتحة. لكن كان علي أن أكون حذراً حتى أتمكن من الانسحاب في الوقت المناسب. لم أقرأ الفاتحة. حسناً فعلت بذلك، لأن أحد الحراس أخذ يبحث عن فأس ومسحاة. فما كان مني إلا أن ألقيت نفسي خلف شجرة الدلب. مرّ الحارس من أمامي دون أن يراني ثم اختفى بين الخيام لكنه ما لبث أن عاد أدراجه حاملاً الفأس والمسحاة تي.بدأ بحفر المكان الذي أشار إليه الشيخ أق شمس الدين.

رغم نداوة الأرض إلا أنها لم تكن رخوة. استمر العمل طويلاً حتى أوشك صبر السلطان على النفاذ. لكن الشيخ كان منشغلا بترديد الأدعية، وهو يتطلع إلى السماء، وكأنه يسخر من السلطان. وفجأة أصاب الجميع الفزع على أثر صراخ الحارس. بينما كان الشيخ محافظاً على هدوئه. على بعد ثلاثة أذرع تم العثور على صخرة مربعة، خضراء. تأملها السلطان ثم ألقاها في الحفرة، وهو يقول:

- إنك إلى حق يا أستاذي. مكتوب هنا بالخط الكوفي هذا قبر أيوب الأنصاري.

رد عليه الشيخ بصوت مبحوح:

- لقد قلت لك ذلك يا محمد. ليتهيأ الجيش للهجوم العام. سيكون النصر حليفنا.

على أثر هذا الحادث اتخذ السلطان قراره النهائي. ابلغ المنادون جميع مقرات

الجنود بالاستعداد للهجوم العام وبدأت الاستعدادات فوراً.

كانت الليلة حالكة السواد بحيث لا يمكن لسهم أن يمرق إلى الهدف. لم تكن في السماء إلا نجمة واحدة. كان الجميع مستغرقاً في النوم. لا ثمة صوت، ولا نفس. أوراقي على وشك النفاذ. لم يبق ثمة مكان للكتابة عن فتح القسطنطينية. هذا إذا تم فتحها. لا أعلم هل أستطيع مواصلة الكتابة فيما لو سقطت المدينة غداً؟ ربما ستكون لي مشاغل أخرى. ليس من المنتظر أن يكتب نيكولو ابن المرحوم دومينيكودي ماستري المعروف بالغلام سليم ويسجل كل ما يراه. بل أن عليه أن يشارك في الحرب، وينال حصته من الغنائم، وينتقم من قسطنطينبوليس.

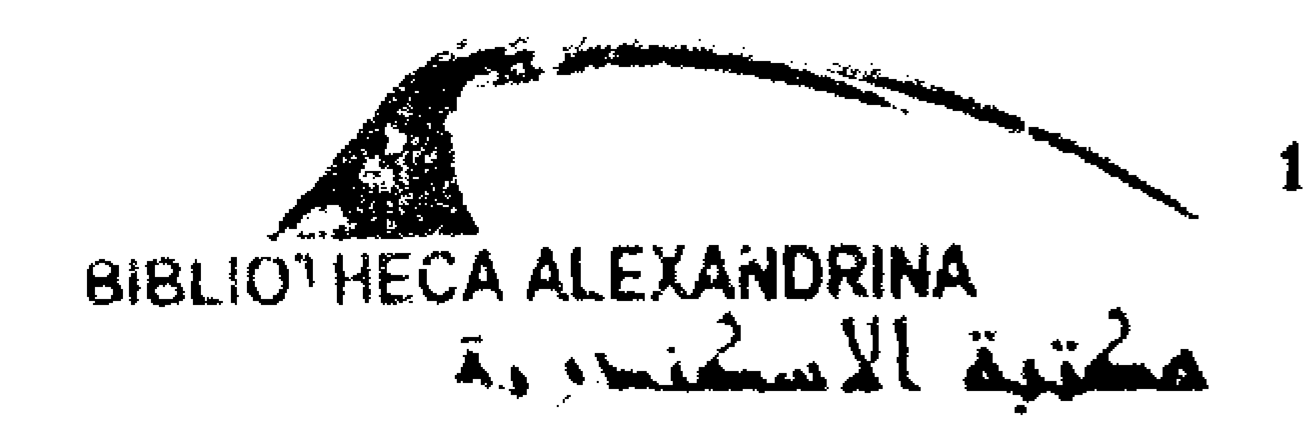
فجأة أضيء المكان. بدأت المشاعل التي أضاءت الليل كالنهار الساطع، تشتعل في كل مكان. انعكست الأضواء على الخليج وغلاطة وبيرا. انبلج الشفق قبل أوانه. لو قتلت فليذكرني بالخير كل من يعثر على هذه اليوميات، وأن لا يبخل بدعائه على نيكولو سليم.

-٧-

إلى هنا تنتهي يوميات كاتب الرحلات. وهذا لا يعني بالتأكيد نهاية حياة نيكولو مع نهاية ما كتبه. في الحقيقة لم أقرر ما إذا كان على قيد الحياة أم لا. فأنا أعلم أن حياته كما هي مرتبطة بكلمة تنطلق من بين شفتي السلطان فإنها أيضاً مرتبطة بإرادتي ورغبتي. ففي وسعي قتله في الحال أو تركه يعيش ثلاثين عاماً أخرى. أستطيع كذلك بفضل يومياته أن اعلم بالمؤامرات التي تحاك في القصر، وبين حرم السلطان. في الحقيقة لا أود قتل نيكولو، وهولا يزال في ريعان شبابه. لكنه يريد القيام بأعمال أكبر من طاقته. فهو يريد أن ينال أول امرأة في حياته عنوة، وليس برضاها. انه مصمم على ذلك منذ وقت طويل. مصمم على الظفر بامرأة بيزنطية ذات جسد بض. هذه أعمال خطيرة لذلك ليس بوسعي أن أوفر له حياة آمنة، لكنني رغم ذلك لا أريده أن يقتل دون أن يكون قد لمس امرأة في حياته. لكن أحداً لم يمت في هذه الرواية بأجله. يجب أن تنتهي - قاطع البسفور - في يوم ما قيل أن تنهيني أنا، وقبل أن يحكم علي بالسجن المؤبد في القصر البحري، وإلا فإن الملل سيدب في نفوس الجميع. عند انتقالي من محور انطونيو ريزو أو إلى ذكرياته في البندقية، أعلم أنكم تترقبون نهاية نيكولو لكنني قلت لكم انه شغل ما يكفيه من حين، ولا يمكنني إعطائه صفحات أحرى. لقد قتل نيكولو بطعنة خنجر.

لإحدثكم عن ذلك بإيجاز:

عندما بدأ الهجوم العام على المدينة، كان نيكولو سليم يتابع المعارك بالقرب من السلطان. كانت المدافع تدك الأسوار. كانت الأسوار تتهدم، والنيران، والأحجار تنهال من السماء. تم الهجوم في الوهلة الأولى بالأسلحة الخفيفة. وقد تمكن البيزنطيون من صده خلال فترة قصيرة بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة. كان بينهم النساء والأطفال الذين لم يعدوا يكتفون بإعمار الأسوار بل كانوا يشاركون في القتال أيضاً. بدأ قتال مرعب العين بالعين والسن بالسن. كان محمد يهدف إلى انهاك الدفاعات حتى ينزل الضربة الأخيرة بالعدو بقواته التي لم تخوض المعارك



بعد. بدأ هجوم جديد من جهة الخليج، وبدأ الجنود الذين عبروا من السفن إلى الشاطئ بتسلق الأبراج بسلالم طويلة. لكن هذا الهجوم لم يحقق أهدافه. فقد حارب الجنويون بقيادة كيستينياني، وجنود البندقية بقيادة الأخوين كواجاردي ببسالة لا تقل عن بسالة، وتضحيات جنود بيزنطة. بعد انسحاب جناح الهجوم الأول متكبداً خسائر فادحة، تحرك جنود الأناضول بأسلحتهم الثقيلة أمام بوابة أيوس روماندوس محاولين النفوذ داخل الأسوار عبر الثغرات الكبيرة فيها. كان العرفاء في الصفوف الخلفية يطيرون رقبة كل من يحاول الفرار من المعارك، أما من يحاول الهرب إلى الخلف فكان غالباً ما يلفظ أنفاسه تحت وابل السهام والنيران. اضطر المهاجمون إلى الانسحاب متكبدين خسائر فادحة لكنهم مقابل ذلك تمكنوا من كسر مقاومة الطرف الآخر. كان السلطان يتابع من فوق حصانه الأبلق، وهو يعمل على كبح جماح حصانه الذي يريد الانطلاق نحو الأسوار. وكان من جانب أخر يشد من أزر المقاتلين بكلمات حماسية. قاطعاً الوعد بمنح العطايا للمقاتل الذي يرفع الراية الخضراء فوق أسوار المدينة. بدأ نيكولو يشعر بالسأم. فلم تكن الحرب في نظره إلا مذبحة، ومحرقة للبشر. محال سقوط المدينة حتى لو امتلأت الخنادق الواقعة ما بين السورين بالأشلاء، وتراكمت فيها الجثث كالجبال.

بدا لنيكولو أن الحرب ستستمر لسنوات طويلة دون نهاية. سيتبع كل هجوم صد من الطرف الآخر حتى مقتل أخر جندي. غمغم في نفسه قائلاً «إلهي ما هذا العبث! تحولت الدنيا إلى آلة حرب تطحن البشر كما تطحن الرحى القمح.» حاول أن يتذكر أيامه السابقة. رغم سكون البحر، ورتابته إلا انه كان يبدو أكثر سحراً من الحرب. فهو مختلف في سكونه كما هو مختلف في هياجه، يصبح حالكاً في مشارف بونتوس، وفي مدخل البسفور يكتسب اخضرار الزمرد، ويسطع قرب أيا صوفيا. فجأة ظهر ضباب قرب قصر دوكلر عند أبواب البندقية. كانت الغيوم تنتقل في السماء بسرعة الأشرعة، وفي البحار المفتوحة كانت الحيتان تتابع السفن، وكان البحر يتغير من لون إلى لون. لماذا لا تتشابه السماء والبحر، وكذلك

المدن والبشر؟ لم يكن هناك إلا الحرب التي تعيد وتكرر نفسها. الحرب التي كان القبطان ريزو يكرهها وكذلك أصوات التكبير والمدافع التي ترعد، والأسوار المتهدمة، والرقاب الطائرة، والدماء التي تسيل دون انقطاع، ورائحة الجثث المبقورة، والأطراف المقطوعة. هذه الروائح التي تتغلب على أريج الربيع. لم تعد الأرض تفوح برائحة المطر، ولم تعد الأشجار تخضر.

لن اتحدث هنا طويلاً عن ما لاقاه البيزنطيون من تقتيل وتذبيح على يد الأتراك عندما فتحوا باب المدينة على مصراعيها، ولا عن النهب الذي جرى للمنازل، والأديرة، والكنائس، ولا عن الرهبان الذي سقطوا مع الجمع المذعور قرب عواميد القسطنطينية، ولا عن يقين الأتراك الذين توغلوا المدينة انهم سيتوغلون حتى إلى أخر شجرة في أعماق أسيا، ولا عن مأساة الشبان، والرهبان، والفتيات الذين اسروا مثل قطيع من الخراف، وهم يحاولون الفرار، والوصول إلى السفن عبر الجثث المتراكمة في الأزقة، ولا عن دخول السلطان محمد المدينة بعد ثلاثة أيام من السبي ونهب الغنائم، وقيامه بقتل جندي من الإنكشاريين عندما رآه وهو يحاول انتزاع رخام الكنيسة على اعتبار أن (صخور المدينة هي ملك للسلطان) أو سماعه بين أنقاض قصر بلهارنا وركامه ملك الوحي وهو يردد هذا البيت بالفارسية «البوم ينعب في قبة أفراسياب / العناكب تنسج خيوطها في قصر القيصر.» كان هدفي من كل هذا هو كتابة جملة طويلة وكفى. لو تحدثت عن كيفية إصابة كيستينياني ومغادرته المدينة بعد إصابته بجروح بليغ وموته على ظهر سفينته، والجندي الذي طير رأس الإمبراطور قسطنطين الذي حارب حتى كسر سيفه، حيث تم التعرف عليه بفضل حذائه الأرجواني، وكيف عرض رأسه المقطوع بعد أن وضع على رمح لعدة أيام. لا يذكر ذلك المؤرخون البيزنطيون وجنوه بل المؤرخون العثمانيون الذين رافقوا السلطان خلال الحملة. لو واصلت هذا الحديث لربما سينفذ صبر من ينتظر نهاية نيكولو، لذلك أود الحديث عن الغلام سليم وإلا فلا يمكن أن ينتهي الحديث عن حقائق فتح استانبول. الحقائق فقط؟ بل الأساطير، والأكاذيب التي تم اختلاقها فيما بعد من استقبال البيزنطيات

للسلطان بملابس العيد وبباقات الورود عند دخوله المدينة للمرة الأولى. للوهلة الأولى ظنن أن أق شمس الدين هو السلطان بعد أن رأوا السلطان وهو يقبل الطين المتطاير من حوافر الحصان الذي كان يمتطيه الشيخ. كما أستطيع كتابة أسطورة الأسماك الحمراء، وقصة الأسماك ذات الزعانف البيضاء، وقفزها من مقلاة أحد الرهبان عندما كان يستعد لقلبها عند سقوط المدينة. وقصة دخول السلطان للمدينة من بوابة أيوس رومانوس يحيط به جنوده المدججين بالسلاح متقدماً نحو المدينة يتبعه الوزراء والباشوات والعلماء راجلين بينما السلطان وحده يعتلي حصانه. وكما يقول دورسون بك فإن السلطان شرف المدينة بحضوره هذا، وكان يسير وكأنه في الفردوس. ثم يدخل السلطان أيا صوفيا الذي وضع أساسه الأنبياء بلعابهم حيث يبدأ بتدوير البناء بإصبعه. انظروا إلى الرخام المعروق تعلمون ما أقصد. فالثقب الموجود في الرخام الأبيض هو أثر إصبع حضرة السلطان. أجل كنت أرغب أن أروي كل هذا بالتفصيل، لكنني أجد نفسي مسؤولاً عن نهاية قصة سليم نيكولو إلا لكنني مضطر للحديث عن موته دون أن أتطرق للمزيد من الأساطير والخوارق.

وسط الهرج والمرج الذي ساد، لم يبق نيكولو إلى جانب السلطان - نستطيع أن نقول عنه الآن محمد الفاتح - بل سار نحو قسطنينبوليس بعد أن سمح السلطان لجنوده بالحصول على الغنائم لمدة ثلاثة أيام حيث التقط سيف أحد الجنود العثمانيين من القتلى، ولبس درعه، ووضع طاقيته البيضاء على رأسه. بدأ يتجول في البيوت بيتاً بيتا. صادف في النهاية قصرا صغيرا يطل على الخليج. أحس بالفرحة فجأة. دلف إلى الداخل عبر درجات سلالمه الصخرية دون أن يلتفت لهياكل الأسود المنصوبة أمام الباب. حينما دخل إلى الداخل شاهد أن القصر قد نال نصيبه من السلب والنهب منذ أمد طويل. فكر في الخروج. لكنه أحس في أعماقه بهاتف يدعوه للصعود إلى الطابق العلوي. هل كان هذا الهاتف صادراً من جسد امرأة أم من ملاك الموت الذي صادفه لأول مرة في حياته قرب الأسوار؟ كانت ثمة شمعدانات محطمة، ورياش قد تم نهبه، ورغم ذلك كان القصر ينبئ المرء

أنه كان في الماضي مسرحاً للثراء. كانت غرف القصر الواسعة ذات سقوف عالية جداً. ثمة سلم خشبي يمتد من الردهة حتى قبو للنبيذ، وسلم أخر يؤدي إلى الطابق العلوي. صعد إلى هناك. تجول في جميع الغرف الواحدة تلو الأخرى. لكنه لم يصادف فيها أحداً. كانت ثمة شقوق في الجدران. في الخارج كان القتال يدور فوق الأسوار المطلة على شاطئ الخليج. كان جنود نونتراس يصدون هجوم البحارة من الأبراج. أحس نيكولو بالسأم، والشوق إلى البندقية. تخيل نفسه فوق جسر ريالتو متطلعاً إلى مياه القناة الكدرة. كم كان وسيماً بلباسه المصنوع من القطيفة الحمراء وقبعته! كان رشيقاً أسمر، طويل القامة مثل أبيه. فكر في بيتهم، والنقوش التي كانت تزين الغرفة التي كانت أمه تنام فيها. أحس للحظة بالذعر حينما تذكر جثة أبيه الدامية الممددة على الفراش. كان يتذكر لأول مرة ذلك المنظر المخيف بهذه التفاصيل. كانت أمه تبكي قرب الجثة. وكان في الأرض ثمة خنجر تلتمع علي نصله قطرات من الدماء. لم يتسن له أن يعرف لماذا قتل أبوه في وضح النهار على فراشه. كما لن يتسنى له أن يعرف أن لأمه عشيق مثل العديد من الأسرار التي رافقت طفولته كعدم القبض على القاتل أبداً، ومثل دخوله إلى الغرفة، واختبائه في الخزانة. لن يتسنى له أن يعرف أن أباه الممدد كجثة دامية في الفراش هو في نفس الوقت نبيل من أسرة عريقة. كان الضباب المحيط بطفولته مثل الضباب الذي يحجب وجه المدينة في بعض النهارات. في مثل هذه التي الأيام ينطلق فيها صوت البوق في أزقة المدينة الضيقة وينتشر صداه تحت الجسور، وفي فناء البيوت، وحتى أعمق زاوية في الغرف التي يختفي فيها العشاق والقتلة.

ربما تذكر نيكولو بعض ما يتعلق بطفولته في تلك اللحظة لكنه لم يعرف في أبداً السبب وراء دفعه للعمل في سفينة ريزو. كان الهدف هو إبعاد لقيط النبيل من البندقية ليس من أجل أن يساهم في تحمل نفقات المنزل.

ذكرت إنني سأتحدث عن نهاية نيكولو باختصار، بينما الآن أحاول التحدث عن ذكريات طفولة منسوبة إليه.

خاصة حينما وصل كل شيء إلى النهاية. لم يكن ملاك الموت بعيداً عن نيكولو

سليم. بل كان يمد منجله له مثلما فعل بالنسبة لجميع ضحاياه في المدينة.

اقترب نيكولو من الشباك، وألقى نظرة على الخارج. مرت سفينة جنوية من الخليج. تبعتها سفن أخرى.

إلا أنها سرعان ما اختفت في الميناء. لم يستغرب نيكولو كثيراً من مرور السفن بل أثار استغرابه عدم اعتراض البحرية العثمانية لطريقها. لم يكن يعلم أن حمولة السفن من الغنائم، والأسرى قد ازدادت بحيث أفقدتها القدرة على سرعة الحركة والمناورة.

لم يلبث هناك طويلاً، هبط السلالم، وعندما كان على وشك الخروج تذكر أنه يجب أن يلقي نظرة على قبو النبيذ. أحس قرب السلم الخشبي بقوة جذب غريبة. أهو ذلك النداء الذي لا يمكن أن يسمعه إلا البّحار. هل هو نداء حورية البحر أم هو صوت الدم؟ هبط درجات السلم بهلع وسرعان ما وجد نفسه وسط ظلام. كان الماء يتسرب من الجدران، وكانت رائحة النبيذ تختلط برائحة التراب، والطحلب. لم ير لفترة سوى ظلال الدنان الكبيرة القابعة في نهاية القبو. بقي وجهاً لوجه أمام عينين خائفتين خلف أحد الدنان. قبض على صاحب العينين، وأخرجه من خلف الدن. أحس أنه يلمس لأول مرة يداً ناعمة، وجسد امرأة. ازداد وجيب قلبه. لم يواجه مقاومة حينما سحب المرأة من المكان الذي كانت تختفي فيه. في باحة الطابق الأول رآها وجهاً لوجه. استطاع أن يتفرس في وجه ضحيته. كانت ترتدي رداءاً أسود، وتحجب وجهها على عادة النساء التركيات بخمار أسود. كانت عيناها ظاهرتان فقط. عينان لا تحدقان بل تتطلعان بفضول. عندما أزال نيكولو الخمار عن وجهها، رأى أمامه وجهاً ساحراً، فاتناً كالبدر. همست من بين شفتيها المرتجفتين باليونانية:

– ارحمني.

أحس نيكولو في تلك اللحظة أن عالمه قد تهدم. هو الآن في المدينة وعلى وشك أن يحقق الحلم الذي راوده طويلاً لسنوات عديدة. أمامه امرأة شابة من لحم ودم ترتعش خوفاً. فهم أنه لن يستطيع أن ينالها عنوة.

- لا تخافي. لن يصيبك سوء مني.

قالت المرأة بدهشة:

- الست تركياً؟

ابتسم نيكولو وهو يتذكر الدرع، والطاقية البيضاء التي يرتديها. رد عليها هذه المرة باليونانية:

- أجل. أنا تركي، واسمي سليم.

كانت المرأة الشابة تبدو وكأنها في حلم. كان يبدو لها كالمعجزة أن تلتقي وسط الدمار والخراب بتركي ودود رقيق النظرات. تراجعت عدة خطوات ثم تناولت من صدرها سلسلة، وقدمتها له.

- خذ هذا، وارحمني.

ارتعش نيكولو عندما وقع بصره على الصدر الناهد في الثوب الأسود. ازدادت نبضات قلبه. أحس أن الحيوان الراقد في أعماقه قد استيقظ:

- لا أريد السلسلة بل أريدك أنت!

اختفى البريق الذي ظهر في عينيها قبل لحظات، وتجمدت علائم الفرحة في أساريرها. هجم عليها دون أن يأبه لتوسلاتها:

- اقتلني إذن. مادمت تطمع في شرفي الموت أفضل لي.

لم يهتم نيكولو بل هجم عليها، سقطا معاً على الأرض. أثار نيكولو مقاومة الجسد البض الراقد تحته. ازدادت رغبته للولوج في أعماقها بشهوة غريبة، طافحة لم يعشها مع محمد أو مع غيره. كانت المرأة تضطرب تحته. مد ساقيه الطويلتين متهيأً للظفر بها. عندما أخرج عضوه المنتصب ليولج به إلى جسد أول امرأة في حياته أحس بألم شديد في ظهره، سرعان ما سرى إلى جسده. أظلمت عيناه في الطعنة الثانية من الخنجر الذي كانت تمسك به المرأة. أحس برعشة، وكأن الحرب بدأت من جديد ثم تذكر لسبب مجهول ما انتصب في داخله هو. في الطعنة الثالثة سقط من فوق المرأة، وانساب الدم من فمه.

يجب أن تنتهي (قاطع البسفور) هذا اليوم. اجل يجب أن تنتهي. إنها نهاية

ألف عام من عمر البيزنط. عندما كتبت عن نهاية نيكولو بين نراعي امرأة، فكرت في نهايات القصص. نهاية هذا القص، نهاية مرحلة بل نهاية حب وحتى نهاية حياة. .. مع فتح استانبول انتهى عصر، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ العالم. إذن في حقيقة الأمر كان هذا الحادث نقطة تحول في حياة البيزنطيين! أتت دنيز بعد ليلة من كتابتي لفتح استانبول. لم تدق هذه المرة الباب بإصرار كالمرة السابقة.

* * *

لم أحس برغبة في مغادرة القصر البحري. تعودت على الوحدة وعلى دفء أيام أيلول، وكأنني هنا منذ سنوات. أنا هنا وحدي أمام منظر فريد يتغير في كل لحظة. تمر سفن، وناقلات ضخمة، وبواخر بيضاء لنقل الركاب، وقوارب.. البحر ذو الزرقة الصافية يتحول تحت شمس الظهيرة إلى خضرة الزمرد، وإلى لون الأرجوان في الغروب. الغيوم أيضاً متعددة الألوان، ومتحركة مثله. السيارات التي تعبر في الضفة الغربية من أمام برج خليل باشا.. تبدو في الليل تحت بريق الضوء الأحمر مثل حشرات مجنونة. كنت أحس بالضيق كلما تأملتها. كنت أحس بتوقف حركة الحياة، وأن الدنيا ليست إلا مجرد منظر فوق بطاقة بريدية مادمت لا أتحرك من مكاني.

كنت أعمل طوال النهار. لم أكتب إلا القليل من الأجزاء التي خططت لها. لم أكن أعرف إلى ماذا ينتهي القص والسرد. (قاطع البسفور) تبدو كصرة مرقعة أكثر من كونها رواية معاصرة، مفككة لا ترابط بين أجزائها. رغم عملي بنفس الإيقاع إلا إنني لم أحقق وحدة الأسلوب. ونظراً لعدم تطور الأسلوب في محور واحد، يبدو ما كتبته غير متوازن. فهناك اعترافات غير ضرورية مغرقة في التفاصيل. لم يفتني الوقت بعد، لأنني لم أضع النقطة الأخيرة. لكنني رغم ذلك لست متأكداً من انتهاء (قاطع البسفور) بالشكل الذي أريده. حالة عدم الثقة تصيبني بالقلق، وتحد من شجاعتي. ربما لن انهي روايتي أبداً. لهذا سأظل بقية عمري في القصر البحري. رغم انشغال ذهني بهذا التفكير إلا أن ذلك لم يقدني إلى الشعور بالتعاسة. علي العمل ثم العمل رغم كل مخاوفي وقلقي، وحينما أعمل يجب أن أترك نفسي لمياه

البسفور، وانسيابها الجميل. عندما كنت أعمل ضمن هذه الانسيابية، تغيرت دنياي فجأة. مع عودتها هي دارت الأيام.

هذا المساء حينما كنت منشغلاً بالعمل في غرفتي، تهيأ لي بأنني اسمع أصوات أقدام، وكأن أحدهم يصعد بخطوات مذعورة درجات السلم الخشبي. في البداية أحسست بخوف لا مبرر له. كان من الممكن أن يتسلل لص إلى القصر في مثل هذه الساعات. فتحت الباب مباشرة. لم يكن هناك أحد. عندما تقدمت نحو الإيوان أحسست أن أملي قد خاب. لا يمكن أن تكون هي. يكفي إنني بعد ممارستنا للحب في تلك الليلة وسط تأوهات متواصلة، وضعتها أمام الباب كالمطرودة. أصبت بالجنون يوم رحيلها، حاولت البحث عنها لكنني سرعان ما تخليت عن ذلك حينما تذكرت سبب وجودي في القصر البحري. قررت نسيانها. ونسيتها فعلاً. زالت ملامحها عن ذاكرتي كلما تعمقت في كتابة (قاطع البسفور.) لكنها الآن عادت تجول في مخيلتي. كم كنت أتمنى أن تكون هي القادمة تيتي. كان الإيوان والثريا المتدلية من السقف، والمقاعد المغطاة بالشراشف على نفس حالته ككل مرة. كان بريق البسفور المضاء بأضواء الضفة الأخرى ينعكس على الجدران. عندما اقتربت من السلم، وأخذت أنزل درجاته. كان الباب مفتوحاً. لم يكن هناك أحد. قررت البحث في كل الغرف والزوايا. لم يبق ثمة مبرر لذلك بعد أن رأيت شبح شخص على السلم الخارجي. كانت عيناه تبرقان في الظلمة. اقترب الشبح مني ثم ذهب من الباب الموارب.

أحسست بالراحة حينما رأيت قطة تفر في الظلام. خرجت، وأشعلت لفافة. مرت من أمامي باخرة مطفأة الأضواء. لم يكن فيها أحد. كانت متوجهة إلى بيكوز ليستقلها أول الركاب. في نفس اللحظة لمحت خيالاً في الشاطئ. كان يجلس على صخرة مكمن القوارب. اقتربت منه. رفع رأسه. كانت هي، دنيز. قالت بهمس:

– لم أشأ إزعاجك في هذه الساعة.

– الا ترين انك تأتين إلى هنا دائماً، وكأن ثمة من يطاردك.

لم ترد. جلست قربها. كانت ترتدي نفس الثوب الذي كانت ترتديه في لقائنا

الأخير. كان الثوب يكشف عن ساقيها البرونزيتين. طلبت سيكارة. اشعلتها لها. مجتها بنهم. عند الثانية انتصفت السيكارة. هكذا دخنت أيضاً سيكارتها في الصباح الذي استيقظنا فيه معاً. تأملت السقف قبل أن تطلب سيكارة ثانية. بعد فترة قالت «كم كنت أود البقاء معك هنا.» تلقيت عبارتها بأنها تعبير عن رغبة عابرة من الممكن أن تعيقيني عن عملي. بدوت، وكأنني لم أسمع ما قالته. الآن هي صامتة تحدق في أضواء الضفة الأخرى، وتدخن سيكارتها.

– هل أنت على ما يرام؟ ماذا عملت طوال هذه الفترة. يبدو انك كنت بخير مادمت لم تسأل عني. كنت في بيوت أخرى، وفراش أخر، أليس كذلك؟ مثل من يعاني من المطاردة!

شددت على عبارتها الأخيرة دون أن تنظر إلي. ضاغطة على مخارج الحروف (مثل من يعاني المطاردة):

– في زيارتي السابقة طرقت الباب بإصرار.

صحيح، كيف نسيت ذلك. تبادلنا النظرات في باب الحديقة الخلفية في الظلمة لأول مرة تماماً كما نحن الآن

– هذه المرة أنا مطاردة فعلاً.

أبعدت نظراتها من مياه البسفور المظلمة، وأخذت تنظر إلي. في تلك اللحظة مرت بالقرب منا باخرة ركاب أشعلت جميع أضوائها التي أضاءت نظراتها التعبة، ووجهها المرهق. داعبت شعرها، وتوقفت أصابعي عند رقبتها. كانت شفتاها ترتعشان. أردت تقبيلها. تمنعت في البداية. أحسست أن فمها الندي الكبير ليس راغباً مثل تلك الليلة. قطعت قبلتنا في منتصفها.

– انهم يتعقبونني. أرجوك دعني أختبئ هنا. لا أريدهم أن يقبضوا علي هذه المرة.

– ما هذا الذي تقولينه؟

– ألا تعرف؟

– أعرف ماذا؟

- أحقاً لا تعرف؟

- أجهل عن أي شيء تتحدثين.

صمتت للحظة. انتشر ظل ابتسامة مريرة على شفتيها. تمتمت في نفسها «من أين لك أن تعرف، وأنت لا تعيش في هذا العالم.»

- لقد عادوا من جديد! هذه المرة سينالون منا جميعاً.

أحسست بالفزع.

- هل حدث انقلاب؟

- أجل. لقد استولى الجيش على السلطة.

- متى؟

- ليلة أمس.. قرب الفجر جاءوا إلى البيت. لحسن الحظ كنت عند خالتي في كانلجا. منذ ذلك اليوم وأنا مختبئة. يوماً بعد يوم يضيق الحصار المحيط بي. يبحثون عني في بيوت المعارف، والأقارب بيتاً بيتا. اعتقدت إنني سأكون في مأمن هنا.

أجهشت بالبكاء. لم تكن تخشى السجن بل كانت تخشى التعرض للتعذيب كما تعرضت له في ١٢ مارس. هذه المرة لن تستطيع الصمود. قلت لها:

- لن يعثروا عليك هنا. هيا بنا تصعد إلى فوق.

مع دنيز لم تدخل حياتي امرأة فحسب بل دخل إلى حياتي عالم جديد أخر. عالم ١٢ أيلول. ١٩٨٠ حوصرنا بالبيانات المنطلقة من راديو الترانزستر. كانت بيانات مجلس الأمن الوطني تذاع تباعاً. تم إلغاء الدستور وأغلق البرلمان، والأحزاب السياسية، وأعلنت الأحكام العرفية. أديرت البلاد وفق أهواء خمسة جنرالات. عدت إلى سماع هدير الدبابات الذي نسيته في الماضي. بدأ الجيش بحملة لاصطياد البشر. القي القبض على زعماء الأحزاب، والنقابات. وتم شنق شباب في عمر الزهور. حينما كان الظلم والتعذيب ساري المفعول حتى إشعار أخر، كان يتم مصادرة الصحف والكتب. تجاوز ما يحدث ماسبق، وأن حدث قبل عشر سنوات في ١٢ مارت التي عشت وطأته شخصياً فجاءت مرحلة أكثر ظلماً، واستبداداً منها. كان المذياع يصرخ ليل نهار بتضامن الجيش مع الشعب، تنطلق وراءه أناشيد عسكرية. تتبعها بيانات المجلس الوطني التي لاتنتهي، ولاتنضب. أغلقت المطارات ومنع السفر إلا للباصوان. لم أعرف ما هو المقصود بهذه الكلمة الغريبة التي لم أسمعها من قبل. حينما سألت عنها دنيز، قلبت شفتيها

– غريب أن لا تعلم معناها وأنت ستكون أستاذا في جامعة باريس!

– فعلا لا افقه معناها. أصاب بالتشنج كلما سمعت المذيع يكررها بين دقيقة وأخرى passavan.. passavan ماذا يعني ذلك حباً بالله؟

– لا تخف يا حبيبي. لن يحصل لك شيء. أنت لست بحاجة إلى الـ passavan ستجد نفسك في باريس فور فتح المطارات قرب زوجتك الحبيبة التي تنتظرك بفارغ الصبر.

– ولكن ماذا تعني هذه الكلمة، قولي لي ذلك أولاً.

– ....

– سأصاب بالجنون! إنها عالقة في ذهني. تتكرر مثل اسطوانة مشروخة. هل هو شيء يشبه جوار السفر؟

- كم أنت معقد!

أجل أنا معقد. لم أعد أفكر بشيء غير هذه الكلمة اللعينة التي تتكرر في ذهني passavan , passavan, passavan

لكن دنيز مصرة على العناد في عدم الكشف عن معناها. في النهاية صرخت بها:

- إما أن تقولين لي ما معنى passavan أو سأغلق المذياع.

تجمدت السخرية على شفتيها، وبدأت عيناها الزرقاوان بالتحقيق معي. صرخت قائلة:

- لم يعد يهمك شيء بالتأكيد. وقوع الانقلاب، والدماء التي تسيل. سيدنا لا يهمه شيء غير نفسه. يعمل على تأمين مستقبله أكثر من أي شيء أخر.

فجأة انتابتها نوبة من الضحك. وبدأت بتقليد صوت المذيعة التي تقرأ بيانات المجلس الوطني، وكأنها تقرأ أحكام الإعدام لمستميعيها:

- من أجل أمنكم لا تستعملوا الـ passavan! تم ضمن سلسلة الأوامر الصادرة إيقاف العمل بالـ passavan إلى إشعار أخر. وسيتعرض المخالفون لهذا الأمر إلى أشد العقوبات.

كانت تسخر مني. كان ثمة يأس كامن وراء هذه السخرية. لكنها رغم ذلك واصلت قراءة البيان بصوت مشوب بالجد والسخرية في آن واحد.

- يمنع السفر إلى خارج البلاد، ويترك حرية التجول في الداخل لإلحاق الأذى بالنساء. بإمكان المخبرين من مواطنينا الاتصال على رقم الهاتف التالي لتلبية احتياجاتهم الطبيعية. الشاي من شركتنا* !

قاطعتها صارخاً:

- تعرفين ما معنى passavan ولا تقولينه لي..

- كفى يا هذا، كفى! باصوان باصوان! لا تخف لن يصيبك شيء. لن تحتاج إلى إذن مسبق للحصول على الأسبقية في السفر.

أحسست بالراحة فجأة. أخذت أهدأ. يا إلهي كيف لم استطع التخمين؟ وأسفاه! رغم إقامتي بباريس كيف لم أستنتج أن الـ passavan محرفة من العبارة

الفرنسية. passe-avant شيء لا يصدق! حسناً لقد تم حل المعضلة. سألتها:

- وأصدقاؤك أين هم الآن؟

شبت عاصفة من الغضب في عينيها. هاجمتني وهي تصرخ «أيها المنافق. » ثم بدأت تلكم صدري بيديها. عبثاً حاولت تهدئتها. استمرت في الفوران:

- passavan لقد سمح لهم بالخروج بالـ passavan وهم الآن يغردون في غرفهم بالسجن الانفرادي كالبلابل، وبينهم من انتقل إلى العالم الأخر. أحبائي يلفظون أنفاسهم تحت التعذيب. هل سمعت؟

كلا لم أكن أسمع. لا أريد وجود مذيعة تصرخ من الصباح وحتى المساء بيانات المجلس الوطني، ولا أريد أجزاء من روايتي (قاطع البسفور) التي لم انهها بعد.. الغموض.. منع السفر دون باصوان.. صرخت في وجهها:

- وأنت؟ هل تعرفين شيئاً عن مصير بليني؟ هل تعلمين متى سيرسم لوحة محمد الفاتح؟ ماذا تعرفين عن مصير الأمير مصطفى؟ أنا لم أكتب بعد وفاته، ولا وفاة محمدتيتي.

كانت مثل طائر مضطرب بين نراعي، ولكن أي طائرتي. كانت تنزل ضارباتها بي بقوة لم تكن متوقعة من جسدها الصغير. صرخت بها:

- كفي وإلا؟

- وإلا ماذا؟

- سترين ما أفعله.

لكنني سرعان ما عدت إلى مرضاتها بعد أن فكرت بأنها تقدمية مقدامة. لكنها واصلت هجومها علي. لم أعد أتحمل أخذت أضربها بدوري. بدأنا نتبادل الصفعات والركلات.

قربنا هذا العراك من بعضنا أكثر. أصبحنا نتشاجر فينا بيننا بين فترة أخرى. كان كل عراكنا وشجارنا ينتهي على الفراش. كنا نمارس الحب، وكأننا نخوض عراكاً. كنا نتضاجع في كل مكان. فوق المقعد في المطبخ، فوق المنضدة، تحت ظلال أشجار الدلب في الحديقة الخلفية. كما حدث وأن ولجت بها قرب مكمن

القوارب حينما كانت تتأمل البحر، وفوق الإيوان المغطى بالشراشف. كانت تمتطيني أحياناً مثل فرس مزبدة الفم، وأحياناً بخفر ونعومة فتاة في السادسة عشرة. حينما كنت أكمن فيها، كانت تغمض عينيها. وأحياناً كانت صرختها، وهي تبلغ الذروة من النشوة تهز القصر البحري. في تلك اللحظات كانت الثريا في الديوانية، والساعة الدقاقة في الغرفة ذات الشناشيل، وأقداح الشاي تأخذ بالإهتزاز. في تلك اللحظات النادرة التي لم نكن نقضيها في الشجار، كان القصر البحري برمته يتحول إلى مكان لممارستنا الحب. عندما كنت أخطط لكتابة (قاطع البسفور) كنت أنسى كياني بين الصفحات البيض. لكن ثمة امرأة صغيرة الحجم لكنها قوية، خشنة، ومحبة في نفس الوقت كانت تمارس سلطانها علي. هي التي تقرر متى يبدأ العراك أو يسود السلام بيننا، وتتحكم في أقل تصرفاتي أهمية. لا تفتأ تقول لي بين الفينة والأخرى «عليك الكتابة هذا اليوم»، «منذ الصباح لم تكتب حتى مِجرد كلمة.» وحينما كنت أتهيأ للخوض في عالم الرواية، كنت أحس بيد تداعب شعري ثم تدفعني من مؤخرة رأسي إلى الأمام. لو تركت نفسي لها لألتصق وجهي بالأوراق. لكن اليد التي كانت عازمة على مداعبة رأسي ثم صدري ما لبثت أن تهبط إلى ما بين فخذي. هذا ما كان يحدث في كل مرة. ما أن تلمس اليد تلك المنطقة من جسدي حتى أكون متهيئاً لممارسة الحب... مثل عبد ينتظر إشارة من سيده أو مثل كلب بافلوف الذي ينتظر نفس الإشارة. عند الاستيقاظ من النوم صباحاً، كنت أعيش نفس التوتر. حينما كنت استغرق في تأمل مياه البسفور، كانت اليد تداعب شعري ثم تمارس جولتها الصباحية بين فخذي. أثار من أول لمسة. كنت أدخل جسدها مثل سيف محدودب دون تبادل القبل والمداعبة. كانت في لحظاتها تلك تقبض على كتفي بشهوة، وتضغط ليس جسدي فحسب بل كل كياني فوق أنوثتها. ثم أترك نفسي على إيقاع تيار البسفور في اقتحام وتراجع متلاحقين. كنت أريدها أن تتألم أن تئن تحتي مع كل ضربة أنزلها بها. راغباً أن تكون كل ضربة أكثر إيلاماً من سابقتها، أن تكون أكثر طعناً وسكباً للدم. لكنني لم اكن أريد الموت لحبيبتي. بل كنت أريد أن نبقى هكذا جنباً إلى جنب متداخلين

فوق بعض، وتحت بعض. للتحرر من تأثيرها كنت أنهض، وأجلس لروايتي. كانت تلحق بي في كل مرة. كانت اليد تداعبني، وتهدئني في البداية ومن ثم... تبدأ اللعبة من جديد. وأتحول إلى جزء من جسد دنيز. كان هذا الشعور يلازمني في النوم أيضا.

وحينما كان يحدث، وأن أصحو على صوت صفارة باخرة.. كنت أجد نفسي فوقها، وهي تضغطني بلهفة فوق عضوها الأنثوي المتفتح بقوة جذب هائلة. كنت أجد نفسي أمام تلك الهاوية التي تدير الرؤوس مستعداً للقفز. في كل مرة كنت أعلم إنني سأتمزق إلى ألف قطعة لكنني كنت أترك نفسي لعري دنيز.

* * *

أنا أيضا تربيت على الشاطئ مثلك يا دنيز! استحممت عدة مرات في مياه كوك صو التي تحولت الآن إلى مستنقعات. مناخ البسفور هو الذي خطط شكل جسدي. أنا أيضاً تمددت على الرمال لكن طريقي كلما كبرت في العمر، امتدت إلى شواطئ أخرى، وإلى رمال بحار بعيدة. هناك رأيت المحيطات والجزر البعيدة. أثناء المد كانت الأمواج تقبل بسرعة، تغطي الشاطيء، وكانت النوارس تتجه نحو الصخور، وهي تطلق صيحاتها. كانت تعيد توازنها من جديد، وتلتقي المرافئ بالبحار. كان مد البحر أسرع من لمسة يد وأكثر إثارة للشهوة كان البحر يلمس جسدي العاري الملوح تحت الشمس ثم يتحرك مع طحالبه لاحساً كتفي.

الآن أترك نفسي لمياهك بعيداً عن تلك الرمال. ترتفعين في أعماقي ثم تحاصرين كياني. لا تبقين على شيء في داخلي. تحاصرين المنطقة الوحيدة في جسدي الذي أقوم بفضله بالتحرر من الخيال وأرتبط بالعالم. أجل أنت في كوابيسي ليل نهار. نسيت (قاطع البسفور) منذ زمن. أنهيت قدرتي على الكتابة، وزدت من قدرتي على الحب. في البدء أعددت برعماً ثم اقتلعتيها برياحك المجنونة. أنا الآن ملكك وحدك.

ما أغرب ذلك! لقد تحولت الرغبة في كتابة (قاطع البسفور) إلى قصيدة حب لذيذ. لكن يجب أن أحرر نفسي من تأثير هذه العاطفة البائسة. فأبطال روايتي في انتظاري. يومئون لي جميعاً من المرآة. يجب أن اصل إليهم من الجهة الأخرى، أن

أقبض على أيديهم، أن أتفحص نبضاتهم، وارسم مصائرهم. لم تعد دنيز تهتم بي بعد شجارنا الأخير. لم تعد تهتم بي كالسابق إلا عند ممارسة الحب. فهي تهبط منذ الصباح إلى الشاطئ، وتبدأ يومها في الاستلقاء عارية، متجرعة بظمأ الشمس قبل أن تحرم منها عندما يتم القبض عليها هنا، وترغم على قضاء بقية أيامها في سجن انفرادي. تتجرع الشمس أولاً بجسدها اللافح الجميل، وبعضوها الأنثوي الطافح من البكيني. أتركها وأخرج للتسوق.

اتبضع أشياء قليلة ولشخص واحد حتى لا أثير الشكوك. بعد العودة انشغلت في ترتيب البيت وإعداد الطعام وغسل الصحون إلى أن حل المساء. استغرقت في النوم بعد المضاجعة. نهضت من النوم فزعاً على أصوات صافرات الإنذار. خيل إلي أن أصوات الصفارات تهتف بصوت واحد، الموت، الموت، الموت.

* الشاي من شركتنا: تقوم بعض شركات نقل الركاب بين المدن في تركيا بدفع ثمن الشاي الذي يتناوله الركاب أثناء الاستراحة في بعض الأماكن، وخاصة عندما تستغرق الرحلة ساعات طويلة. «المترجم»

-٩-

أطارت صفارات السفن النوم من عيني. لم أر مبرراً لنهوضي من السرير لإلقاء نظرة من النافذة. من خلال الأصوات أعي ما يحدث. فهذه الصفارات المتقطعة التي تبدو وكأنها تنطلق من أعماق كهف، هي بالتأكيد لناقلة سوفيتية قادمة من مكان بعيد. وهي تتعجل للوصول قبل لحظة إلى جزيرة اوديسا. حيث ستلتقي بالمرفأ الذي تحبه. أما السفينة التي تطلق صفارتها، وكأنها تصرخ - هل كان علي أن أقول وكأنها تمارس الحب! - فهي لباخرة بايكوس، وهي تحمل أهالي بايكوز الفقراء والعاملين إلى الجسر صباحاً. تحمل أناس من بيوت فقيرة، وعمال الترسانات البحرية، وفتيات خافرات يعملن في مخازن لبيع الملابس. كنت سارحاً بانطلاقها وسط الظلام نحو مرافئ كانلجا. وتنطلق صافرة قارب صيد كان في الماضي قارباً للنقل.

الموتى من صغار السن، والمسنين، والشباب، والنساء، والرجال هم موتاي أنا. ثمة بارجة حربية، وسفينة طويلة، وقارب، وباخرة محملة بالشوق لا بالفحم الحجري. يقبل من بعيد صوت سفينة بيضاء مثل بياض طيور النورس. ثم هدير قارب صيد يرافقه سرب من النوارس. باخرتان تسيران في نفس الإتجاه في المضيق...

يظهر قارب أخر، وناقلة.. يشارك الموتى الصغار، والكبار في الجنازة بين صفارات السفن. يلفظ القبطان ريزو أنفاسه الأخيرة فوق خازوق حديدي، وخليل جاندرالي على يد الجلاد. أما رأس ماغادوك نونتراس فيسلم إلى الجلاد بعد أبناء محمد الذين طارت رؤوسهم الواحد تلو الأخر. أما راس محمود فيسقط على الأرض في سجن يدي قولة وقت انبلاج الفجر وتمتص الأرض دماء الوزير المتدفقة مباشرة. صحيح بأنني كنت أستعد للحديث عن أولاد نونتراس، والتعذيب الذي تعرض له محمود باشا. لكن كل القتلى، قسطنطين، وكييستينياني، وعشرات آلاف من الإنكشارية، وجنود بيزنطة، والأمير مصطفى الذي قتله قاتل أخرس

بإيعاز من محمود باشا – سأتحدث عن هوية هذا الرجل في الأجزاء الأخرى – محمود باشا والجلاد الأخرس يشاركان القتلى الرقص. يتماسكون بالأيدي جميعاً، ويرقصون كهياكل عظمية. أتأملهم بدهشة. يحاولون إشراكي في رقصهم. لكن دنيز تمنعني قائلة «أحتاج إليك حياً لا ميتاً»! تمسكني من كتفي، وتسحبني إلى الفراش. دائماً إلى الفراش. حتى حينما ارقد جوارها، تسحبني إلى فراش أخر. يبدأون الرقص الذي يقوده عزرائيل ممسكاً بالمنجل في يده حول نار مشتعلة. مع كل دورة تزداد سرعتهم، وعلى أصوات الصفارات يعيشون حالة من الوجد. مع كل دورة تزداد سرعتهم. يتقافزون في ذهني مثل دراوشة مولويين يرقصون السماح. تسرع معهم الأشياء أيضاً في زوايا القصر البحري. الثريا على وشك السقوط، المرايا تهتز. لا يرقصون في داخل القصر بل في عقلي، وخيالي الذين تعرضا للاحتلال. أجل للاحتلال.

طقطقة الهياكل العظمية تطغي على صوت الصفارات. الموت، الموت، الموت. الدرويش الحروفي يمسك بيد المعمار سنان يوسف الذي يمسك بدوره بيد اولوغ بك ضحية ابنه. كاتب الرحلات نيكولو يحيط بذراعه خصر اولوغ بك، وهو يخاصر بدوره نفلي التي ترضع أحمد أخو محمد غير الشقيق. لكن أحمد لسبب ما ينظر إلى شمسية الحسناء التي لم تقطع رقبتها بعد. تخلص سليمان منها بقطع رقبتها كما فعل مع أبيها أنكور. تماماً مثل الجارية إيريني البيزنطية التي كان السلطان محمد يعشقها بجنون. لكنني قبل البدء بهذه القصة، سأتحدث في مناسبة أخرى عن هيام محمد بالبيزنطية الحسناء بحيث لم تعد عيناه تريان شيئاً غيرها، ولأنه ازداد تعلقاً بها وبشكل أثر سلباً على اهتمامه بشؤون الدولة، فإنه لم يتورع عن قتلها بيده طعناً بالخنجر أمام أعضاء مجلس همايون الدولة. لم يرتبط بعدها بامرأة إلى درجة الوله. ما أجمل أن لا يشيخ أبطالي المقتولين،، أن يظلوا في نفس أعمارهم الذي قتلوا فيه.

مع عودة الهياكل العظمية إلى هيئتها الأصلية تسترجع أشكالها، ولون بشرتها. القبطان ريزو وسيم بقميصه الممتلئ بالرياح، كذلك الأمير مصطفى، ونفلي التي

تنافس شمسية في الجمال رغم أنها أكثر أنوثة منها لكن شمسية بدورها باهرة الجمال بأهدابها الطويلة، وحاجبيها اللتين تشبهان السهم، وأسنانها التي كاللؤلؤ النضيد. إنهما سمراوان لهما بشرة ناعمة، ونظرات حزينة. ليستا على استعداد للموت. ترغبان في الحياة بانطلاق. في هذه اللحظة يبرز كل من نيكولو، وريزو لكن محمد سرعان ما يلحق بعبده في غمضة عين. حسن، ألم يمت بعد! أبادر فوراً إلى إبعاده من حلبة الرقص الدائرة حول النار. الصفارات تصرخ الموت، الموت، الموت. أرد قائلاً «لا يزال هناك وقت للموت.» في هذه اللحظة يقوم خليل بمداعبة عضوي ريزو، ونيكولو.. وهنا أفتح عيني. العرق يغطي جسدي تحت الشرشف. أترك نفسي لمداعبة تلك اليد التي تقبض بقوة على عضوي. أود الصراخ مع ازدياد الضغط بصوت لا يشبه صوت صافرات قارب الصيد عند وصولها البسفور بعد رحلتها في البحر الأسود. لكن صوتي لم يكن مثل ذاك الصوت بل كان صوتاً مخنوقاً على وشك البكاء. لم ينبعث من بلعومي إلا ما يشبه الحشرجة. كل شيء غارق في الصمت، والهم، والقلق. ثمة يد أخرى تظهر. تمسكني من كتفي، وتضغط على جسدي العاري. أحاول المقاومة، ولكن بلا جدوى. فجأة تسحبني دنيز إلى أعماقها.

-١٠-

كنت مهرجاً يمشي على حبل معقود فوق هاوية. لم تكن ثمة عصاة في يدي كي أحاول الحفاظ على توازني، وأنا أتأرجح يمنة ويسرة. كنت أتقدم دون أن أعلم اتجاهي. كان الهدف هو الحفاظ على التوازن في كل خطوة اخطوها. الغريب أن الموازنة كانت تتحقق حينما أشارف على السقوط. كان القصر البحري أو بالأحرى الأشياء تهتز بشكل أو بآخر. الساعة الموضوعة على الرف المترب، أقدام المنضدة، الفراش الذي أتقاسمه مع دنيز، كل شيء كان يهتز. كنت أحس باهتزاز الإيوان، المصابيح، الصور العائلية المجردة من إطاراتها. لم يكن بوسعي أن أضع في روايتي صخب قوارب الصيد، والصناديق المغلقة المليئة بالفضة التي أحلم بها في غرف مغلقة، والملابس القديمة التي تفوح برائحة النفتالين، والتنورات ذات الخصور الضيقة التي تلبس عند الغروب، وقطرات الماء فوق الرخام، وينبوع ذلك الماء، وأشجار الدلب الموغلة في أعماق الأرض بينما أغصانها سامقة إلى السماء، وحفيف أوراقها. اجل ليس بمقدوري تضمين روايتي جميع الأصوات في الطبيعة، والأصوات التي تصنعها المخيلة، وكل ما كنت أراه طوال النهار من نافذتي. لكنني كنت أحس بحاجة حقيقية إلى مواصلة صلتي بالعالم الخارجي للتحرر من أسر (قاطع البسفور.) فهذا العالم هو بمثابة الموازنة بين الحقيقة وبين ماهو مكتوب.

كان القصر البحري يغرق في صمت عميق بعد ابتعاد أصوات القوارب. وكان البحر يبدأ تدريجياً بالهدير مع دنيز. ربما ما كانت تراه كابوساً أو حلماً غريباً. تزداد سرعة تنفسها، وتتصبب عرقاً. تلفظ في حلمها عباراتها النابية التي تطلقها عند ممارسة الحب، تلك العبارات المثيرة، المحرضة التي تتقطر بقلة حياء. كانت تبدو، وكأنها ترغم على الحديث أثناء التعذيب. كان صخب البحر يزداد كلما تلاطم في التجاويف الموجودة على جدران مكمن القوارب. كنت أحس أنه يقرض القصر من أساسه. حينما كانت دنيز تحد قدرتي على الخيال، كان البحر يستمر في الهدير من الصباح وحتى المساء. لم يكن ما يقظ مضجع دنيز هو الخروج في

جولات بحرية بالقارب. في الماضي الجميل كانت أصوات العود والطنبور والرق ينطلق من تلك القوارب التي تعلق فيها المصابيح. لم يعد ثمة مكان الآن لتلك الأنغام الحزينة. كل شيء بقي هناك في الماضي، وفي ندى الليل المنير بقيت أنغام المقامات التي أتت في تلك الليالي صوب النهر المنساب من قاندلجا إلى كوك صو. تحت ضوء القمر انسابت مع سرب القوارب ومع التوريات الجميلة، فالقوافي دارت حول نفسها مثل مياه البسفور الساطعة، ولم يعد أحد يذهب إلى كوك صو للإصغاء إلى تغريد البلابل، فالأشجار فيها باتت دون طيور، والقصور أصبحت مهجورة بعد أن هاجرت معظم العوائل إلى مركز المدينة أو إلى العالم الآخر. لم يعد على امتداد كوك صو إلا حفيف أشجار السرو في المقابر المنتشرة فيها إلى جانب هدير البحر، وصرخات دنيز.

كانت تصرخ في بعض الليالي في نومها «لن تستطيعوا إرغامي على الكلام، لن تستطيعوا!» ثم تهتف وكأنها ترد على سؤال «مثل الببغاء.. أجل مثل الببغاء» كانت هي التي تسأل، وهي التي تجيب. لم تدرك أنها الضحية والجلاد في آن واحد... في الليل كان هذا التحقيق الوهمي يستمر مع الكابوس. لم يكن بوسعي تضمين روايتي الرعب الذي تشعر به دنيز، ولا أيام العنف الذي بدأت مع الحكم العسكري، ولا أسماء الطلبة الذين قتلوا في التعذيب. مثلما لن أكتب عن تاريخ هذا القصر ذو الغرف العديدة التي بدأ طلاؤها يتساقط، وينحدر تدريجياً نحو البحر. ورغم أن دماء كثيرة سالت في روايتي، وثمة أناس ذبحوا، ورؤوس طارت، ولكي لا تسيل دماء آل عثمان كان الأطفال الرضع يسلمون للجلاد، والأمراء يخنقون في عمر الزهور بمناديل من حرير. في عهد محمد كان كل ذلك يؤول إلى النهاية. آنذاك لم يكن يسمح ببناء القصور على البسفور. لم يكن موجوداً آنذاك هذا القصر العتيق موجوداً، ولا هذه القوارب. وحينما تكامل أمامي قاطع البسفور بأبراج الوزراء الثلاثة مثل جدار قائم غير قابل للاختراق، أيقنت أن مستلزمات روايتي (قاطع البسفور) قد اكتملت. لم يكن بوسعي أن أعلم بأن ثمة امرأة ستظهر في حياتي، وتحتويني، وستسحبني من زمن محمد الفاتح إلى زمنها! في عالم دنيز، كان

ثمة دم، ورصاص، وتعذيب، وإعدام، وحبس انفرادي في سبيل التطلع نحو غد الحرية والعدالة والجمال، وثمة واقع أخر يسحبنا في هذا القصر نحو الدوامة يوماً بعد يوم.

في إحدى الليالي، وحينما كانت دنيز تهذي في النوم. أشعلت المصباح. عندما اقتربت من الأوراق البيضاء الموضوعة فوق المنضدة' سمعت صوتاً. كان صوتاً مختلفاً عن الأصوات الأخرى التي تملأ القصر عادة. وكأن ثمة طير يصفق بجناحيه قرب النافذة. أزحت الستارة. ورأيته. كان النورس الأعرج جاثماً قرب النافذة، واقفاً على ساق واحدة مثل تلميذ عاق. فتحت النافذة، ومددت إليه يدي. لم يفر فزعاً بل احتمى بيدي. كان البسفور غارقاً في ظلام حالك. داعبت ريشه المبتل. كان قلبه ينبض بشدة. أحسست للحظة بالرغبة في الإطباق بهدوء على رقبته التي كانت تبدو كلما تنفس الطائر مثل منديل حريري. لم استطع فهم كنه هذا الشعور الغريب الطارئ. كان النورس يحتمي بيدي دون أن يعرف ما يدور بذهني. كان واضحاً أنه يشعر بالبرد. توجهت إلى المطبخ، وجلبت له مقداراً من فتات الخبز. لكنني لم أجده في مكانه أثناء عودتي. غمغمت في نفسي «ليتني خنقته».. استغربت فيما بعد من هذا الشعور الذي راودني. لكن رقبة النورس كانت ناعمة، ندية، ورقيقة إلى درجة....

جلست على المنضدة لأكتب عن الحلم الذي رأيته في فندق تبة باشي. في الواقع أنه لم يكن حلماً بل كان حقيقة أو بالأحرى حلماً وددت لو كان حقيقة. في تلك الليلة لم أعد إلى البيت كعادتي بعد خروجي من مكتبة الفاتح. بل توجهت إلى الحانة وشربت حتى الثمالة ثم ذهبت إلى فندق. لا أستطيع أن أتذكر أي فندق كان لكنه كان على مدخل زقاق يفضي إلى منطقة اصمالي مسجد. كانت غرفتي تطل على الفناء الخلفي. كان فندقاً يبعث على الكآبة. وكان صخب شارع الاستقلال يملأ الفناء المعتم. لكن الصخب هدأ بعد ساعة متأخرة من الليل. كنت مستغرقاً في النوم حينما سمعت في منامي صوتاً يهمس في أذني «طويلاً، ومكدوداً كان وجه السلطان» لم أهتم. لكن نفس الجملة تكررت هذه المرة بالإيطالية. آنذاك أصبحت

مأخوذاً بسحر الكلمات الأجنبية. كانت لغة غير غريبة. ربما كان المتحدث هو نيكولو أو القبطان ريزو. لربما لم أكن في غرفة تساقط طلاؤها بل في غرفة استقبال في سفارة البندقية. كل شيء كان يبدو مبهراً. المقاعد المصنوعة من خشب البلوط

اللوحات المعلقة على الجدران. كان الرسام غنتيل بليني الذي أقبل من قصر دوكلر لرسم لوحة السلطان محمد والذي قال حينما رآه لأول مرة «طويلاً، ومكدوداً كان وجه السلطان. ربما كان مريضاً جداً، ونهايته باتت وشيكة. كان عليّ أن أرسم لوحته قبل أن يدركه الموت» كان باليوس يشعر بسعادة بالغة لمرض السلطان. وكان يحاول أن لا يفصح فرحته تلك لبليني، وهويعد الدوكات الذهبية التي سيبعثها إلى يعقوب باشا. وكان الرسام يغمغم «غداً أواصل عملي إذا تمكن من الوقوف على قدميه.» قال له باليوس «لقد استحق محمد الخلود منذ زمن طويل، ولكن كيف يمكن عكس جميع خصاله. ليست الخصال بمعناها المحدد بل ما هو كامن خلف سحنته من حروب، وأحلام، ومعاناته كإنسان حتى لو كان سلطان الدولة العثمانية؟» كان واضحاً تبرمه من كلمات باليوس. لكن ذهنه كان منشغلاً بمعرفة وجهة الحملة التالية للسلطان. ترى ما هي الدولة التي يفكر في فتحها؟ أية مدينة سيحاصر، أهي روما؟

«حقاً لقد استحق محمد الخلود» ردد بليني هذه العبارة شارداً رغم عدم إيمانه بها. كان ينتظر بفارغ الصبر انتهاءه من رسم لوحة السلطان ليرسم لوحات الإنكشارية، والعاملين في القصر، فقد أصابه السأم من رسم لوحات رجال الدولة. قال باليوس محذراً «لا تنس أن التركي الكبير هو حليفنا، ولكن توخى منه الحذر فلا يمكن التكهن بنواياه» كان بليني يفكر بلوحته التي يجب يعكس فيها شيئاً من ثقافته الواسعة، وشخصيته الحازمة، الطاغية. ولكن كيف؟ أيعكس ذلك من خلال نظرة عميقة، أم من خلال لون غامق؟ أحس بالإعجاب بمجمد بمجرد رؤيته له. كان فيه سراً، واختلافا لم يره في الأشخاص الذين رسم لوحاتهم في قصر دوكلر.

تحول الحديث بين باليوس والرسام إلى همس. ما لبث أن اختفت غرفة

استقبال سفارة البندقية من حلمي. في نفس اللحظة هرعت من سريري في الفندق على أثر هزة. ظننت للوهلة الأولى أن الفندق ينهار، لكنني فيما بعد أن الانهيار يجتاح جسدي. كنت أرتعش كمن أصابته حمى شديدة. عندما فتحت عيني رأيت صورة محمد الفاتح على الحائط. كان ينظر من خلال صورته المنتزعة من مجلة (الحياة)، والمعلقة على الحائط سرعان ما تعرفت على سلطان العالم من وجهه المكدود، وأنفه الطويل، الرفيع الذي يمتد حتى شفتيه. فجأة سمعته يصرخ في وجهي «هيا أسرع! انه روايتك قبل وفاتي»!

- «انه روايتك قبل وفاتي»! فزعت من النوم. كانت دنيز هي التي تصرخ بهذه العبارة. ما لبثت أن همست في أذني.

- لا.. لا تسرع في إنهاء الرواية فأنا أمزح معك.

- يجب أن انهي (قاطع البسفور.)

- عليك أن تنهيني أنا أول مرة.. فلا يزال في جسدي مواقع لم تلمسها، ولم تكتشفَها.

أمسكت بيدي التي تمسك بالقلم، وضغطت بها على صدرها.

- إليك الدواة والورق! هيا!

دنيز، ها أنذا أكتب الرواية على جسدك فوق جلد غزال. النهارات تنساب نحو الليالي، والليالي نحو النهارات، وعريك ينساب هكذا دوني لوحده. حينما تنهضين في الصباح مثل خنجر خارج عن غمده تقفين أمامي، صرخاتك كل ليلة أثناء النوم، أناتك عند ممارسة الحب تدور كالخفافيش في أرجاء القصر، في السقف والغرفة ذات الشناشيل، والمطبخ، والإيوان ثم تلف لتدور حولي. الكلمات البيضاء الراقدة التي تموت في فراغ الأوراق قبل أن تولد، كلماتي أنا. لا أستطيع الوصول إليك دائماً، وإلى عريك حتى لو كتبت على سرتك (قاطع البسفور) مثل تميمة. تنزلقين من بين يدي مثل سمكة الحوت. تضربين رأسك النائم الجميل على جدران مكمن القوارب ثم تنطلقين يادنيز نحو الحرية الزرقاء في البحر.

في صباح ما سمعت طرقاً على الباب. كنا في الفراش. هبت دنيز من الفراش

مذعورة.

- من الممكن أن يكون الشرطة. أنا لست هنا.

- ولماذا تعتقدين ذلك. قد يكون الجيران.

- لا تفتح الباب فوراً بل انتظر هبوطي إلى مكمن القوارب.

ارتدينا ملابسنا وخرجنا من الغرفة. هبطت هي إلى مكمن القوارب. كان الباب يطرق بشدة مثل أول مرة اقبلت فيها دنيز إلى القصر البحري. فكرت «ربما تكون امرأة أخرى.. ثانية! وأنا لا أقوى على واحدة.. ! ليكن فمن يدري كم امرأة كان للمرحوم صاحب هذا القصر.. لكن الباشا قطعاً لم يكن كاتباً.. هذا هو السؤال.» That is the question على كل حال لست من يبحثون عنه. لم أفكر بأنهم سيقتادونني معهم حينما يعثرون عليها عندي.

فتحت الباب مبتسماً. كان الطارق ساعي البريد الذي أعطاني مظروفاً كبيراً ثم ذهب. كان المظروف مرسلاً من استانبول، ومكتوب عليه:

السيد فاتح خزندار

قرب مرفأ أناضولوحصاري رقم ٢: المدينة.

فتحته بفضول. كان يضم نسخة من مخطوطة عن (أساطير فتح استانبول) التي لم أكملها في مكتبة الفاتح. فتحته، وأخذت أقرأ بصوت عال:

(وكان لتيماوش هذا صبي اسمه استانبول. في يوم قال استانبول لوالده «مرامي أن أقيم مدينة هنا اسميها باسمك حتى يخلد اسمي على مر الدهور. وافق الجميع على ذلك يما فيهم والده. أصدر على أثر ذلك تيماوش مرسوماً قال له فيه لولده، افعل ما بدا لك. بعد هذه الموافقة فتح استانبول أبواب خزانته أمام البنائين المهرة، وأنشأ قلعة على مساحة ستة فراسخ، بنى عليها مدينة عظيمة. وقد توفي بعد أن حكم أربعة أعوام، تولى الحكم بعده ابنه قسطنطين الذي أكمل بناء المدينة. لهذا يطلق على هذه المدينة اسم استانبول والقسطنطينية في آن واحد.»...)

حينما كنت منهمكاً في معرفة كيفية كتابة اسم قسطنطين بالحروف القديمة، أحسست بيد تداعب شعري ثم أمسكت بي من الخلف، وجذبتني من الخلف إليها.

أوشكت على السقوط من الكرسي. سمعت في نفس الوقت صوت دنيز:

– هل يتحتم عليَّ أن أرى مؤخرتك طوال اليوم!

التفت إليها. كانت عيناها الزرقاوان تبتسمان من الأعماق.

– كان عليك إبلاغي بما حصل.

– عذراً، كان الطارق هو ساعي البريد.

– صحيح؟ الرسالة مرسلة لمن؟

– لي يا لتأكيد..

– من زوجتك..؟

– كلا.. من استانبول. بعثوا لي بنسخة مصورة لإحدى الوثائق.

لم تصدقني. قلت لها على أثر ذلك مازحاً، أن الرسالة قادمة من باريس.

انطفأ البريق في عينيها. عبست. ثم قالت بسخرية:

– لو كنت مكانها، كنت سأشتاق إليك أيضاً. فأنت لست كاتباً بل جهاز للمضاجعة!

لم أرد عليها. خيم علينا صمت طويل.

– إذن لقد نسيتني في مكمن القوارب..

– كنت منشغلاً بقراءة رسالة زوجتي.

– اسمع، لن تستطيع التحرك إلى أي مكان دون إذن مني، أسمعت؟

ظننتها تمزح.

– لن أتركك. قالت. أموت ولن أتركك.

في ذلك اليوم لم يحل المساء إلا بعد لأي.

-١١-

لم أستطع النوم. كانت الكلمات تدور في أعماق رأسي. كانت تتحرك، وتبدو داخل منظار وردي ذات ألوان زاهية. تتفرق ثم تتوحد من لون إلى آخر، ومن شكل إلى أخر. كنت أنتظر هدوءها، وانتظامها، وتحولها إلى تراكيب من الجمل. كانت تزداد سرعة بحيث أعجز من القبض عليها. كنت أصاب بالأرق من جرائها. كنت تبدو مثل نثار الثلج كلما رأيتها. كنت أنهض، وأتوجه إلى المطبخ. أشعل الضوء، وتنعكس صورتي على الزجاج. كنت أجلس واضعاً رأسي بين كفي، وخشية من أن تستيقظ بنيز كنت لا أفتح حتى الراديو الذي اقتنيته حديثاً. الغريب أن حاجتي إلى الكتابة كانت تزداد في هذه اللحظات. كانت الكلمات تتصاعد، وتفيض في أعماقي مثل أمواج البحر. وحينما كانت تقترب من نقطة الانطلاق، كنت أنهض محاولاً السيطرة على ذاتي حتى لا أصرخ صوب قاطع البسفور. كنت أود إفراغ الخيالات التي تؤرقني كي أستطيع التحرر، وأحرر الكلمات من الفوضى التي تعاني منها حتى تتنظف أعماق وعي منها، وأنال اللذة المؤجلة التي لم أفز بها من المضاجعة مع بنيز. كنت أجلس في المطبخ وحيداً في صمت الليل منتظراً بشوق شروق النهار. مع تباشير الصباح سأكتب عن تلك الساعات.

في هذا الجزء الجديد حديث دائر بين القزم والأخرس في العربة التي تقل جثمان الأمير مصطفى. إنه لم يمت في الحمام الذي ارتاده في نيغده في طريق عودته إلى ديولي قره حصار ز بل قتل من قبل الأخرس الذي تربص به في الحمام، القزم يعتقد انه مات مقتولاً على يد الأخرس. الذي كان في خدمة الأمير مصطفى. وقد سبق، وان تخضبت يده بالدم عدة مرات. ولتنفيذ هذه العملية لابد من دعم جهة عليا له من كبار رجال القصر. مادام السلطان لم يطالب بالقبض على قاتل أحب أبنائه إلى نفسه. حسناً، ولكن لماذا تم الغدر بمصطفى؟ هل تم ذلك لجعل السلطان يموت حزناً وكمداً عليه؟ أم أن ثمة مؤامرة مروعة خلف هذه الجريمة البشعة؟ فكر القزم بكل هذه الاحتمالات، وحاول بنفسه العثور على القاتل، لكنه لم يجد الجواب

لتساؤلاته.

لم يكن لشخص غير محمود باشا مصلحة في القضاء على الأمير. فقد كان يغار على زوجته الجديدة من الأمير مصطفى. أعمته الغيرة، وأصابته بالجنون وصمم على قتل مصطفى. ووضع في سبيل ذلك كل شيء نصب عينيه. حتى لو علم السلطان بالأمر فسيظن أن ابنه بايزيد هو الذي وراء هذا التآمر. ألم يسبق للسلطان نفسه وأن قام بمثل هذا الدور؟ أن أحداً لن يفكر بمحمود، وبذلك سينعم الأخرس بذهب الصدر الأعظم، وسيحقق في النهاية حياة السفه التي طالما حلم بها محققاً كل ملذاته، ويقضي بقية عمره في أحضان النساء.

كانت العربة منطلقة بأقصى سرعتها في الليل مصطدمة بين حين وآخر بالحصى في الطريق، بينما كان الأخرس والقزم واقفين قرب جثمان الأمير الذي تم حمله دون إبلاغ استانبول بوفاته. وكان قد تم انتزاع أحشاءه الداخلية وملئت بالعسل والنخالة، بينما تم تمليح أمعاءه. كانت العربة منطلقة سراً نحو قونية. بعد مراسيم الدعاء والصلاة على جثمانه سيتم إبلاغ السلطان بالنبأ المشؤوم.

تناول القزم دن النبيذ الذي سرقه من القبوبيد مرتعشة. اندلق قسم من النبيذ عليه. كانت عيناه محمرتين مثل قطعتين من اللهب. تبعه في ذلك الأخرس الذي تناول النبيذ بعد أن أسند ظهره على التابوت. شرب بهدوء على عكس القزم. بعد أول رشفة مد الدن للقزم مبتسماً. مع سريان الدف في جسده أحس بحاجة ملحة في كشف سره لرفيق رحلته. وكانت نظرات القزم الفضولية تؤجج رغبته تلك. فهم سيقبضون على القزم فور وصوله القصر. كان يحس بالأمان. لكنه رغم ذلك كان يحس أن ثمة كمين منصوب له. وأن محمود باشا في سبيل القضاء على شهود الجريمة سيقضي عليه وعلى القزم.

حينما نفذ النبيذ ازداد الإحساس بالخوف، أشعل الضوء، وتحدث الأخرس للقزم عن الجريمة. ولكن كيف؟ بإشارات أم برسوم رسمها على الورق؟ قبل الرد على هذه التساؤلات والحديث عن المؤامرات التي كانت تحاك في قصر الأمير مصطفى، وعن عالم الملذات فيه، وعن نجاحي في إرغام الأخرس على الاعتراف

تجسدت في مخيلتي صور أخرى على الفور دون أن انتظر الصباح.

كان محمد جالساً القرفصاء في بستان الورد الذي زرعه بنفسه يكتب قصيدة غزل. كان السلطان مكدر البال يحلم بامرأة لا تشبه النساء اللائي امتلكهن حتى ذلك اليوم. امرأة قد تكون في الضفة الأخرى خلف أسوار جنوة، مديدة كأسوار غلاطة، جذابة، رقيقة، وحازمة في نفس الوقت. باردة كصخرة، حامية كاللهب. جسدها حيي كجسد صبي، وقلبها رحيم كقلب الأم. حاول أن يعكس رغبته المستحيلة هذه التي لن يراها إلا بامرأة في الجنة. لم يكن فيما يكتبه شيئاً جديداً يختلف كثيراً عن قصائد شعراء العجم. شعر بالأسى لأنه يعلم أنه لن يستطيع أن يكون شاعراً حقيقياً. طلب شراباً. ناوله الساقي قدحاً من الشراب. بدأ السلطان يكتب قصيدته بخط الثلث موقعاً عليها باسمه أومخلصه في الشعر (عوني):

رأيت ملاكاً صبوح الوجه

مثل قمر موشح بالسواد

يعجز البيان عن وصف عقدة زناره

لن يعد من أهل الأيمان كل من يعشقه

الغمازتان تقتلان والشفتان تمنحان الحياة

لو كان لكل هذا الحسن دين فهو من دين عيسى

فمن يحبه بوجد كوجد (عوني)

سلطان استانبول أنا، وأنت سلطانة غلاطة

أعجبه البيت الأخير في قصيدة الغزل، لكنه تردد قليلاً في الإفصاح عنه. فالسلطان في داخله لا يود أن تكون هناك حسناء تتحداه هو فاتح استانبول. عند الإمعان في قراءة القصيدة يفهم أن المقصود هو التغزل بالذكر فقد يكون المقصود راهب شاب وسيم كالقمر موشح بالسواد. ربما كان شاباً مسيحياً أو قساً وسيماً. هل يمكن التكهن بمن يعشقهم سلطان العالم؟

كان محمد يتأمل استانبول من حديقة قصره. كانت ثمة أزهار تتفتح في قلبه.

كان يبدو منفعلاً. لو يحل المساء ويهبط الظلام على المدينة، وتشعل القناديل في الجوامع، والشموع في الكنائس، لو تدفئ فراشه الحسناء التي عبر عن اشتياقه لها في قصيدته! «حتى لوحل المساء فلن أسعد بلقائها فهي سلطانة غلاطة، وأنا سلطان استانبول.» ابتسم في سره. كان يمكن أن يقع في كل لحظة صريعاً للهوى. أجل سلطان العالم ممكن أن يهزم في الحب، وأن يكون عبداً لحسناء ساحرة النظرات. كان بإمكانه أن يضحي في سبيل من يحب بكل ما يملكه آل عثمان. فهو قد قرأ مثل يونس الكتب الأربعة وفهم معانيها. أما الحب فهو قصيدة طويلة من وزن الهجا. .* حمداً لله لأنه لا يعيش حالة حب كهذه. أما عوني فكان في قصائده يعاني من لوعة الحب:

أدعو أن لا ينقذني الله من هذه المحنة

لن يعرف النعماء من لم يصبه الكرب

أدعو الله أن لا تتوقف دموعي

من لا يبكي دماً، لن يعرف لذة الحب

إن عوني، وليس محمداً هو الذي يتوجه بقلبه نحو حسناء غلاطة. أجل لم يكن بوسع السلطان محمد الوصول إليها. فالذي يجعل قلبه صريعاً للهوى، لن يقوى على فتح القلاع. فجأة تذكر أصغر أبناء نونتراس ذلك الصبي الذي اختار التوجه نحو سيف الجلاد بدلاً من التوجه إلى فراشه. إذن كان عوني يبكي دماً حينما كان محمد يسكب الدماء.

لم أكن أود كتابة كل هذا لكن كل شيء أخذ يختلط ببعضه. فحينما كان يخطر في بالي حادثاً معيناً، كنت أجد نفسي أكتب شيئاً آخر. وحينما كنت أعد عدتي لكتابة حوار غير رتيب كان يقفز إلى ذاكرتي كل الذين لم أرو قصصهم محتجين «اكتب عني أيضاً!» حينما كان محمد يداعب وجه دراكول الأمرد في قصر أدرنة كان أمير والاك الرهين يصرخ «سترى ما أفعله! لن تكون قسوتك شيئاً يذكر إلى جانب قسوتي.» بعد عدة سنوات كان فويفدا يدق المسامير على عمامة السفراء العثمانيين. وعندما يلقي المرء نظرة على قصره في كاريتالار، كان يرى ثمة غابة من

الخوازيق تمتد من السفح حتى الوادي، وفوق الخوازيق جثث عشرات آلاف من النساء، والشباب، والشيوخ المتفسخة. كانت النسور تحوم فوقها شبعة. لا أود الكتابة عن حياة العمال، والأجراء، والدراويش الرحالة. كان عليّ الحديث عن تحرك الجيوش بالتفصيل وعن القلاع التي انهارت. امرأة بيزنطية صرخت في أذني «لماذا لم تكمل قصتي، لماذا لم تكتب نهايتها؟» كنت أفكر بنفلي، ومعاناة عاهرة غلاطة الحسناء من طول انتظارها للقبطان ريزو. ترى ماذا كانت تفعل عند سقوط المدينة؟ هل تمكنت من الفرار، أم أن حياتها انتهت على يد أحد الإنكشارية؟ أم أنها قضت بقية حياتها في قصر احد الباشوات كسبية من سبايا الحرب؟ قد تكون غادرت المرفأ على متن سفينة من جنوة منطلقة إلى جزيرة رودوس أو حتى إلى جنوة، حيث أمضت البقية الباقية من حياتها هناك. كلا، لقد لجأت مع لقيطها من ريزو إلى إحدى الأديرة. لم تكن نفلي وحدها التي تطاردني! بل أن زاغنوس كرر اعتراضه على انحيازي لجاندرالي ذلك الوزير الخائن، وأنه أحق منه في أن يحتل مكاناً في هذه الرواية. كما أن الأمير جم لم يكن راضياً وكذلك قزمه المدعو روحي الذي انتقدني لأنني اهتممت بقزم الأمير مصطفى التافه أكثر منه. أما محمود فقد أيدني في أنه كان يضع قطعاً من الذهب في أطباق من الرز المخلوط بالحمص. لكنه أنكر قيامه بقتل الأمير مصطفى في الحمام بسبب غيرته المفرطة منه. كان ينكر ذلك حتى لا يعرف أحد لماذا ألقى به السلطان في السجن بعد سنوات في غياهب السجن ثم فتك به بعد تعذيب مريع. كان يود الإبقاء على أسرار حياته حتى تبقى العامة الذين رفعوه بعد رفعوه بعد سنوات قليلة من قتله إلى مصاف الأولياء والقديسين. كان محمود يريد أن تستمر أسطورته إلى قرون أخرى لذلك كان يفند براهيني. فجأة راودتني شكوك في صحة معلوماتي. ترى هل هي من وضع أعدائه؟

لكن كان عليّ أن أسمع، وأرى لأن الخيوط في يدي. كنت جالساً على المنضدة في قصر بحري قديم أحاول إخراج شخصيات مرحلة حقيقية كدمى على المسرح محركاً أطرافها. والأغرب إنني كنت أرغمها على الحديث بأسلوب اجمل في مسرحية بلا جمهور. كنت أنا المنظور والناظر، الفاعل والمفعول. اجل كنت كل

ذلك.

الأمير المسكين مصطفى كم كان ذكياً ووسيماً! كان العرش من حقه بكل تأكيد. ليس لأنه أكبر أبناء محمد فحسب بل لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يملأ فراغ فاتح استانبول. فقد كان مقداماً ومثقفاً مثله. لكنه كان يعشق النساء إلى درجة مفرطة على العكس من والده الذي كان يميل إلى الغلمان. كان كل همه منحصراً في النساء وخاصة القوقازيات ذوات القوام الفارع. أحب كولبهار خاتون زوجة الصدر الأعظم العجوز محمود باشا. وبسبب ذلك بدأ يتردد إلى استانبول كثيراً، وخاصة أثناء غياب الباشا. بفضل أمه في الرضاعة كان يلتقي بكولبهار سراً. كانت زوجة محمود زهرة يانعة كاسمها. لم تعد هذه الزهرة تتفتح في حديقة الباشا بل في فراش الأمير مصطفى. حينما عاد الباشا من إحدى سفراته علم بالحقيقة المرة بعد أن اشتبه بكولبهار، فكان أن وعد الأخرس بثروة كبيرة مقابل قيامه بقتل الأمير خنقاً. وقد نجح في إضفاء صورة حادث عرضي على الجريمة. حيث أرسل رسولاً إلى السلطان في قونية، وأبلغه بالحادث ثم قام بتصفية الأخرس الذي من اليسير علينا معرفة كيفية وقوعه في الفخ.

كان الأخرس يود الحياة. وكان رجل محمود المكلف بقتله قد وصل إلى قونية قبله. كان الأخرس قد نسي كل شيء حال سماعه باسم الذهب. ترى هل قتل الأخرس الأمير حينما كان مستلقياً في الحمام أم كان في حالة سكر هناك؟ كان البخار المتصاعد من الحمام الذي تم تسخينه منذ الساعات الأولى من الصباح، يحجب الرؤية. بالتأكيد كان الأمير مستلقياً إلى ظهره. ..وكان القاتل يبلل منديلاً ويعصره منتظراً أن يسترخي الأمير من شدة الحر والبحار المتصاعد. كان الأمير مرتاح البال في الحمام، كذلك كان محمود باشا في استانبول. فهو قد أعد رجلاً لينقض على الأخرس في طريق العودة إلى قونية. لكنه بدوره لم يتمتع بكيس الذهب الذي أعد له فقد قضى الصدر الأعظم بدوره عليه. قتله لكنه لم يكن يعلم أن القزم يعرف الحقيقة. هل تعتقدون أن القزم توجه إلى السلطان وأبلغه بكل ما يعرفه عن اغتيال الأمير مصطفى؟ حسناً، كيف شرح له الأخرس تفاصيل

الجريمة؟ لعله شرحها له عن طريق الإيماء مثل ممثل ماهر للأدوار الصامتة في العربة التي كانت تقل جثمان الأمير، وهما يكرعان النبيذ معاً.

كان السلطان في القصر عندما أبلغه رسول مقبل من قونية أن الأمير مصطفى قد قضى نحبه. كان طاعناً في السن. مترهل الجسد. جرب كل متع الحياة، لكنه لم يعش الآم أن يفقد المرء فلذة كبده. ما أن سمع بالنبأ المشؤوم حتى بدأ (فاتح القلاع) وفاتح استانبول السلطان محمد ابن خان مراد خان بإهالة التراب على رأسه، وبالبكاء وتمزيق ملابسه. وددت الحديث عن اعتراف القزم له بالسر في تآمر محمود باشا على الأمير المغدور وقيامه باغتياله بوساطة الأخرس ثم قيامه بتصفيته من قبل قاتل أجير الذي لقي هو الأخر حتفه على يد محمود باشا. لكن السلطان لا يهتم بمحاولتي بل يواصل رثاء ابنه. ترى ماذا يتحتم عليّ فعله! كل شيء يبدو معقداً، ومتشابكاً. من الأفضل أن أنهض، وأتناول قدحاً من الماء على الأقل!

* وزن الهجا: (Hece) وزن خاص بالشعر التركي يعتمد على أوزان المقاطع الصوتية حسب التهجي، ويستعمل الأصابع لعد تلك المقاطع. وهناك ١٥ قالباً لتقطيع المقاطع الصوتية حسب هذا الوزن. «المترجم»

حاولت بعث الحياة فيهم رغم انهم ماتوا منذ زمن سحيق. في الحقيقة كنت أستغرب بعث الحياة في أبطال (قاطع البسفور) الذين عاشوا قبل خمسمائة عام. لقد عاشوا وماتوا. معلوماتنا محدودة جداً عن طراز حياتهم وعن مأكلهم ومشربهم، والأشياء التي كانت عواطفهم تجيش لها. لم يمت أحدهم بأجله الموعود. حقاً لماذا قتلوا جميعاً ولم يقضوا نحبهم بآجالهم؟ اجل الإنسان إذا لم يمت في يوم ما سيقتل. الكل يحمل الموت في ذاته قبل الميلاد بل حتى عند كونه جنيناً في بطن أمه. الجنين رغم رأسه الضخم، وعيونه الجاحظة ووجهه المجعد، يبدأ بعد فترة وجيزة من خروجه للدنيا بالتحرك، متطلعاً للانطلاق نحو عالم جديد. انه سقوط إلى الميلاد، وأول خطوة نحو الموت. لكن لماذا لم يمت أبطال هذه الرواية مثل انطونيوريزو، خليل، والسلطان محمد الفاتح وغيرهم بأجلهم الموعود؟ هل كنت أنا من أنهى حياتهم في ربيعها قبل الأوان أم هو الله؟ أم هو قدرهم؟ لقد قتلهم التاريخ. نفهم ذلك من المخطوطات المكتوبة بخط الثلث المائل يميناً ويساراً والتي تبدو أبهى وأحلى من الحروف اللاتينية. أجل الزمن كفيل بكل شيء. يموت من يموت، ويبقى الأحياء. لا أحد يستطيع مواجهة الزمن. الموتى.. الخيط يفلت من يدي. خيط (قاطع البسفور) الذي بدأت بكتابتها في يوم من أيلول أمام مياه البسفور التي كانت تسطع كالمرآة أمامي. واصلت كتابتها حتى الآن بشكل لا بأس به.. ولكن الخيط بدأ يفلت من يدي الآن. ثمة من قال، واعتصموا بحبل الله، لا أعلم من قائل هذه العبارة، لا أتذكر. لكنني الآن لا أرى طرف الخيط، ولا أعلم أين هو. ترى هل هو بعيد بحيث لا أستطيع من الالتفاف والاعتصام به لإنقاذ نفسي؟ كنت أقول الزمن هو الذي قتلهم حتى ماتوا قبل أوانهم. ألم يقضي أحدهم نحبه بأجله الموعود؟

لماذا لفظ انطونيو أنفاسه الأخيرة فوق خازوق، وخليل على يد الجلاد، ومصطفى على يد الأخرس مخنوقاً بحبل من منديل حريري، وقضى المعمار سنان،

ومحمود نحبهما في السجن، وصاري لطفي في المشنقة – تمكنوا من صاري خليل بعد وفاة الفاتح الذي قتل بدوره فيما بعد على يد رجال بايزيد، تماما مثل الدرويش الحروفي، ومثل الشيخ بدر الدين المقدام – كما تم قتل السلطان العظيم. اجل قتل محمد بدوره بعد تسميمه مثل أصغر أبنائه السلطان جم.

أرى كل شيء وكأنه يبدأ وينتهي أمامي. الجيش يستعد لحملة عام ١٤٨١. محمد يبدو طاعناً في السن. رغم أنه يبلغ التاسعة والأربعين. لكنه مريض بمرض الدملة بسبب حزنه على الأمير مصطفى. يغطي الشيب شعره ولحيته. عيناه أصبحتا كليلتين. يداه ترتعشان. اصبح يفضل الصمت على الكلام. لكنه رغم ذلك يجب أن يكون على رأس الجيش المتوجه للبدء بحملة جديدة. بدونه لا يمكن أن يتوجه الإنكشارية لخوض هذه الحملة. حملوا السلطان على ظهر حصانه. ألوية السلطان محمد ابن مراد تخفق فوق خيمته المنصوبة ولا أحد يعلم بحقيقة نواياه. يقول لو أن شعرة لحيته علمت بمكان وجهته لأقتلعها.

هاكم أخلص رجال السلطان الطبيب يعقوب باشا تي تي! المعروف بجاكوب رئيس الأطباء في القصر. من يدري كم مرة عالج السلطان، وأنقذه من براثن المرض. لكنه في النهاية لم يستطع أن يقاوم إغراء الدوكات الصفراء فبدأ بتسميم السلطان ببطء. لم يكن أحد غيره يعرف هذا السر وبعد كل جرعة بتناولها السلطان من الشراب كان يؤمن بأنه سيسترجع صحته وعافيته السابقة.. ويستطيع هذه المرة من الوصول إلى روما. أما يعقوب فإن يده كانت ترتعش رعباً كلما أضاف مقداراً من السم على الأعشاب التي كان يداوي بها السلطان. لكنه سرعان مايتغلب على ذعره، ويقف بالقرب من مريضه مؤنباً الخدم حول ضرورة إبداء العناية الكافية بصحة السلطان متجاهلاً نظراته الممتنة التي يوجهها له مريضه كل مرة. كان الخور الذي يشعر به السلطان يزداد كلما تناول من الدواء. إليكم الجلاد والضحية. ولكن من الأفضل أن نقول القاتل والمقتول. ها قد بلغنا في النهاية إلى مغامرة القاتل والمقتول. كل شيء يتجلى ببطء في ذهني. يرتفع الضباب من سهل كزبة في صباح ٤ مايس. الشمس لم تشرق بعد. صمت غريب

غير معتاد يحل على المعسكر. الجنود لا يزالون يغطون في نوم عميق، وكذلك الخيول والجمال. الخيول تقف في صقيع الصباح مثل هياكل مجمدة، بينما الجمال مطلقة السراح. بينما حداؤها يغفون تحت شجرة حيث ينطلق دخان أزرق من أنوفهم كلما تنفسوا. النيران مطفأة قطرات الندى متجمدة فوق الخيام. أجل الكل نيام حتى الحراس. ثمة ثلاثة لم يناموا في المعسكر. ثلاثتهم متحلقين حول السلطان على ضوء ذؤابة شمعة محترقة الصدر الأعظم محمد باشا القرماني، الطبيب يعقوب باشا ولاري. لا نعلم ما الذي خطر ببال السلطان قبل دقائق من وفاته. لكن الثلاثة اتفقوا على خنق الخادم الخاص بالسلطان فوراً. بذلك لم يبق من يعلم بوفاة السلطان غيرهم. عند تردي الوضع الصحي للسلطان رضخ يعقوب باشا لضغوط الطبيب لاري الذي أقبل من بلاد العجم فأعطى السلطان دواءاً ليتقيأ ما في معدته وكانت محاولة أخذ قطرات دم من ساقه، قد باءت صباحاً بالفشل. على أثره بدأ السلطان بالتقيؤ فور تناوله الدواء. وقد أسرع خادمه الخاص بوضع فوطة تحت حنك السلطان الذي أصابته الرعشة ثم تجمدت أطرافه. لم يمت بين يدي الخادم بل تحت أنظار طبيبيه اللذين فشلا في معالجته، والوزير الأعظم. كانت نظراتهم في تلك اللحظة مرعبة. كل منهم رأى موته في موت السلطان. ما العمل؟ كيف يستطيعون إخفاء هذا النبأ المشؤوم عن الجيش؟ لذلك أقدموا على خنق خادمه الخاص على يد قاتل أخرس ثم بدؤوا بالتفكير. لم يكن ثمة أثر للحزم الذي اشتهر به الوزير الأعظم، والذي كان ينظر بقلق لسريان الداء الخبيث في جسد السلطان الذي كان ينتفخ يوماً بعد يوم مع تزايد حالة الضعف والخور. ولم يستطع أن يجد تفسيراً لسر التحول المستمر في جسده فيما بعد، وشحوب وجهه. بالنسبة للطبيبين فالسلطان لم يكن يعاني من مرض قاتل. لذلك لم يريا بأساً من اشتراكه في الحملة. وبعد أن بدأ الجيش التحرك نحو جهة مجهولة في الأناضول، لم يعد بمقدور السلطان البقاء إلى ظهر حصانه قرب كزبة، فأعدوا له فراشاً من جلد النمور ليتمدد عليه.

وفي مساء يشبه المساء الذي احتل به استانبول، ورفع فوق أسوارها رايات

النصر غادر السلطان هذا العالم حسناً ماذا سيحدث الآن كيف سيواجه السلطان الجديد تمرد جيش بلا قائد؟ كيف سيواجه نهب الإنكشارية للمدينة طمعاً في الغنائم؟ من سيكون السلطان الجديد؟ هل هو بايزيد الأكبر سناً أم السلطان جم القريب من قلب السلطان؟ يجب إبلاغهما بالنبأ في آن واحد، وإخفاء وفاة السلطان عن الجيش حتى بلوغ السلطان الجديد إلى استانبول، ولكن كيف؟ مادام لا يمكن إعادة السلطان للحياة فلا بأس من تقديم شبيه له. وفجأة لمعت عينا قرماني باشا، وزال التوتر الذي كان مخيماً قبل قليل على وجهه. التفت إلى يعقوب باشا ولاري باشا وأبلغهما ضرورة الإعلان للجيش حول ضرورة عودة السلطان إلى القصر طلباً للشفاء ثم انتزع رداء السلطان من كتفيه، وغطى به جثته التي حملوها إلى عربة السلطان التي لم يغلقوا ستائرها تماماً بل أبقوها مزاحة قليلاً بحيث يخيل للناظر إليها من الخارج أن ثمة شخص في داخل العربة.

أخذ الجنود أماكنهم على يمين ويسار العربة بينما تقدم الموكب كل من يعقوب باشا ولاري. مع الصباح انطلقوا جميعاً. لم يكن أحد يعلم أن الجنود الصلع الذين يبدوا عليهم الهدوء سيرفعون راية العصيان فور سماعهم بالنبأ، وأنهم سيبادرون لتحويل المدينة إلى جحيم رغم الأوامر الصادرة بمنع عبورهم إلى منطقة اسكودار، ويقومون بنهب أحياء اليهود واليونانيين في المدينة، فارضين سيطرتهم عليها لمدة ثمانية عشر يوماً، وأنهم سيرسلون كل من يعقوب ولاري إلى الجحيم.

كان قرماني منطلقاً بحصانه بأقصى سرعة، وبغية عدم اكتشاف اللعبة، كان يقترب بين حين وأخر من عربة السلطان، ويلقي بنظرة إلى داخلها، وكأنه يتحدث إلى السلطان. كان ثمة خوف حقيقي يعصف به. هل يمكن أن ينصب قورقوت ابن بايزيد رهين القصر سلطاناً لحين وصول السلطان الجديد؟ كان يتمنى أن يسرع رسولاه الذي بعث بأحدهما إلى أماسيا، وبالأخر إلى قونية. حمداً لله لأنه لم يكن يعلم أن موته سيكون شبيهاً بموت السلطان. لم يكن يعلم أن الموت الذي حل بمحمد سيكون أقرب إليه من الفؤوس والسيوف التي يمسك بها الجنود أمام خيام الشعر تحت شمس أيلول. أن الموت أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد!

حينما تضع يدك اليمنى على جبينك، وتضغط عليه، ستحس بالموت أكثر من إحساسك بنبضات قلبك. وهو أيضاً في الشرايين التي تضخ الدم إلى جسدك. إنه الموت الذي يجول في شرايينك مع كل نبضة، وليس الدم. إنه صوته الذي تسمعه الموت، الموت، الموت! الذي يتفحصك في كل لحظة.

الآن يحل المساء في الخارج. ستدفن الأبراج في الظلام، وتبتعد المياه تدريجياً. أتذكر الآن أبيات كاتب عاشق لأستانبول يحمل تعبير روائي كبير «لست داخل الزمن / لست خارجه تماماً.» أنساب مثل انسياب هذا التعبير. لقد بدأت (قاطع البسفور) مع دنيز، ويجب أن تستمر بدونها هذه التي تسحبني يوماً بعد يوم إلى أعماقها برغبة لا تقاوم.

هذه الرواية بدأت معك. دنيز، كل شي تواصل بدونك حتى بلغ هذا اليوم. أنت الآن في جانبي، قرب رأسي كل شيء يتراجع حينما أصطدم بجسدك بدلاً من أن يفيض. بهدف فتح الطريق أمام (قاطع البسفور.) يجب أن أزيلك عن الطريق، اجل يتحتم عليّ إزالتك!

تدور هذه الفكرة في رأسي. تختمر. الكلمات تتقافز في الريح مثل اسطر مبعثرة على الورق. دنيز مستغرقة في نوم عميق رغم أن المساء لم يحل بعد. فكرة إزالة دنيز تضطرب في ذهني مثل طائر في قفص يهدف الوصول إلى الحرية. «يجب أن أبعد دنيز عن حياتي» لو أفتح الباب فستنطلق إلى الخارج. عند ذلك سأرتاح لبرهة لمجرد برهة على الإيوان. من أجل أن تنطلق نحو حريتها بعد سنوات من شوقها للضياء، تصطدم بالجدران، والمقاعد للنفوذ من النوافذ المغلقة. تنساب خارج الجدران. تختلط بمرايا المياه الساطعة، تغتسل بها من أجل أن تنطلق، وتنساب مع مياه البسفور.

١٩٩٠ -١٩٩٥



هذا الكتاب

الرواية التي بين يديك عزيزي القارىء ليست رواية تاريخية وإن كانت تتحدث عن محمد الفاتح، الشخصية العثمانية البارزة وفاتح القسطنطينية، عن بداية عصر النهضة العثماني الذي دشنته يداه، بل هي سرد باروكي معاصر لشخصية تاريخية وحدث تاريخي.

حظيت هذه الرواية بانتشار كبير في تركيا، وترجمت حال صدورها الى الفرنسية والألمانية والإيطالية.







منشورات الجمل